

رواية
الملاح

ألف ليلة وليلة



مايكل كرايتون



اهداءات ٢٠٠٢

أسرة المرحوم/شارل كرتيه
الاسكندرية



BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

روايات الكتاب

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
(إهداء) مكتبة الاسكندرية

رقم التسجيل ٧٧٠٤٧

مجلة شهرية لنشر القصص العالمية

الطبعة الثانية
(١٩٩٩)

813.54

لا

ا

أكلت الموت

عن مخطوطة
ابن فضلان

بقلم

مايكل كرايتون

ترجمة

تيسير كامل



دار الهلال

« لا تمدح النهار حتى ياتي المساء ،
ولا المرأة حتى تحرق ، ولا السيف حتى
يجرب ، ولا الصبية حتى تتزوج ، ولا الجليد
حتى تعبره ، ولا تمدح شرابا حتى تشرب
منه » .

مثل شعبي من امثال الفايكنج
« وجد الشر منذ اقدم العصور »
مثل عربي

تقديم

تقديم روايات الهلال للقارىء العربى رواية « آكلة الموتى Eaters of Death » ، التى حققت فى أوروبا والولايات المتحدة أعلى أرقام التوزيع ، ويصدق على هذه الرواية القول : « هذه بضاعتنا ردت إلينا .. » ، فهى إعادة صياغة مخطوط الرحالة العربى ابن فضلان بأسلوب روائى عصري ، يحافظ على الوقائع والاحداث التى سجلها فى رسالته ..

وكان الاولى بأولئك الذين لا يملون الحديث عن ذخائر التراث العربى ، أن يقوموا بجهد مشابه لما قام به الكاتب الأمريكى مايكل كريتشون Michael Critchon ويقدمون التراث فى ثوب جديد وصياغة معاصرة ..

فما زالت كتابة الرحالة العرب تبحث عن من يقدمها ، وهى تكاد تكون المراجع الوحيدة التى تنقل القرون الوسطى ، وما زالت مؤلفات الرحالة العرب عيون العالم المعاصر على هذه المرحلة التاريخية ، عندما كان العلم مزدهرا فى بلادنا ، وهذا ما دفع أمام المستشرقين الروس كراتشكوفسكى الى القول : « أنه لولا العرب لما قام علم الجغرافيا » ..

وتصف رسالة ابن فضلان بلاد الروس والبلغار والأتراك واصقاع الشمال النائية ، وهى المصدر الرئيسى لتاريخ الشمال المسجل فى وقت لم تكن تعرف فيه هذه الدول القراءة والكتابة ..

وكان ابن فضلان أحد افراد البعثة التى أوفدها الخليفة العباسى المعتذر الى بلاد الصقالبة « الروس » لمساعدتهم فى مواجهة تحركات دولة الخزر اليهودية ، فيذكر ابن فضلان : « أن ملك الصقالبة المش ابن بلطوار طلب بعثة لكى تفقهه فى الدين وتعرفه شرائع الاسلام ، وتبنى له مسجدا وتقيم له حصنا ضد ملوك الخزر الذين يعتدون على قومه ويفرضون عليهم الضرائب ، وكان ملك الخزر يخطب من يشاء من بنات ملك الصقالبة ويتزوجها غصبا ، والخزرى يهودى وابنة الصقلبي مسلمة ! » ..

وقد رحل الوفد من بغداد يوم الخميس ١١ صفر عام ١٣٠٩ هـ (٢١ يونيو ١٩٢١ م) ، وعبر نهر جيحون ووصل الى بخارى ثم توغل حتى وصل الى نهر الفولجا ، وهناك اختطفه جماعة من الفايكنج وأخذوه الى الشمال الاسكندنافي ، وعند عودته سجل وصف الرحلة بكل أحداثها في رسالته الى الخليفة ..

وبقيت أقسام من الرحلة مجهولة ، ولكنها طبعت في الغرب ، وترجمت ، ولم تصل الى خزائننا العربية ..

حتى نشر وحقق مخطوط ابن فضلان الدكتور سامي الدهان في دمشق عام ١٩٥٩ ، وحققها في ذات الوقت الدكتور بير فراوس دولوس ، الاستاذ في جامعة اوسلو بالنرويج ، واخيرا بعث فيها الحياة الكاتب الامريكي كريشون عندما صاغها بأسلوب روائي شيق . وجعل النص على كل لسان ..

ويقول كريشون : « يعد مخطوط ابن فضلان اقدم تسجيل معروف كتبه شاهد عيان من حياة الشعب الاسكندنافي ، وهو بذلك وثيقة فريدة من نوعها ، تصف بدقة متناهية أحداثا وقعت منذ ما يزيد عن ألف عام » ..

وقدم المؤلف عملا جذابا بعد ان امسك بالخط الروائي للرحلة وقدم من خلالها العادات والتقاليد التي كان يعيشها مجتمع الشمال .

مقدمة

بقلم : مصطفى نبيل

تقدم مخطوطة ابن فضلان أقدم وصف معروف لشاهد عيان حول حياة النايكنج ومجتمعهم . وهذه المخطوطة وثيقة نادرة ، تصف بتفصيل حي حوادث وقعت منذ أكثر من ألف عام . ومن الطبيعي ألا تكون قد بقيت كاملة غير منقوصة عبر هذه الحقبة الطويلة جدا من الزمن . فلهذه المخطوطة تاريخها الخاص ، وهو تاريخ ليس أقل شأنا وأثارة من النص ذاته .

أصل ومنشأ المخطوطة

في يونيو من عام ٩٢١ ميلادية أرسل خليفة بغداد أحد أفراد حاشيته ، وهو أحمد ابن فضلان سفيرا إلى ملك البلغار . وقد أمضى ابن فضلان ثلاثة أعوام في رحلته دون أن ينجز مهمته ، لأنه وهو في طريقه إلى بلاد البلغار التقى بمجموعة من رجال الشمال وكان له بينهم مغامرات عديدة .

وعندما عاد أخيرا إلى بغداد ، سجل ابن فضلان تجاربه ومغامراته على شكل تقرير رسمي قدمه إلى البلاط . إلا أن تلك المخطوطة الأصلية اختفت منذ زمن طويل ، ولكي نعيد تجميعها وبناءها من جديد كان علينا أن نعتمد على مقاطع متفرقة حفظت في مصادر لاحقة .

وأفضل هذه المصادر المعروفة هو معجم جغرافي عربي كتبه ياقوت ابن عبد الله الحموي في فترة ما من القرن الثالث عشر . يضمن ياقوت معجمه عددا كبيرا من المقاطع المروية من تقرير ابن فضلان ، الذي كان قد مضى عليه آنذاك قرابة الثلاثمائة عام . فلا بد من الافتراض أن ياقوت كان يعتمد على نسخة من الأصل . إلا أن هذه الفقرات القليلة نسبيا على أي حال قد أعيدت ترجمتها مرات عديدة من قبل علماء كثيرين حديثين .

كما اكتشف مقطع آخر فى روسيا فى عام ١٨١٧ ونشر باللغة الالمانية من قبل اكاديمية القديس بطرسبرج فى عام ١٨٢٣ . ويتضمن هذا المقطع مقاطع معينة نشرت سابقا من قبل ج . ل . راسميوس فى عام ١٨١٤ . وقد اعتمد راسميوس على مخطوطة وجدها فى كوبنهاجن ، ثم اختفت منذ ذلك الحين ، وهى مخطوطة يشك كثيرا فى أصلها ، كما كان هناك ترجمات سويدية وفرنسية وانجليزية ، ايضا فى تلك الفترة ، الا انها جميعا غير صحيحة الى حد الاسفاف الظاهر ، ولا تقدم اى معلومات جديدة .

وفى عام ١٨٧٨ تم اكتشاف مخطوطتين جديدتين فى المجموعة الاثرية العائدة للسير جون امرسون . والسير جون ، الذى كان سفير بريطانيا فى القسطنطينية ، كان واحدا من اولئك الجامعين الشرهين الذين كانت جماعتهم للاقتناء تتجاوز بكثير اهتمامهم بالاثر المكتسب . وقد اكتشفت المخطوطتان بعد وفاته ، ولا يعرف احد متى حصل عليهما .

احدى هاتين المخطوطتين هى مخطوطة جغرافية بالعربية كتبها أحمد الطوسي ، يرجع تاريخها الى عام ١٠٤٧ ميلادية . وهذا ما يجعل مخطوطة الطوسي اقرب زمنا من كل المخطوطات الاخرى لمخطوطة ابن فضلان الاصلية ، التى يفترض انها كتبت حوالى الفترة بين عامى ٩٢٤ - ٩٢٦ ميلادية . الا ان العلماء يعتبرون مخطوطة الطوسي اقل المصادر اهلا للثقة : فالنص ملئ بالاطعاف والاضحاح وانعدام الاتساق الداخلى ، ورغم انها تقتبس بشكل مطول من « ابن الفقيه » الذى زار بلاد الشمال ، فان مراجع كثيرة تتردد فى قبول هذه المخطوطة .

اما المخطوطة الثانية فهى مخطوطة امين الرازى ، المؤرخة تقريبا حوالى الفترة ما بين عامى ١٥٥٨ - ١٥٩٥ ميلادية . وهى مكتوبة باللاتينية ، وحسب قول كاتبها فقد ترجمت مباشرة من النص العربى لابن فضلان . وتتضمن مخطوطة الرازى بعض المعلومات عن اترك الاوغوز ، كما تتضمن فقرات عديدة تتعلق بالمعارك ضد وحوش الضباب ليست موجودة فى المصادر الاخرى .

وفى عام ١٩٣٤ اكتشف مخطوط اخير مكتوب بلاتينية المصور

الوسطى وجد في دير كسيموس قرب ثيسالونيكيا شمالي اليونان .
وتحوى مخطوطة كسيموس بعض المعلومات والتعليقات الاضافية
عن علاقات ابن فضلان بالخليفة وعن مفامراته مع مخلوقات بلاد
الشمال . الا ان كاتب مخطوطة كسيموس وتاريخها كليهما غير
مؤكدين .

ان تجميع هذه الترجمات العديدة ، والتي ظهرت عبر فترة تزيد
عن الالف عام ، ونشرت بالعربية واللاتينية والالمانية والفرنسية
والدنمركية والسويدية والانجليزية ، لهو مهمة ذات ابعاد هائلة .
ولا يمكن أن يقدم على مثل هذه المهمة الا واسع المعرفة . فقد جمع
بيرفراوس دولوس استاذ الادب المقارن في جامعة اوسلو في
النرويج كل المصادر المعروفة وبدأ بتنفيذ مهمة الترجمة الهائلة ،
تلك المهمة التي شغلته حتى وفاته عام ١٩٥٧ . وقد نشرت أجزاء
من ترجماته في مجلة وقائع المتحف الوطنى في اوسلو في عامى ١٩٥٩
- ١٩٦٠ ، لكنها لم تثر الكثير من الاهتمام العلمى ، او من اهتمام
العلماء ، ربما لان تلك المجلة محدودة الانتشار .

لقد كانت ترجمة فراوس دولوس ترجمة حرفية في المقدمة التي
كتبها فراوس دولوس شخصيا لترجماته اشار الى انه « من طبيعة
اللغات ان لا تكون الترجمات الجميلة (دائما) صحيحة ، وان الترجمة
الصحيحة تكتشف جمالها الخاص بها دونما مساعدة » .

فى أثناء اعدادى لهذه النسخة الكاملة والمنقطة لترجمة فراوس
- دولوس ، قمت باجراء بعض التغييرات او التنقيحات . فقد
حذفت بعض المقاطع المكررة ، وقد بينت هذا في سياق النص .
كما اثنى غيرت بنية الفقرات ، بادئا كلام كل متحدث اقتبس منه
مباشرة بفقرة جديدة ، متبعا بذلك الاعراف الحديثة في الكتابة .
كما حذفت شارات اللفظ عن الاسماء العربية وأخيرا . غيرت أحيانا
النص الاصلى غالبا بتغيير مواقع الجمل الثانوية او الوصفية بحيث
يصبح المعنى أكثر قربا للفهم والادراك .

الفايكنج

هناك تباين واضح بين الصورة التى يرسمها ابن فضلان للفايكنج
وبين النظرة الاوروبية التقليدية لهؤلاء الناس . قاولى اوصاف

الفايكنج الاوروبية سجلها رجال الدين . اذ كانوا الشهود الوحيدين الذين كانوا يستطيعون الكتابة في تلك الايام ، وقد نظروا الى رجال الشمال الوثنيين نظـرة رعب خاص . وهذا مقطع مفرط القلوب التقليدي ، اقتبسـه « د . م . ولسون » عن كاتب ايرلندي من كتاب القرن الثاني عشر .

« وبكلمة موجزة ، رغم انه كان هناك مائة رأس معمم بحديد الفولاذ فوق كل عنق ، ومائة لسان لاسع ، حاصر البديهة ، بارد ، لا يصدا ، صفيق وقح في كل رأس ، ومائة صوت ثرثار عال لا يتوقف في كل لسان فلم تكن تستطيع ان تعيد او تروى ، او تعدد او تخبر . بما عاناه الايرلنديون جميعا ، رجالا ونساء ، عامة ورجال دين ، شبيبا وشبابا ، نبلاء واشقياء ، من الادى ومن الايداء والاضطهاد . وفي كل بيت ، من قبل هؤلاء الناس الاشداء ، الهائجين الغاضبين ، والوثنيين تماما » .

يميز العلماء المعاصرون ويعترفون بأن مثل هذه الروايات التي تجعد الدم في العروق عن غزوات الفايكنج ؟ مبالغ فيها الى حد كبير . ومع ذلك فان الكتاب الاوربيين ما زالوا يميلون الى استبعاد الاسكندنافيين واسقاطهم باعتبارهم برابرة دمويين غير ذوى اهمية بالنسبة الى التيار الرئيسى للثقافة الغربية والافكار الغربية ، وغالبا ما كان يحصل هذا على حساب منطق ما . فد يجد تالوت رابسى يكتب مثلا :

« ربما كان دور الفايكنج ما بين القرنين الثامن والحادى عشر أكثر تأثيرا بالفعل من أى مجموعة بشرية مفردة فى اوروبا الغربية » .

وهكذا كان الفايكنج رحالة عظاما ، كما انجزوا مغامرات بارزة فى عالم الملاحة وكانت مدنها مراكز عظيمة للتجارة ، وكان فهم اصيلا مبدعا ومؤثرا . وقد تباهاوا بادبهم الرفيع وبقنانتهم المتطورة .. هل كانت حقاً حضارة ؟ . اعتقد انه لا بد من الاعتراف بانها لم تكن كذلك .

فلمسة الانسانية ، والتي هى علامة الحضارة كانت غائبة تماما .. وكلها زاد انتباهنا حين قراءة هذه الافكار ازداد وضوح عدم .

منطقيتهما . وفى الواقع لابد وأن يتساءل واحد منا : لماذا يشعر العلماء الاوربيون عالى الثقافة الإذكاء بأنهم أحرار فى اسقاط الفايكنج من حسابهم وبما لا يتجاوز الامعاء العابرة ؟ ولماذا الانشغال بالقضية اللغوية حول ما اذا كان للفايكنج حضارة ام لا ؟ فالوضع واضح سهل الفهم بمجرد أن يعترف الواحد منا ويميز الانحياز الاوربى طويل الامد والنابع من الآراء التقليدية عن فترات ما قبل التاريخ الاوربى !

فكل طفل غربى يذهب الى المدرسة يلقن ياسهاب أن الشرق الأدنى هو مهد الحضارة ، وأن أولى الحضارات قد برزت ونهضت فى مصر وفيما بين النهرين ، يغذيها نهر النيل واحواض نهري دجلة والفرات . ومن هنا انتشرت الحضارة الى كريت واليونان ، ومن ثم الى روما واخيرا الى برابرة شمالى اوربا .

اما ما الذى كان هؤلاء البرابرة يفعلونه بينما كانوا ينتظرون وصول الحضارة اليهم فقير معروف ، ولم يكن هذا السؤال يثار غالبا . فالتأكيد كان على عملية امتصاص هذه الحضارات وتمثلها وهى العملية التى لخصها الكاتب « كوردن تشايلدن » بأنها طمس البربرية الاوربية بواسطة الحضارة الشرقية . ولقد تبنى العلماء المعاصرون هذا الراى كما فعل العلماء الرومان واليونان قبلهم . يقول جفرى بيبى : ينظر الى تاريخ اوربا الشمالية والشرقية وقيم من الغرب والجنوب مع كل المفاهيم المسبقة لرجال اعتبروا انفسهم متحضرين ينظرون من عل الى رجال اعتبروهم برابرة .

من وجهة النظر هذه يكون الاسكندنافيون فعلا وبكل وضوح أبعد الناس عن منبع الحضارة ومنطقيا آخر من يكسبها ، وبناء على ذلك ربما كانوا يعتبرون آخر البرابرة ، أو شوكة مزعجة فى جاضرة تلك المناطق الاوربية الاخرى ، التى تحاول أن تستوعب حضارة الشرق وحكمته .

وتكمن المشكلة فى أن هذا الراى عن فترة ما قبل التاريخ الاوربى قد تم اسقاطه خلال الخمسة عشر سنة الماضية اذ أن تطور تقنيات تحديد التاريخ الصحيح بواسطة الكربون قد أدى الى فوضى كبيرة فى الترتيب الزمنى الماضى ، ذلك الترتيب الذى كان يدعم الآراء القديمة القائمة على أساس الانتشار « انتشار الضوء » . ويبدو

الان انه مما لا شك فيه ان الاوربيين كانوا يبنون قبورا هائلة (ميغالينية) قبل ان يبنى المصريون اهراماتهم ، و « استون هينج » Stone Henge أقدم من حضارة اليونان (الميسينية) ، كما ان دراسة المعادن واستعمالها في أوربا ربما سبق تطور مهارات تصنيع المعادن في اليونان وطرادة .

لم يميز بعد معنى هذه الاكتشافات ولكنه قطعاً من المستحيل الان ان نعتبر أوربي ما قبل التاريخ متوحشين ينتظرون بखمول بركات الحضارة الشرقية . بل على العكس من ذلك فانه يبدو ان الاوربيين قد نموا مهارات تنظيمية من المكانة بما يكفي لتصنيع احجار هائلة الحجم ، كما يبدو انه كان لهم معرفة فلكية كافية لبناء « استون هينج » الذي هو اول مرصد في العالم .

وهكذا فان الانحياز الاوربي نحو الشرق المتحضر لابد وان تثار حوله الاسئلة . وفي الحقيقة فان مفهوم البربرية الاوربية يجد ذاته يحتاج الى اعادة نظر فيه . فاذا اخذنا كل هذا بعين الاعتبار نجد ان هذه البقايا البربرية ، الى الفايكنج ، يكتسبون أهمية جديدة ، وعندها نستطيع ان نعيد دراسة ما هو معروف عن اسكندنافيين القرن العاشر .

اولا يجب ان نميز او نعترف بان الفايكنج لم يكونوا أبدا مجموعة موحدة بشكل واضح ، فما رآه الاوربيون لم يكن سوى مجموعات متناثرة ومنغلقة من جوالى البحار اتوا من منطقة جغرافية واسعة - فاسكندنافيا اكبر من البرتغال واسبانيا وفرنسا مجتمعة - وكانوا يبحرون من دويلاتهم الاقطاعية المنغلقة بغرض التجارة او القرصنة او كليهما ، فقلما كان الفايكنج يميزوا بين هذه وتلك . لكن ذلك ميل مشترك بين كثير من جوالى البحار بدءا من اليونانيين الى الاليزابثيين .

وفي الواقع فانه بالنسبة لشعب كان يفتقر الى الحضارة ولم يكن يشعر بالحاجة الى ان ينظر الى ما وراء المعركة القسادية فان الفايكنج يظهرون سلوكا هادفا ومنضبطا الى ابعد حدود الانضباط ، وكبرهان على تجارتهم واسعة الانتشار فان مقاطع اللغة العربية بدأ بالظهور في اسكندنافيا بدءا من عام ٦٩٢ . وفي خلال الـ ٤٠٠ عام التالية امتدت رقعة انتشار القرصنة التجار من الفايكنج حتى وصلت

الى الارض الجديدة غربا (نيو فاوند لاند) وامتلت جنوبا حتى وصلت الى صقلية واليونان حيث ترك الفاكنج نحو منهم على أسود (دلوس) ، وشرقا حتى جبال الاورال في روسيا ، حيث تم اتصال تجارهم ، بالقوافل القادمة من طريق الحرير الى الصين . لم يكن الفاكنج بناء امبراطوريات ، ومن المألوف القول ان تأثيرهم غير هذه المنطقة الواسعة لم يكن دائما او لم يترك اثرا دائما ، ولكنه دام بما فيه الكفاية ليورث اسماء اماكن لكثير من المناطق في انجلترا ، بينما اعطوا لروسيا اسم الامة نفسها . وذلك من اسم القبيلة الشمالية (روس) ، اما بالنسبة للآثر الاكثر وضوحا لفنهم الوثني ، ولطاعتهم التي لا تعرف الملل ولنظام القيم عندهم فان مخطوطة ابن فضلان تبين لنا كم من القيم الشمالية التقليدية قد تم الاحتفاظ بها حتى يومنا هذا . وفي الحقيقة فان هناك شيئا مألوبا الى حد كبير وشبيها بالرؤية المعاصرة لطريقة حياة الفاكنج كما ان فيها شيئا يحببها الى نفس القارىء بعمق .

لمحة عن المؤلف

لا بد من كلمة عن ابن فضلان ، ذلك الرجل الذى يتحدث الينا بصوت متميز واضح ، رغم مضى أكثر من ألف عام ، ورغم مصافي الناقلين والمترجمين المنتمين الى عدد كبير من التقاليد الثقافية واللغوية .

لا تكاد نعرف عنه شخصا اى شئ . من الواضح انه كان متعلما مثقفا ، ومن تجاربه يبدو انه لم يكن متقدما في السن . وهو يكتب بشكل لا لبس فيه مبينا أنه من معارف الخليفة الذى لم يكن يحبه كثيرا . (لم يكن وحيدا في هذا المجال ، لان هذا الخليفة - المقتدر - قد أطيح به مرتين ثم قتله واحد من ضباطه) .

اما عن مجتمعه فاننا نعرف أكثر من ذلك . فقد كانت بغداد ، مدينة السلام ، في القرن العاشر الميلادى ، أكثر مدن الدنيا حضارة . وكان يعيش أكثر من مليون مواطن ضمن أسوارها الدائرة المشهورة . وكانت بغداد مركز الاستقطاب والانارة الفكرى والسياسى ، يحيط بكل ذلك جو من الرشاقة والاناقة والبهاء

الخارقة للعادة . فكانت هناك حدائق معطرة ، وغابات ظليلة باردة ، كما كانت هناك الثروات المكسدة لامبراطورية مترامية الاطراف .

كان عرب بغداد مسلمين شديدي الايمان وكانوا على صلة بالشعوب تنظر وتتصرف وتفكر بطرق تختلف عن طرقهم . وكان العرب في الواقع أقل شعوب ذلك الزمان اقليمية ، وهذا ما جعلهم مراقبين متفوقين للثقافات الاجنبية .

وواضح ان ابن فضلان ذكى دقيق الملاحظة فهو مهتم بكل الحياة اليومية ومعتقدات الشعب الذى يلتقى به . وكثير ما شاهده قد صدمه على انه سوقي ، بذيء وبربرى ، ولكنه لا يهدر وقته فى اظهار استعزازه ، فما ان يعبر عن اعتراضه حتى يعود الى ملاحظاته التى لا تغفل شيئا . وهو يدون ما يراه بعدد من العجرفة تنير الاعجاب .

قد يبدو اسلوبه فى تدوين مشاهداته ذاتيا بالنسبة للمقاييس الغربية ، فهو لا يروى لنا قصة كما تعودنا أن نسمع القصص . ونحن ميالون لان ننسى ان حنا الدرامى يرجع فى اصوله الى تقاليد شفوية - وهو عرض حى مباشر يقدمه شاعر امام جمهور غالبا ما كان قلنا نافذ الصبر ، أو ربما خاملا يغلبه النعاس بعد وجبة دسمة . فاقدم حكاياتنا ، كاللياذة . وملحمة بيولف واغنية رولاند ، كانت جميعها مهياة لتغنى من بين مغنيين كانت مهمتهم الاساسية والتزامهم الاول التسلية والترفيه .

لكن ابن فضلان كان كاتباً ، ولم يكن هدفه الرئيسى التسلية ، كما لم يكن تمجيد راع يصفى اليه أو تأكيد اساطير المجتمع الذى يعيش فيه . بل على العكس من ذلك ، كان ابن فضلان سفيراً يقدم تقريراً ، فلهجته هى لهجة محاسب ضرائبى ، لا لهجة شاعر ، ولهجة عالم مهتم بالاصول الانسانية ، لا لهجة كاتب مسرحى . وهو فى الواقع يستخف غالباً بأكثر العناصر إثارة فى روايته بدلا من أن يدعها تتداخل بسرده الواضح المسطح .

ويبدو ان هذه الزية ، مزية المراقبة البعيدة عن الذاتية ، تصبح احيانا مزعجة الى حد نعجز معه فى التعرف على أى نوع من الملاحظين الخارقين للعادة . كان ابن فضلان . فلمئات السنين تلت ابن فضلان كان العرف بين الرحالة ان يكتبوا احداثا خيالية عن

أعاجيب الاعاجم - كالحیوانات الناطقة والرجال المجنحين الذين يطیرون ، ولقاءات بأفراس البحر واحادی القرن . وحتى مائتي عام مضت ، كان الاوربيون ، والذين كانوا فی غیر هذه الاحوال اناسا واعين ، يملأون صحفهم ومجلاتهم بكلام هراء عن القردة الافريقية التي كانت تشن الحرب على المزارعين وغير ذلك .

اما ابن فضلان فانه لا يترك العنان لخياله . فكل كلمة ترد صدی صدق ، وحتى حين يدون ما سمع به سمعا فانه حريص على أن يبين ذلك . وهو حريص بنفس القوة أن يحدد متى يكون شاهد عيان : ولهذا يستعمل جملة « رايت بعيني الاثنين .. رايت بأم عيني » مرارا وتكرارا .

وفي النهاية ، فان خاصية الصدق المطلق هي التي تجعل روايته مرعبة الى هذا الحد . اما فيما يتعلق ببقائه بوحوش الضباب ، أو « بأكلة الموتى » كما يسميهم ، فان قصته مروية بنفس تلك العناية بالتفاصيل ، ونفس ذلك الشك الواعي الذي يعيز كل اجزاء المخطوطة الاخرى .

وعلى اية حال ، فالقارئ قادر على ان يصدر حكمه بنفسه .

والرجلان غمقا بها بالجبل حتى ماتت ثم واثقوا
 ثم اسعدوا بالنار ثم مشى القهقري قما الى السفينة و
 من حبه انشغل به و احد و بين الخمرين على باب اسف وهو عريان
 من الخشب المعيا الذي تحت السفينة ثم واثق الناس بالخشب والخبز ومع
 في السفينة ناهب راسها فيقهره ذلك الخشب ويخذ النار الى الخشب
 في النار والدار وجمعه ما فيها
 صميم

تمزج من المخطوطة البو

الفصل الاول

يوم ان غادرنا مدينة السلام

الحمد لله الرحمن الرحيم ، سيد العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم وحفظه في سلام دائم مقيم وصلى عليه الى يوم الدين .

وبعد فهذا كتاب احمد بن فضلان بن العباس بن الرشيد بن الحمد ، وهو وكيل لمحمد بن سليمان سفير المقتدر الى ملك الصقالبة ، يروى فيه ما كان قد رآه في بلاد الاتراك وبلاد الهوزار وبلاد الصقالبة وبلاد الباسكر وبلاد الروس وبلاد اهل الشمال ، وما عرفه من تاريخ ملوكهم والطرق التي يتعرفون حسبها في الكثير من شئون حياتهم .

وصلت رسالة المش بن بلطوار ملك الصقالبة ، الى امير المؤمنين المقتدر . وقد طلب فيها ان يرسل من يستطيع ان يتقنه في امور الدين وان يفقهه في الدين ويعرفه شعائر الاسلام ، وان يبنى له مسجدا وان يشيد له منبرا يحمل رسالة الاسلام حتى يعتنقها شعبه في كل ارجاء المملكة ، وليقدم له النصيحة ايضا في مجال بناء الحصون والتحصينات ضد ملوك الخزر من اليهود الذين يعتدون على قومه . وقد رجا الخليفة ان يقدم له هذه الاشياء ، وكان الوسيط في هذه القضية هو دادر الحرامى .

لم يكن امير المؤمنين المقتدر ، خليفة قويا عادلا ، لكنه كان اسير ملذاته وخطب ضباطه المتلمقة الذين كانوا يسخرون منه ويطلقون النكات عليه خلف ظهره . اما انا فلم اكن واحدا من هذه الجماعة ، كما لم اكن من المقرين الى الخليفة بصورة خاصة وذلك للسبب الذى سأذكره :

كان يعيش في مدينة السلام تاجر متقدم السن اسمه ابن قارن وكان رغم غناه في كل شيء يفتقر الى قلب كريم والى حب الانسان .

كان يخزن ذهبه وايضا وبنفس الطريقة زوجته الشابة ، التى لم يكن قد رآها أحد ، ولكن الكل تحدث عن جمالها الذى كان يفوق كل وصف . وفى أحد الايام أرسلنى الخليفة لاسلم رسالة لابن قارن ، فحضرت الى بيت التاجر واستأذنت بالدخول اليه ومعى رسالتى مختومة . وحتى هذا اليوم لا أعرف شيئا عن محتوى هذه الرسالة ، ولكن ليس هذا هو المهم .

كان التاجر خارج البيت يقضى بعض الاعمال . اوضحت للحاجب اننى يجب على ان انتظر عودته لان الخليفة قد أمرنى بأن اسلم الرسالة باليد . وهكذا سمح لى البواب بالدخول الى البيت ، وهو الامر الذى استغرق بعض الوقت ، فباب البيت محصن بعدد كبير من الاقفال والقضبان والاعمدة كما هو مألوف فى منازل البخلاء . وبعد طول انتظار ادخلت البيت وانتظرت طيلة النهار ، حيث اشتد على الجوع والعطش ، ولكن لم يقدم لى اية مرطبات من قبل خدم التاجر العفن .

وفى آخر الظهيرة ، وبينما كل شىء حولى فى البيت ساكن والخدم نيام ، غالبنى التماس انا ايضا . وفجأة رايت أمامى شبحا ملفعا بالبياض ، امرأة شابة جميلة عرفت فيها الزوجة التى لم يرها رجل أبدا . لم تنطق ببنت شفة الا أنها قادتنى بايماة منها الى غرفة أخرى وهناك أقفلت على الباب . واستمتعت بها حالا وبلا انتظار ، وهى فى ذلك المجال لم تكن بحاجة الى اى تشجيع ، فقد كان زوجها عجوزا ، ولا شك مهما ايضا . وهكذا مضى الظهر وبعد الظهر بسرعة كبيرة حتى سمعنا رب البيت يعود اليه . وفى الحال نهضت الزوجة وغادوت الغرفة ، ولم تكن قد نطقت بكلمة واحدة فى حضورى ، بينما تركت انا لأرتب ثيابى بسرعة وقلق .

كان يمكن ان اصاب بالهلع والخوف والجزع بالتأكيد لولا تلك الاقفال الكثيرة التى أعاقت دخول البخيل الى داره . ووجدنى التاجر ابن قارن فى الغرفة المجاورة ورومانى بنظرة اشتباه وريبة متسائلا لم لست فى باحة الدار حيث ينتظر الرسل عادة . أحببته بأننى كنت جائعا واننى قد أفهمى على فقمت أبحث عن الطعام والظل . كانت تلك كذبة مفضوحة ولم يصدقها أبدا ، فاشتكى الى الخليفة الذى كما علمت سر للأمر فى سريره ولكنه اضطر لان

يلبس وجهه الملبوس أمام الناس . وهكذا فحينما طلب حاكم الصقالبة بعثة من الخليفة ، أصر هذا الحاقد ابن قارن على أن أرسلنا إلى هذه المهمة ، وهكذا كان .

كان من ضمن جماعتنا سفير ملك الصقالبة الذي كان يدعى عبد الله بن بسطو الهزاري ، والذي كان رجلا متعبا صاحبنا ثرائرا . وكان هناك أيضا تاقن التركي وبارس الصقلبي . كان كلاهما مرشدا في رحلتنا ، وفي الجماعة كنت أنا واحد منها أيضا . وكنا نحمل الهدايا للحاكم ولزوجته وأطفاله ولقاداته . كما كنا نحمل بعض العقاقير التي وضعت تحت رعاية سوسق الراسي . فكانت مجموعتنا إذن مشكلة على هذا النحو .

وهكذا انطلقنا يوم الخميس الحادي عشر من صفر سنة ٣٠٩ (٢١ يونية ٩٢١) انطلقنا من مدينة السلام (بغداد) . توقفنا يوما واحدا في نهروان ، ومن هناك انطلقنا بسرعة حتى وصلنا إلى الدسكرة حيث توقفنا لمدة ثلاثة أيام . ثم تحركنا قدما ودون أي التفاتات حتى وصلنا حلوان . وهناك بقينا يومين انطلقنا بعدها إلى قرمسين حيث مكثنا يومين أيضا . ثم انطلقنا في رحلتنا حتى وصلنا همدان حيث بقينا ثلاثة أيام . ومن هناك انطلقنا إلى صوى حيث بقينا يومين ومنها إلى رى حيث بقينا أحد عشر يوما بانتظار أحمد ابن علي شقيق الراسي لأنه كان في « حوار الرى » . ثم ذهبنا إلى « حوار الرى » وبقينا هناك ثلاثة أيام .

(هذا المقطع يقدم لنا صورة عن وصف ابن فضلان للرحلة والاسفار . وربما كان ربع المخطوطة أو يزيد مكتوبا بهذه الطريقة ، ساردا ببساطة أسماء المناطق وإقامته فيها وعدد الأيام التي قضاه في كل منها . لهذا فإن معظم هذه المادة قد تم حذفها) .

(وواضح أن رفاق ابن فضلان كانوا مسافرين صوب الشمال وانهم في آخر المطاف اضطروا أن يتوقفوا بسبب الشتاء .)

كانت إقامتنا في الجرجانية طويلة ، فقد مكثنا هناك بعض أيام شهر رجب (نوفمبر) وطيلة شهر شعبان ورمضان وشوال . وكان سبب إقامتنا الطويلة هذه البرد وقساوته . وقد قيل لى أن رجلين أخذوا الجمال إلى الغابات ليأتيا بالحطب . ويبدو أنهما نسيا أن يأخذا قاذحة وقتيلا معهما ، ولهذا ناما طيلة الليل بدون نار .

وعندما أصبحنا فى اليوم التالى وجدا ان الجمال قد تجمدت وتصلبت بسبب البرد .

والحق انى رايت سوق وشوارع الجرجانية مهجورة بسبب البرد ، فكان الواحد يستطيع ان يلدع الشوارع دون ان يلتقى باى انسان . ومرة ، وبينما كنت خارجا من الحمام ، دخلت الى بيتى ونظرت الى لحيتى رايتها كتلة من الجليد وكان على ان افرها قريبا من النار . ولقد امضيت ليلى ونهارى فى بيت كان ضمن بيت آخر حيث اقيمت خيمة تركية مصنوعة من اللباد ، كما لففت انا نفسى بتياب كثيرة وسجاجيد ايضا . ولكن رغم كل هذا كان خدائى غالبا ما يلتصقان بالوسادة ليلا .

فى هذا البرد القارس كنت ارى الارض تشكل احيانا بعض الشقوق الهائلة ، وربما كنت تقع على شجرة هائلة قديمة وقد انشطرت نصفين بسبب هذه الشقوق .

فى حوالى منتصف شوال من عام ٣٠٩ (فبراير ٩٢٢) بدأ الطقس يتغير كما بدأ النهر يلدوب وبدانا نجمع الاشياء الضرورية لرحلتنا ، فاشترينا جمالا تركية وقوارب جلدية مصنوعة من جلد الجمال وذلك استعدادا لعبور الانهار التى كان علينا ان نعبرها فى بلاد الاتراك .

كما جمعنا زادا ومؤونة من الخبز والدخن (او الجاروس) واللحم المقدد يكفيننا لثلاثة اشهر . ولقد نصحننا معارفنا فى المدينة الى لبس الكثير من التياب وخزن الحاجيات قدر حاجتنا اليها . كما وصفوا لنا المشاق المقبلة علينا بتعابير مخيفة ، وكنا نعتقد بانهم كانوا يبالغون فى قصتهم ، الا اننا حين جابهنا هذه المشاق وجدناها اعظم بكثير مما وصفوا .

ارتدى كل منا معطفا وفوق ذلك المعطف معطفا وفوق ذلك المعطف قفطانا وفوق القفطان مباءة وفوق هذا وذاك ارتدى كل منا خوذة من اللباد لم يكن يطل منها الا العينان . كما ارتدى كل منا تحت كل ذلك زوجا من التياب الداخلية فوقها سروال كما ارتدى خفين بطولهما حذاءان . فعندما كان الواحد منا يريد ان يعتلى جملة لم يكن يستطيع حراكا لكثرة ثيابه .

كان الفقيه والمعلم والرهط الذين سافروا معنا من بغداد قيد تركونا الان خشية دخول هذا البلد الجديد وهكذا فقد انطلقنا أنا والسفير وصهره وحاجباه تاقن وباريسن لوحدها (١) .

أصبحت القافلة الان جاهزة للانطلاق استأجرنا مرشدا لنا من سكان المدينة كان اسمه قلاووظ . ثم ، معتمدين على الله القوى العزيز ، انطلقنا يوم الاثنين الثالث من ذى القعدة عام ٣٠٩ (الثالث من آذار ٩٢٢) من بلدة الجرجانية .

وفي نفس ذلك اليوم توقفنا فى البلدة المسماة زامكان اى بوابة بلاد الترك . وفى الصباح الباكر من اليوم التالى تقدمنا الى جت ، وهناك تساقط علينا من الثلج ما جعل الجمال تفوض فيه حتى الركب ، فتوقفنا هناك يومين .

ثم أسرعنا الخطا باتجاه مباشر صوب ارض الاتراك دون ان نلتقى بأحد فوق هذا الجرف المستوى الاجرد . وغذينا الرجال طيلة عشرة ايام من البرد القارس والعواصف الثلجية التى لم تنقطع والتى اذا ما قورن برد خوارزم بها بدا وكأنه ايام صيف جميلة ، الى حد أننا نسينا كل مشاقنا السابقة وكنا على وشك أن نتخلى عن مهمتنا كلها .

وفى احد الايام حينما كنا نتعرض لطقس أشد ما عرفناه برودة كان الحاجب تاقن يركب بمحاذاتى ، وبجانبه أحد الاتراك الذى كان يحدثه بالتركية . ضحك تاقن وقال لى : « هذا التركى يسأل : ماذا سيفعل الله بنا ؟ فهو يقتلنا من البرد . لو عرفنا ماذا يريد لقدمناه له » .

وعندها قالت : « قل له أن الله يريد أن يقول « لا اله الا الله » ضحك وقال : « لو كنت اعرف ذلك لقلته » .

(١) خلال المخطوطة لا يبدو ابن فضلان دقيقا فى وصف حجم وتشكيل مجموعته . وسواء كان هذا الاممال يعكس افتراض ابن فضلان أن القارئ يعرف تشكيلة القافلة أو أنه كان نتيجة فقدان بعض فقرات النص ، فإنه لا أحد يستطيع أن يكون متأكدا من السبب وقد تكون الاعراف الاجتماعية عاملا فى هذا ، لان ابن فضلان لا يبين أبدا أن مجموعته كانت تتجاوز عددا ، من الأفراد قليلا ، بينما كانت فى الواقع تعد مئة رجل أو تزيد ، كما كانت تعد ضعف ذلك العدد من الغيول والجمال . لكن ابن فضلان لا يمد - حرفيا - العبيد والخدم واعضاء القافلة الاقل قيمة كاعضاء حقيقيين - فى هذه البمشة .

ثم دخلنا فى غابة فوجدنا كميات كبيرة من الخشب الجاف فتوقفنا واشعل افراد القافلة النار وتدفأنا ثم خلعنا ثيابنا ونشرناها لتجف .

(من الواضح ان جماعة ابن فضلان قد بدأت تدخل الان فى منطقة دائئة لانه لا يشير من الان فصاعدا الى البرد القارس) .

انطلقنا ثانية واستمرينا فى الرحيل كل يوم بدءا من منتصف الليل وحتى وقت صلاة الظهر ، حين كنا نبطئ المسير ثم نتوقف نهائيا . بعد ان مضى علينا خمس عشرة ليلة على هذه الوتيرة من الترحال وصلنا الى جبل كبير عليه صخور كثيرة ضخمة هائلة ، كما وجدنا ينابيع ماء تنطلق من الصخور ويستقر ماؤها فى برك . ومن هذا المكان عبرنا الارض حتى وصلنا الى قبيلة تركية تسمى قبيلة اللاوغوز .

الفصل الثانى

تقاليد وطرق حياة الاتراك الاوغوز

الاوغوز قبائل رحل لهم بيوت من الشعر واللباد . يقيمون لفترة من الزمن فى مكان ما ثم يرحلون عنه الى مكان آخر . وبيوتهم موضعة هنا وهناك طبقا لمعدات القبائل الرحل . ومع انهم يعيشون حياة قاسية فانهم يشبهون الحمر التى ضلت . فليس بينهم وبين الله اية روابط دينية . وهم لا يصلون ابدا ولكنهم بدلا من ذلك يدمون رؤساء قبائلهم آلهة ، وحين يستشير أحدهم رئيس قبيلته حول أمر من الامور فانه يخاطبه قائلا « الهى ماذا افعل بهذا الامر او ذاك ؟ » .

وتصرفاتهم وممارساتهم تركز على المشورة فيما بين بعضهم البعض وحسب . ولقد سمعتهم يقولون « لا اله الا الله ومحمد رسول الله » ولكنهم يقولون هذا ليتقربوا من المسلمين لا لانهم يعتقدون به .

ويدعى حاكم الاتراك الاوغوز « يابغو » . وهو الاسم الذى يطلق على الحاكم كما . أن كل شخص يحكم هذه القبيلة يحمل هذا الاسم .

ولا يقتسل الاوغوز أبدا ، لا بعد التبرز ولا بعد التبول ، كما أنهم لا يستحمون بعد الجنابة ولا فى أى مناسبة من المناسبات . فهم لا يستعملون الماء أبدا وخاصة فى الشتاء ولا يستطيع التجار أو اتباع محمد أن يتوضؤوا بحضورهم الا ليلا حين لا يراهم الاتراك ، لانهم كانوا يفضون ويقولون « هذا الرجل يرغب فى أن يسحرنا لانه يغمر نفسه بالماء » ، وكانوا يجبرونه على دفع غرامة . ولا يستطيع أى من اتباع محمد أن يدخل بلاد الاتراك الا اذا وافق أحد الاوغوز أن يستضيفه ، حيث يمكث معه ويقدم له الثياب والملح من بلاد الاسلام ، ويطلب لزوجته بعض التوابل والدخن والزبيب والجوز . وعندما يصل المسلم الى بيت مضيفه ، يقيم له هذا الاخير خيمة ويقدم له الاغنام لكي يذبحها المسلم بنفسه . فالاتراك لا يذبحون أبدا ولكنهم يضربون الغنم على رأسها حتى تموت .

ونساء الاوغوز لا يتحجبن أبدا بحضور رجالهن أو الرجال الآخرين . كما لا تغطى المرأة ايا من اجزاء جسدها فى حضور أى شخص . فقد توقفتنا فى أحد الايام عند تركى وكنا جالسين فى خيمته . وكانت زوجة الرجل حاضرة . وبينما كنا نتبادل اطراف الحديث كشفت المرأة عن فرجها وحكته ، وقد رايناها تفعل ذلك فغطينا أعيننا وقلنا « استغفر الله العظيم » . عند ذلك ضحك زوجها وقال للمترجم « قل لهم اننا نكشفه بحضوركم فافضل ان ترونه علنا من ان تناولوه سرا » .

والزنا غير معروف بينهم أبدا فكل من يكتشفونه زانيا يقتلونه فيقربون غصنى شجرتين ثم يربطونه بالقصنين ويتركون الشجرتين تستقيمان مرة ثانية بحيث يشطر الرجل الذى ربط الى الشجرتين الى شطرين .

كما أن الاتراك يعتبرون عادة ممارسة اللواط خطيئة رهيبة . فقد حدث مرة أن تاجرا اتى ليقيم مع عشيرة كوداركن . وقد أقام مع مضيفه بعض الوقت ليشتري الغنم . وكان للمضيف ابن أمزد

فحاول الضيف دون ياس أن يفوى الصبي حتى جعله يخضع لشئته . وفى تلك اللحظة دخل المضيف التركى وضبطهما بالجرم المشهود .

اراد الاتراك أن يقتلوا التاجر ومن ثم الصبي لهذا الجرم ، ولكن بعد توسلات كثيرة سمح للتاجر أن يفدى نفسه . فدفع لمضيفه أربعمائة رأس من الغنم لقاء ما قبله بابه ثم غادر التاجر بلاد الاتراك على جناح السرعة .

وينتف الاتراك لحاهم باستثناء الشوارب .

وعادات الزواج عندهم هى كالتالى : يطلب احدهم يد انثى من عائلة اخرى مقابل (مهر) قدره كذا وغالبا ما يتضمن المهر هذا جمالا ودوابا واشياء اخرى . ولا يستطيع احد أن يتخذ لنفسه زوجة حتى يكون قد وفى بالتزامه الذى التزم به وتفاهم مع رجال تلك العائلة . فاذا ما وفى بهذا الالتزام فانه يأتى اليهم بدون رفاق دونما ضجيج أو لقط ويدخل المنزل الذى تقيم فيه العروس ويضاجعها (يأخذها) بحضور والدها وامها واخوتها فلا يمنعون من ذلك .

واذا مات رجل له زوجة واطفال فان اكبر ابنائه يتخذها زوجة له ان لم تكن امه .

واذا مرض احد الاتراك وكان له عبيد ، فانهم يعتنون به ولا يقترب اى من افراد عائلته منه طيلة فترة مرضه . اذ تقام له خيمة منفصلة عن بيوت الآخرين ولا يفادرها حتى يموت أو يشفى أما ان كان عبدا أو رجلا فقيرا فانهم يتركونه فى الصحراء ويتابعون طريقهم .

وحين يموت احد الوجهاء يحفرون له حفرة كبيرة على شكل بيت ويذهبون اليه ويلبسونه قرطقا كما يلبسونه حزامه وقوسه ويضعون كأس شرب خشبية فيها مشروب مسكر فى يده . ثم يأخذون كل ممتلكاته ويضعونها فى ذلك البيت . ثم يضعونه هو نفسه فيه ايضا ثم يبنون بيتا آخر فوقه وينشئون فوقه قبة مصنوعة من الطين .

ثم يقتلون الخيول . يقتلون مئة أو مئتين ، حسب ما كان يملك منها ، وفى موقع القبر . ثم يأكلون لحمها ما عدا الرأس والحوافر والجلد والدليل التى يعلقونها على أعمدة خشبية ويقولون « هذه مراكبه التى سيركبها فى طريقه الى الفردوس » .

أما ان كان بطلا وقتل الكثير من الأعداء ، فانهم ينحتون تماثيل خشبية بعدد أولئك الذين قتلهم ويضعونها على قبره ، ويقولون « هؤلاء هم حجاباه الذين يقومون على خدمته فى الجنة » .

وهم أحيانا يؤجلون قتل خيوله ليوم أو يومين ، الى ان يحضهم احد شيوخهم قائلا « لقد رأيت الميت فى نومي وقال لى : اصغ الى : انت ترانى ها هنا وقد تجاوزنى رفاقى حين دهرت قدماى عن أن تلحق بهم . اننى لا أستطيع اللحاق بهم فبقيت وحيدا » . فى هذه الحالة يذبح الناس خيوله ويعلقونها فوق قبره ، وبعد يوم أو يومين يأتى اليهم نفس ذلك الشيخ ويقول « لقد رأيت الميت فى حلمه وقال لى : « قل لاهلى اننى قد نجوت من مأساتى » .

وهكذا يحافظ الشيخ على تقاليد الاوغوز ، اذ بغير هذه الوسيلة قد تنشأ الرغبة عند الاحياء بابقاء خيول الميت (١) .

وبعد طول انتظار عاودنا الرحيل عبر المملكة التركية . وفى صبيحة احد الايام التقينا بتركى . كان قبيح الشكل قذر المظهر وفتح الخلق وضيع الطبع . قال « قفوا » . فتوقفت القافلة اجمعها اطاعة لامره . ثم قال « لا يتقدم اى منكم » . قلنا له « نحن اصدقاء الكوداركن » . فبدأ يضحك ساخرا وهو يقول « ومن هو الكوداركن ؟ اننى أخرى على لحيته » .

لم يدرك منا ماذا يفعل حيال هذه الكلمات ، ثم صاح التركي قائلا « بكند » أى « خبز » فى لغة خوارزم . قدمت له بضع أرغفة من الخبز . فآخذها وقال « يمكنكم استئناف رجليكم الان ! اننى أشفق عليكم » . وصلنا الى مقاطعة القائد العسكري الذى كان اسمه اترك ابن القاطجان ، الذى بنى لنا خياما تركية لنقيم بها . وكان له نفسه مؤسسة ضخمة فيها الكثير من المنازل والخدم .

وقد ساق لنا الغنم لنذبحها كما وضع الخيول تحت تصرفنا

(١) يعتقد فارزان احد المجيبين بأن فضلان بأن هذه الفقرة الأخيرة تكشف عن حس عالم انساني حديث لا يسجل عادات شعب من الشعوب فحسب وانما يسجل أيضا آية الفعل والية التصرف ليثبت هذه العادات . فالمعنى الاقتصادي لقتل خيول قائد قبل رجال هو المبادل القريب من شرعية الموت الحديثة ، أى أن هذا المعنى يبيل لتعطيل تراكم الثروة الموروثة فى عائلة ما . ورغم أنه مطلب دينى فان ما كان يمكن لهذا التصرف ان يكون ممارسة جساميرية اكثر مما هو فى الوقت الراهن ويبين ابن فضلان بهارة بالغة كيف كانت تفرض هذه الممارسة على المترددين .

لتركبها . ويتحدث الاتراك عنه كأفضل فرسانهم ، وفي الحقيقة رأته في يوم من الايام ، عندما كان يتسابق معنا على فرسه ، وحين طارت اوزة فوق رءوسنا ، رأته يشد قوسه ثم يوجه فرسه الى ما تحت الاوزة ويطلق عليها سهمه ويصيبها ويقتلها .

قدمت له بزة من « الميرف » كما قدمت له زوجا من النعال من الجلد الاحمر ، ومعظفا من البروكار . وخمس معاطف من الحرير فتقبلها بفيض من تعابير المديح الحارة ، ورفع طرف معطفه البروكار الذي ارتداه لكي يعرض ثيابه الشرف (التكريم) التي قدمتها له لتوى . عندها رأيت أن القرطق الذي كان يرتديه تحت معطف البروكار كان ممزقا قدرا ولكن علمت أن من عاداتهم أن لا يخلع الرداء الذي يرتديه ملامسا جسده حتى يفنى ذلك الرداء من تلقاء ذاته . وفي الحقيقة كان قد نتف كل لحيته وحتى شاربيه بدا لنا على صورة الخصى . ومع ذلك ، فكما لاحظت ، كان في الواقع افضل فرسانهم .

كنت اعتقد أن هذه الهدايا الجميلة لابد وأن تكسبنا صداقته ، الا ان الامر لم يكن كذلك ، فقد كان رجلا خداعا ماكرا .

ففي أحد الايام أرسل في طلب القادة المقربين اليه ، واعني بذلك ترهان وينال وكلنر . كان ترهان الأكثر تأثيرا بينهم ، كان كسيحا أعمى وذا يد مشوهة . استدعاهم ثم قال لهم « هؤلاء هم رسل ملك العرب لزعيم البلغار ، وارى أنه لا يجوز لى أن اتركهم يعرفون دون استشارتكم » .

عندها تحدث ترهان فقال « هذه قضية لم نر لها مثيلا من قبل . فلم يحدث أن اجتاز سفير السلطان بلادنا منذ أن كنا نحن وأجدادنا هنا . وانه (استشم) مكيدة يدبرها لنا السلطان . فقد أرسل هؤلاء الرجال في الواقع الى قبائل الهوزار ليحركها ضدنا . فالأفضل أن نشطر أجساد هؤلاء السفراء الى شطرين وناخذ كل ما معهم » .

وأضاف مستشار آخر : « كلا فالأفضل أن نأخذ كل ما معهم ونتركهم عمراة ثم يعودوا من حيث أتوا » . وقال آخر : « كلا فنحن لنأسرى عند ملك الهوزار فواجبنا أن نرسل هؤلاء لنفتديهم بهم » .

واستمروا في نقاش هذه الامور بينهم سبعة ايام لباليها ، بينما نحن في حالة شبيهة بحالة الاموات حتى وافقوا اخيرا على فتح الطريق والسماح لنا بالمرور . قدمنا لترهان حلة شرف او تكريم مؤلفا من (جبتين) من « الميرف » وبعض التوابل والدخن وبعض ارغفة الخبز .

ثم استأنفنا رحلتنا حتى وصلنا الى نهر باجند . وهناك استقلينا قواربنا الجلدية التي صنعت من جلد الجمال بعد ان نشرناها وحملنا عليها بضائعنا التي انزلناها عن الجمال التركية . وعندما كان يعتلىء القارب كانت تجلس فيه مجموعة من خمسة او ستة اشخاص ، يحملون بايديهم اقصان اشجار يستعملونها كمجاديف ثم ياخلدون بالتجديف بينما الماء تحمل القارب وتعزله في دوائر لولبية . واخيرا عبرنا . اما فيما يتعلق بالخيول والجمال فقد عبرت النهر سابعة لوحدها .

من الضروري جدا حين عبور نهر من الانهار ان تنقل اول الامر مجموعة من المحاربين مع اسلحتهم عبر النهر قبل كل القافلة حتى تقام نقطة حراسة وحماية لصد هجوم الباسكر بينما تقوم باقى القافلة بعبور النهر .

وهكذا عبرنا نهر باجندى ثم نهرا آخر يسمى غام بنفس الطريقة التي عبرنا بها النهر الاول . ثم عبرنا نهر اوديل وادرن ووارز واحتى ووبنا ، وكلها انهار كبيرة .

حتى وصلنا قبائل البسكنز . كان هؤلاء ينصبون خيامهم قرب بحيرة هاذئة وكانها البخر . وهم قوم سمر غامقو السمرة . كما انهم شعب قوى يحلق رجاله لحاهم . وهم فقراء بالمقارنة مع قبائل الاوغوز ، لاني رأيت بين الاوغوز من كان يمتلك عشرة آلاف مبن الخيول ومائة الف من الفقم . لكن قبائل البسكنز كانوا فقراء ولم نمكث بينهم غير يوم واحد .

ثم انطلقنا حتى وصلنا نهر جيحون . وهو اكبر واعرض واسرع نهر رايناها . وفي الحقيقة رأيت بنفسى كيف كانت القوارب الجلدية تنقلب فيه راسا على عقب ويفرق كل من كان فيها . كثير من افراد جماعتنا ماتوا كما أن كثيرا من الجمال والخيول نفقت غرقا . عبرنا هذا النهر بصعوبة فائقة ثم غدينا الترحال لعدة ايام آخر وعبرنا

نهر سيحون ، ثم نهر آزن ثم نهر باجاج ثم نهر سمر ثم نهر كنال
ثم نهر سوح ثم نهر كيقلو . وفيها النهاية وصلنا الى بلاد الباسكر .
(تتضمن مخطوطة ياقوت وصفا قصيرا لكوث ابن فضلان بين
الباسكر ، الا ان العديد من العلماء يشكون في صدق هذه المقاطع .
اما الوصف الحقيقي فهو غامض الى حد الغرابة قدر ماهو ممل ،
وهو يتضمن بشكل رئيسي قوائم بأسماء الاسياد والتبلاء الذين
التقى بهم . ويرى ابن فضلان نفسه ان الباسكر لا يستحقون ان
يهتم بهم ، وهى بحد ذاتها جملة لا يمكن ان تصدر عن هذا الرحالة
الذى لا يشبع فضوله) .

واخيرا تركنا ارض الباسكر وعبرنا نهر جرمسان ثم نهر اورن
ثم نهر اورم ثم نهر تيج ثم نهر امباش ثم نهر غاوش . وبين الانهار
التي ذكرنا كان هناك بين كل نهر ونهر رحلة يوم او يومين او ثلاثة
او اربعة ايام في كل حالة .

ثم وصلنا الى بلاد البلغار ، التي تبدأ عند شواطئ نهر الفولجا .

الفصل الثالث

اول اللقاءات مع اهل بلاد الشمال

لقد رايت بأم عيني كيف وصل رجال الشمال مع عتادهم ،
واقاموا خيامهم على شاطئ نهر الفولجا (١) . لم أر في حياتي قط
اناسا مردة كهؤلاء : فكلهم طوال كاشجار النخيل ، محمر ووجنت
موردوها . ولا يرتدون السلحاح ولا القفطان لكن الرجال منهم
يرتدون ثوبا من القماش الخشن مردود الى احد الجانبين بحيث تبقى
احدى اليدين حرة .

(١) في الواقع كانت الكلمة التي عبر بها ابن فضلان عن هؤلاء هي (الروس) ،
وهو اسم قبيلة معينة من اهل الشمال . خلال النص يسمى احيانا الاسكندنافيين
بالاشارة الى اسمائهم القبلية الخاصة ، ويسميه احيانا الفرنجة كتعبير عن الاصل
(او المرق) . ويحضر المؤرخون الآن استعمال تمييز الفرنجة بالاشارة الى المرتبة
الاسكندنافيين الذين استخدمتهم الامبراطورية البيزنطية . ومنعا لكل اختلاط ، تم في
هذه الترجمة استعمال تعبيرى « اهل الشمال » و « رجال الروس » في كل مكان منها .

ويحمل كل من اهل الشمال فاسا وخنجرا وسيفا ، ولا تراهم ابدا بغير هذه الاسلحة . وسيوفهم عريضة ذات خيوط مموجة وفرنجية الصنع . ومن ردوس اظافرهم حتى اعناقهم ترى الرجال منهم موشمين بصور الاشجار ، والاحياء والاشياء الاخرى .
اما النساء منهم فيحملن على صدورهن صندوقا صغيرا من الحديد والنحاس او الفضة او الذهب حسب غنى وثروات ازواجهن . كما يحملن خاتما مثبتا على هذه الصناديق وفوق الخاتم خنجرا ، والكل مثبت الى صدورهن . وحول اعناقهن يلبسن الاطواق الذهبية والفضية .
انهم اقدر خلق الله . فهم لا ينظفون انفسهم بعد الذهاب الى المراض ، ولا يفسلون انفسهم بعد الجنابة اكثر مما تفعل الحمر الشاردة .

وهم يأتون من بلادهم ويرسون سفنهم في الفولجا ، وهو نهر عظيم ، ثم ينون على ضفتيه بيوتا خشبية . وفي كل من هذه البيوت يعيش عشرة او عشرون او اقل او اكثر من ذلك . ولكل رجل مصطبة يجلس عليها برفقة البنات الجميلات اللواتي يعرضهن للبيع . واهيانا يقوم بالاستمتاع باحداهن بينما صديق له يتمتع النظر . واهيانا يقوم عدد منهم بالقيام بنفس المتعة في وقت واحد وكل على مرأى من جميع الاخرين .

وبين وقت وآخر يلجأ تاجر الى احد هذه البيوت ليشتري فتاة فيجد سيدها مشغولا بعناقها ولا يكف عن ذلك حتى يقضى وطره . وهم لا يرون في هذا امرا مثيرا للاستغراب .

وفي كل صباح تأتي جارية وتحضر معها طشتا من الماء وتضعه امام سيدها . ويبدأ السيد بفسل وجهه ويديه ثم شعره الذي يمشطه فوق انواع . وبعدها ينظف أنفه ثم ييصق في الطست ، ينقل كل ذلك الى الماء امامه . وعندما ينتهي تحمل الفتاة الطست الى الرجل الذي يليه والذي يقوم بنفس العمل . وهكذا تستمر بنقل الطست من رجل الى آخر حتى يكون كل من في البيت قد مخط وبصق في الطست وغسل وجهه وشعره .

هذه هي طبيعة الامور بين اهل الشمال كما رايتها بام عيني . ومع ذلك فحين حللنا بينهم كان هناك بعض الشعور بعدم الرضى بين هؤلاء المردة ، والسبب يعود لما يلي :

كان رئيسهم الكبير وهو رجل اسمه وغلف قد وقع مريضا ، فأقيمت له خيمة مرض على مسافة من المعسكر وترك معه الخبز والماء . لم يقترب منه أو يكلمه أحد ، كما لم يزره أحد طيلة الفترة ، ولم تعده عبيده ، لان أهل الشمال يعتقدون أن الإنسان يجب أن يشفى من أى مرض يصيبه بقوته وقدرته . وكان الكثيرون بينهم يعتقدون أن وغلف لن يعود للانضمام اليهم في معسكرهم وأنه سوف يموت .

ولهذا تم اختيار واحد منهم ، وهو نبيل شاب يدعى بيولف ، اختير ليكون زعيمهم الجديد ، ولكنه لم يقبل طالما أن الزعيم المريض مازال حيا . كان هذا هو سبب الاضطراب حين حلولنا بينهم . إلا أنه مع ذلك لم تكن هناك أى من مظاهر الاسى أو البكاء بين الناس المعسكرين على نهر الفولجا .

ويعلق أهل الشمال أهمية كبيرة على واجبات المضيف . فهم يحييون كل زائر بحرارة وكرم ويقدمون له الماء واللباس ، كما يتبارى الكبار والنبلاء بينهم لكسب شرف اعظم التكريم . وقد احضر اعضاء قافلتنا امام بيولف واقامت على شرفنا وليمة كبيرة ترأسها بيولف نفسه . وكان رجلا طويلا قويا ذا جلد وشعر ولحية بيضاء ناصعة البياض . وكانت له هيئة الزعيم .

واعترافا بكرم الوليمة اكل رجالنا بشكل مثير للنظر ، ومع ذلك فقد كان الطعام كريها كما أن تقاليد الوليمة كانت تتضمن الكثير من التراشق بالطعام والشراب ، والكثير من الضحك والمرح . وكان مألوقا في وسط هذه الوليمة الوقحة أن نبيلنا من نبلائهم يلهو بجارية على مرأى من جميع اتباعه .

حين رأيت كل ذلك ادرت وجهى وقلت « استغفر الله رب العالمين » فضحك رجال الشمال طويلا لجرجى . وقد ترجم لى أحدهم بما معناه أنهم يعتقدون بأن الله ينظر بكثير من العطف الى مثل هذه المذلات المكشوفة . وقد قال لى « أنتم العرب مثل عجائز النساء ، انكم ترتجفون لمنظر الحياة » .

فقلت مجيبا « إنما أنا ضيف بينكم وأرجو من الله أن يقودنى الى طريق الصواب » .

وكان هذا سببا لمضحك تلاضحكم الاول ولكننى لم أجد سببا جعلهم يكتشفون نكتة فيما أقول .

وتحمل عادات اهل الشمال عميق الاحترام لحياة الحرب . وفى الحقيقة- فان هؤلاء الرجال الضخام يجاربون باستمرار ، ولا يعرفون السلام ابدا لا بين بعضهم ولا بينهم وبين كل القبائل من كل الانواع . وهم يتغنون بأغاني حروبهم وشجاعتهم ، ويعتقدون بأن موت المحارب وهو يقاتل هو اعظم الشرف .

وثناء وليمة بيولف غنى جماعة منهم اغنية عن الشجاعة والمعارك فلاقت اعجابا كبيرا رغم أن القليلين فقط اصفوا اليها . إذ أن خمر اهل الشمال القوية سرعان ماتحليهم الى حيوانات وحمر شاردة . ففى وسط الاغنية كان هناك هتافات عالية ومبارزات معيئة بسبب خناقة بين محاربين . لم يتوقف المغنى عن غناؤه رغم هذه الاحداث ، وفى الحقيقة رايت الدم المتطاير يرشم وجهه لكنه مسحه دون أن يتوقف عن الغناء .

لقد ترك فى ذلك اعظم الاثر .

وحدث الان ان امر بيولف الذى كان مخمورا كالاخرين ، بأن اغنى لهم اغنية . وقد أصر على ذلك اصرارا كبيرا . ورغبة فى الاغضبهم رتلت بعضا من القرآن الكريم بينما المترجم يكرر كلماتى بلسانهم . لكنهم لم يجدوا فيما رتلت شيئا أفضل مما فى أغاني مغنيهم الجوال ، وقد استغفرت بعد ذلك ربي على الطريقة التى استقبلت بها كلماته المقدسة واستغفرته ايضا على الترجمة ، التى أحسست بأنها كانت عقيمة ، لان المترجم نفسه كان فى الحقيقة سكرانا .

بقينا بين اهل الشمال يومين ، وفى صبيحة اليوم الثالث بدانا نهىء انفسنا للرحيل ولكن اخبرنا المترجم بأن الزعيم وغلف قد مات فاثرت أن ابقى لاشهد ماسيححدث بعده .

فى بادىء الامر مددوه فى قبره الذى اقيم فوقه سقف ، وعلى مدى عشرة أيام حتى اتوا تفصيل وخياطة ثيابه (١) . ثم اتوا ايضا

كان هذا وحده كافيا ليجهل مشاهد اعرينا قادما من ملوس دافى ، فالتقاليد الاسلامية تامر بالدفن السريع ، غالبا ما يكون فى نفس يوم الوفاة بعد مراسيم قصيرة من الغسل والصلاة عليه .

بامتعة وممتلكاته الشخصية وقسموها الى ثلاثة اقسام . كان القسم الاول لعائلته ، والثاني ينفق على الثياب التى صنعوها له ، اما بقية القسم الثالث فيشترون به مشروبات قومية استعدادا لليوم الذى تسلم فيه احدى الفتيات نفسها للموت وتحرق مع سيدها .

ويسلمون انفسهم كلية لشرب الخمرة بشكل جنونى يشربونها ليلا ونهارا كما ذكرت سابقا . وليس من النادر ان يموت احدهم وكاسه في يده .

توجهت عائلة وغلف بالسؤال الى جميع فتياته ووصيفاته : من منكن ستموت معه ؟ وعندها اجابت احداهن : انا . منذ اللحظة التى نطقت فيها بهذه الكلمة لم تعد حرة ابدا . حتى لو رغبت بالتراجع فانه لا يسمح لها بذلك .

تسلم الفتاة التى رضيت بذلك الى فتاتين اخريين تقومان بمراقبتها ومراقبتها حيثما ذهبت كما تفسلان احيانا قدميها . ويتحكم الجميع باعداد الميت - يفصلون الثياب له ويهيئون كل ما هو ضرورى . وخلال كل تلك الفترة تسلم الفتاة نفسها كلية للشرب والغناء وتبقى مريحة فرحة .

الفصل الرابع

فى هذه الاثناء اكتشف بيولف ، وهو النبيل الذى سبلى فى الزعامة ، اكتشف منافسا كان يدعى ثور كل . لم اعرفه من قبل ، لكنه كان قبيحا قدرا وكان اسمر غامقا بالمقارنة بهذا العرق المتورد الاشقر . وقد تأمر ليصبح هو الزعيم . علمت كل هذا من المترجم لانه لم تكن هناك اى اعراض ظاهرة فى استعدادات الدفن يظهر بان اى شيء كان يجرى خلافا للعادة .

لم يشرف بيولف بنفسه على استعدادات الدفن ، لانه لم يكن من عائلة وغلف ، والعرف يقضى بان تهيب عائلة الميت امور جنازته . وهكذا انضم بيولف الى جموع المحتفلين والمتهجين كما لم يمارس اى تصرف ملكى ، اللهم الا اثناء وليمة المساء ، حين جلس على المجلس العالى الذى كان مخصصا للملك .

كان يجلس على النحو التالي : عندما يكون أحد رجال الشمال ملكا حقا ، فانه يجلس على رأس الطاولة وعلى كرسي حجري كبير له ذراعان حجريان . هكذا كان كرسي وغلف ، لكن بيولف لم يجلس في هذا الكرسي كما قد يجلس أى انسان غادى ، بل جلس على أحد اللرايعين ، وهو وضع أذى به الى السقوط حينما شرب كثيرا أو حين كان يفرط في الضحك . وكانت العادة انه لا يستطيع الجلوس على الكرسي حتى يتم دفن وغلف .

خلال كل هذا الوقت كان ثوركل يتأمر ويعقد الاجتماعات مع النبلاء الآخرين . وقد علمت انه كان يشتهى بى كمشعوذ أو ساحر مما أزعجنى كثيرا . وقد اخبرنى المترجم الذى لم يكن يصدق أيا من هذه القصص بأن ثوركل قال بأننى كنت السبب فى وفاة وغلف كما انى كنت السبب فى أن يصبح بيولف الزعيم الجديد ، ولكن والحق أقول ، لم يكن لى دور فى أى من هذه الامور .

بعد بضعة ايام ، طلبت اذنا بالرحيل برفقة ابن باسطو وتاقن وبارس ، ولكن رجال الشمال لم يسمحوا لنا بالمغادرة قائلين انه يجب علينا أن نبقى حتى يوم الجنازة ، ومهددين بطعننا بالخناجر التى كانوا يحملونها دائما وهكذا بقينا .

وحين حل اليوم الذى ستلتهم فيه السنة الذهب وغلف والفتاة قربت سفينته من شاطئ النهر ، ثم اقيمت حولها اربعة اكوام من الحطب والاختشاب الاخرى كما وضعت حولها تماثيل خشبية كبيرة على شكل مخلوقات بشرية .

وفى هذه الاثناء بدأ الناس بالمشى جيئة وذهابا مرددين كلمات لم أفهمها . فلفة أهل الشمال ثقيلة على السمع يصعب فهمها . فى حين مدد الزعيم الميت فى قبره على مسافة من السفينة والذى لم يكونوا قد نقلوه منه بعد . ثم اتوا بما يشبه السرير ووضعوه فى السفينة ثم غطوه بالقماش اليونانى المذهب ووسائد من نفس القماش ثم جاءت حيزبون شمطاء كانوا يدعونها « ملاك الموت » فنشرت الحاجيات الشخصية على السرير . كانت هى التى اشرفت على خياطة الثياب وكل التجهيزات الاخرى ، كما كانت هى ايضا التى ستدبح الفتاة . لقد رأيت الحيزبون بعينى كانت سمراء ذاكنة غليظة البنية ولها ملامح تدخل الهلع الى القلب .

حين اتوا الى القبر ازاحوا السقف وأخرجوا الميت ، عندها رأيت بأنه قد أصبح أسود حالكا بفعل برودة تلك البلاد . وبقربه فى القبر وضعوا الشروبى القومية والفواكه كما وضعوا عودا ، وهذه أشياء أخرجوها كلها الآن . أما وغلف الميت فإنه لم يتغير فيه شيء إلا لونه .

والآن رأيت بيولف وثوركل يقفان جنباً الى جنب يتبادلان تعابير الصداقة القوية اثناء مراسيم الدفن ، ومع ذلك كان واضحاً انه لم يكن ثمة أى صدق فى مظهريهما .

جلل الملك الميت وغلف بالثياب ، بدءاً من الثياب الداخلية الى الجرابات والحذاء والقفطان المصنوع من القماش المذهب كما وضع على راسه عمامة مصنوعة من القماش المذهب . ومزركشة بجلد السمور الاسود . ثم حمل الى خيمة فى السفينة ، وهناك أجلسوه على سرير منجد وسندوه بوسائد ثم أحضروا شرباً قوياً وفواكه وربحانا وضعوها كلها بجانبه .

ثم أحضروا كلباً قطعوه نصفين والقوا به فى السفينة . ووضعوا كل أسلحة وغلف بجانبه ثم جاءوا بحصانين جعلوهما يعدوان حتى صارا ينضحان عرقاً . بعدها قتل بيولف أحدهما بسيفه وقتل ثوركل الآخر ثم قطعوهما قطعاً صغيرة بسيفهما ورموا القطع فى السفينة . كان بيولف أقل سرعة فى قتل الحصان وقد بدأ وكان هذا كان ذا مغزى بالنسبة للمراقبين ولكننى لم أفهم مغزاه .

ثم أتى بثورين قطعاً قطعاً والقوا بهما فى السفينة أيضاً . ودجاجة فقتلوهما والقوا بهما فى السفينة أيضاً .

فى هذه الاثناء كانت الفتاة التى نذرت نفسها للموت تتمشى جيئةً وذهاباً ، وتلج الخيمة بعد الاخرى من الخيام التى بنوها هناك . وكان كل من فى هذه الخيام يضاجعها وهو يقول « خبرى سيدك اننى ما فعلت هذا الا جاً به » .

وفى وقت متأخر من مساء ذلك اليوم قادوا الفتاة الى شيء كانوا قد أقاموه على شكل اطار الباب . وضعوا قدميهما على سواعد الرجال الممدودة فرغمها هؤلاء فوق الاطار . هناك نطقت بكلمات بلغتها وانزلوها بعدها . ثم رفعوها مرة ثانية ففعلت ما فعلته من

قبل . ومرة أخرى أنزلوها ثم رفعوها مرة ثالثة . ثم أعطوها دجاجة قطعت رقبتها ورمتها بعيدا .

استفسرت من المترجم عما كانت تفعل فاجاب : « فى المرة الاولى قالت : الله ! انى ارى هنا أبى وامى ، وفى المرة الثانية : الله ! الان ارى كل اقاربى الموتى جالسين ، وفى المرة الثالثة : الله ! هو ذا سيدي يجلس فى الفردوس . ما أجمل الفردوس ما أروع خضرتها . ومعه ارى رجاله وغلماؤه . انه يدعونى فخذونى اليه » .

ثم قادوها الى السفينة . وهنا خلعت سواربها واعطتها الى الحيزبون الشمطاء التى كانت تدعى ملاك الموت والتى ستقتلها فيما بعد . ثم خلعت خلعها وقدمتها الى الوصيفتين اللتين كانتا تقومان على خدمتها ، واللّتين كانتا ابنتى ملاك الموت . ثم رفعوها الى السفينة دون أن يدخلوها الى الخيمة .

والان جاء رجال بتروسهم وبلطاتهم وقدموا لها كاسا من الشراب القوى . أخذت الكاس وغت فوقه ثم افرغته فى جوفها واخبرنى المترجم انها قالت « بهذا ارحل عن هؤلاء الاعزاء لى » ثم قدم لها كاس آخر شربته ايضا وبدات بفناء طويل . وامرتها الحيزبون بأن تشرب الكاس حتى الجفاف ودون تباطؤ وان تدخل الخيمة حين كان سيدها .

فى هذا الوقت بدا لى وكان الفتاة قد داخت وبدت وكأنها تريد دخول الخيمة حين أمسكت الشمطاء بها فجأة من راسها وجرتها الى داخل الخيمة . فى هذه اللحظة بدا الرجال بالضرب على تروسهم بعضهم ليغيبوا ضجيج صيحاتها التى قد ترعب الفتيات الاخريات فتدعهن عن طلب الموت مع اسبيادهن فى المستقبل . تبعها ستة رجال الى داخل الخيمة كان كل منهم يقتصبها بالدور . ثم القوا بها بجانب سيدها بينما أمسك رجلان بقدميها وآخرا ببيديها . اما الحيزبون الشمطاء المعروفة بملاك الموت فقد عقدت الان حبلا حول عنقها واعطت طرفيه الى اثنين من الرجال ليشدوا العقدة ثم ويخنجر عريض الشفرة طعنت الحيزبون الفتاة بين أضلعها وسحبت الخنجر بينما استمر الرجلان بخنقها فى الحبل حتى ماتت .

اقترب اقارب الميت « وغلف » الان وأخذ أحدهم قطعة من الخشب الملتهب ومشى عاريا الى الخلف باتجاه السفينة واشعلها بها فيها دون أن ينظر اليها . وسرعان ما كانت الجنازة العائمة شعلة من اللهب بينما أصبحت السفينة والخيمة والرجل والفتاة وكل شيء آخر عاصفة من النيران الملتهبة .

كان احد الرجال يقف بجانبى ينطق ببعض التعليقات موجهها كلامه للمترجم . سألت المترجم عما قيل فجاءنى الجواب هكذا : « انتم العرب لا بد وأن تكونوا قوما اغبياء . فانتم تأخذون احب رجالكم اليكم واكثرهم احتراما وتلقون بهم تحت الأرض لتلتهمهم الزواحف والديدان ، بينما نحن نحرقهم فى رمشة عين بحيث يدخلون الجنة مباشرة ودون تأخير » .

وفى الحقيقة وقبل أن تمضى ساعة من الزمن كانت السفينة والخشب والفتاة قد تحولت جميعا مع الرجل الميت الى رماد .

الفصل الخامس

ما بعد جنازة اهل الشمال

لا يجد هؤلاء الاسكندنافيون سببا للحزن فى موت أى انسان فالفقير والعبد ليسا شيئا ذا بال بالنسبة اليهم ، وحتى زعيمهم لا يثير أى حزن او دموع ، ففى مساء نفس يوم جنازة الزعيم « وغلف » أقيمت وليمة كبرى فى قاعات معسكر الشماليين .

الا اننى لاحظت أنه لم يكن كل شيء على ما يرام بين هؤلاء البرابرة . تحدثت عن هذا مع مترجمى فأجاب على النحو التالى : « هى خطة ثوركل أن يراك تموت ، ومن ثم يقضى على بيولف . وقد حصل على دعم بعض النبلاء له ، ولكن هناك جدلا وخصاما فى كل بيت وفى كل حي » .

فقلت بكثير من القلق « ليس لى أى شان فى هذه القضية فكيف اتصرف ؟ » .

اجاب المترجم بان على ان اهرب ان استطعت ، ولكن ان قبض على فسيكون ذلك برهانا او دليلا على ذنبى وسوف اعاقب كلص .
ويعاقب اللص على النحر التالى : يقوده الشماليون الى شجرة ضخمة . ويشدون جبلا قويا حوله ثم يعلقونه ويتركونه هناك معلقا حتى يتعفن ويسقط قطعاً متناثرة بفعل الريح والمطر عندها تذكرت اننى لم اُنج من الموت الا بصعوبة على يدى ابن القاطبان ففضلت ان اتصرف كما تصرفت من قبل ، اى بقيت بين الشماليين حتى يسمح لى بمغادرتهم وباتمام رحلتى .

استفرت من المترجم عما اذا كان من واجبى ان احمل الهدايا الى بيولف والى ثوركل ايضا لى يجلدا رحبلى . فاجاب باننى لا استطيع ان اقدم الهدايا الى اى منهما ، وانه لم يتقرر بعد من سيكون الزعيم الجديد . ثم اضاف بان هذا سيتضح خلال يوم وليلة على ابعد تقدير .

صحيح ليس عند هؤلاء الشماليين طريقة ثابتة لاختيار زعيم جديد حين يموت القائد القديم . فقرة السلاح لها اعظم الحساب . ولكن ولاءات المحاربين ايضا والنبلاء والوجهاء لها قيمتها . وفى بعض الاحيان لا يكون هناك خليفة واضح للحاكم ، وكانت هذه الحالة احدى تلك الحالات . وقد قال مترجمى انه على ان اصبر وان اصرى ايضا . وهذا ما فعلت .

ثم هبت عاصفة هوجاء على ضفتى نهر الفولجا ، عاصفة استمرت يومين من المطر الجارف والرياح العاتية ، وبعد هذه العاصفة حط ضباب بارد على الارض . كان سمىكا ابيض ولم يكن باستطاعة اى انسان ان يرى على بعد اكثر من عشر خطوات .

الا ان نفس هؤلاء المحاربين الشماليين المردة ، والذين بفضل ضخامتهم وقوة سواعدهم وتصرفاتهم القاسية كانوا لا يهابون شيئا فى هذا العالم كله فانهم يخافون الضباب او الصقيع الاى مع العواصف .

ويمانى رجال ذلك المرق الكثير لاختفاء خوفهم ، حتى بين بعضهم البعض . فالمحاربون يضحكون ويمرحون كثيرا ويحاولون التظاهر غير البرر بعاطفة الهدوء . وبهذا يبرهنون على العكس . وفى الواقع

فان محاولاتهم لاختفاء خوفهم محاولات طفولية ، اذ ببساطة يدعون انهم لا يرون الحقيقة ، ومع ذلك فكل واحد منهم وفي جميع أنحاء المعسكر يقوم بالصلاة ويقدم الاضحيات من الدجاج والديكة واذا سأل أحد عن سبب الاضحيات ، يجيبه « انى أقدم الاضحيات من أجل سلامة عائلتي البعيدة » أو يقول « اى أقدم الاضحيات من أجل نجاح تجارتي » أو يقول « أقدم الاضحيات اكراما لهذا الفرد أو ذاك من أموات عائلتي » أو قد يقول أسبابا كثيرة أخرى ثم يضيف : « وأيضا من أجل زوال الضباب » .

ولقد حسبه من الضرائب بالنسبة لهؤلاء الناس الاقوياء المحاربين ان يخافوا الى هذا الحد من أى شئ حتى يتظاهروا بعدم الخوف . ومن بين كل أسباب الخوف المعقولة بدا الصقيع والضباب لفكرى غير مفهوم على الإطلاق .

قلت لمرجى ربما يخاف الرجل من الريح أو من عاصفة رملية هوجاء أو من فيضان الماء أو من اهتزاز الأرض أو من البرق والرعد فى السماء ، فكل هذه قادرة على أن تؤذى انسانا أو تقتله أو تهدم منزله ، ولكن الضباب أو الصقيع ليس فيه تهديد أو ابداء . وفى الحقيقة كان هذا أقل شكل من أشكال عناصر الطبيعة المتغيرة .

أجابنى المترجم باننى كنت احتاج الى عقيدة البحار . وقال ان كثيرا من البحارة العرب يتفقون مع أهل الشمال فيما يتعلق بالقلق بسبب الضباب الملتف ، وكذلك بسبب الضباب أو الصقيع لجوالى البحار الكثير من القلق لان مثل هذه الحال تزيد من مخاطر السفر فى المياه .

قلت هذا معقول ولكن حين يسقط الضباب على الأرض وليس على الماء فاننى لم أفهم معنى أى خوف . جوابا على ذلك قال مترجمى الضباب دائما مخيف فى أى وقت اتى . واضاف بأنه ليس هناك من فرق سواء على اليابسة أو فى الماء ، من وجهة نظر أهل الشمال . ثم قال لى ، ان الشماليين لا يخافون الضباب كثيرا حقا . وقال المترجم أيضا انه هو كرجل لم يكن يخاف الضباب . وقال انها قضية ثانوية ليست ذى بال . واضاف « انها ليست سوى

الم بسيط داخل مفصل من مفاصل الاطراف قد يأتى مع الخشب لكنه ليس أكثر أهمية من ذلك » .

بهذا أحسست بأن مترجمى كالأخرين ينكر كل شكل من أشكال القلق بسبب الضباب ويتظاهر بالامبالاة .

وحدث فى هذه الاثناء ان الضباب لم ينقشع مع انه تبخر وأصبح رقيقا فى أواخر النهار ، كما بدت الشمس كدائرة فى السماء لكنها هى أيضا كانت من الضعف بدرجة استطعت معها ان أنظر فى قلب ضوئها مباشرة .

فى نفس هذا اليوم وصل قارب شمالى فيه نبيل من قومهم . كان رجلا شابا ذو لحية خفيفة ولم يكن يرافقه فى رحلته الا عدد قليل من الخدم والعبيد ولم يكن بينهم نساء . ولهذا اعتقدت انه لم يكن تاجرا اذ ان هذه المناطق يأتى الشماليون خاصة لبيع النساء .

أرسل هذا الزائر قاربه بنفسه وبقي واقفا عنده حتى هبط الليل . ولم يقترب منه أو يحبه أى انسان مع انه كان قريبا وعلى مرأى بصر الجميع . وقد قال مترجمى : « انه أحد اقرباء بيولف وسوف يستقبل ضيفا فى وليمة المساء » .

وسالت « ولماذا يبقى عند سفينته ؟ » .

« بسبب الضباب » أجاب المترجم وأضاف « يقضى العرف ان يبقى واقفا على مرمى البصر لعدة ساعات حتى يراه الجميع ويوقنوا انه ليس عدوا قادم من الضباب » . قال لى هذا بشئ من التردد .

فى وليمة المساء رأيت الشاب يدخل القاعة . وهنا حى بحارة وبكثير من الدهشة خاصة من قبل بيولف الذى بدأ يتصرف كما لو ان الشاب قد وصل لتوه ولم يكن قد مضى عليه ساعات واقفا بجانب السفينة . وبعد تحيات كثيرة ألقى الشاب خطابا عاطفيا أصفى اليه بيولف باهتمام غير هادى . لم يشرب ولم يداهب الجوارى ، ولكنه بدلا من ذلك أصفى الى الشاب بصمت بينما كان الشاب يتكلم بصوت عال جهير . وحين انتهى من قصته بدا وكأن الدموع تنساب من عينيه فقدمت له كأس من الشراب .

سألت مترجمى عما قاله الشاب . وكان هذا الجواب : « انه وولف غار ، ابن روث غار ، وهو أحد ملوك الشمال العظام . وهو

قريب لبيولف ويطلب مساعدته ودعمه فى مهمة بطولية . يقول
 وولف ان البلد البعيد يعانى الخوف ومن رعب لا يسمى وهو رعب
 يعجز كل الناس وكل الاقوام عن مقاومته . وهو يطلب من بيولف
 ان يسرع بالعودة الى البلد البعيد لينقذ شعبه ومملكة ابيه
 روث غار .

سالت المترجم عن طبيعة هذا الرعب ، فقال لى « لا اسم له
 استطيع ان اخبرك به » . وبدا المترجم شديد الاضطراب بسبب
 كلمات وولف غار ، كما اضطرب لها كثيرا من اهل الشمال الاخرين .
 ولقد رايت على ملامح بيولف تعابير داكنة حزينة ، فاستفسرت من
 المترجم عن تفاصيل هذا المصاب . قال المترجم : « لا يمكن لفظ
 الاسم فالتنطق به محرم كى لا يستدعى الشياطين » . وبينما كان
 يتكلم كنت ارى انه كان يخاف حتى من التفكير فى هذه الامور ،
 وكان هلعه واضحا ولهذا توقفت عن السؤال .

كان بيولف يجلس صامتا فوق الكرسي الحجرى . والحقيقة ان
 جميع النبلاء والرجال والعبيد والخدم الحاضرين كانوا صامتين
 ايضا . لم ينطق اى رجل فى القاعة بحرف واحد . اما الرسول
 وولف غار فقد وقف امام الجمع حانى الرأس . لم ار فى حياى
 قط قوم الشمال المرحين صعبى المراس يمثل هذا الاسى والحزن .

ثم دخلت الى القاعة الحيزيون الشمطاء الملقبة بملوك الموت ،
 وجلست تقرب بيولف ، ومن جقية مخبأة اخرجت بضع عظمت
 لم ادر ان كانت عظاما بشرية ام حيوانية والقت بهذه العظمت على
 الارض وهى تتمم بكلمات مبهمه وتممر يدها فوق العظمت .

ثم جمعت العظمت والقيت ثانية واعيدت الكرة بكثير من الالحان
 والدمدمة . ومرة اخرى القيت العظمتات ثم خاطبت بيولف .
 استفسرت من المترجم عن معنى ما قالته لكنه لم يعرنى اى انتباه .

ثم ان بيولف وقف ورفع كأس شرابه القوى وخاطب النبلاء
 والمقاتلين المجتمعين بخطاب طويل . وشيئا فشيئا وقف عدد من
 المحاربين فى اماكنهم ليواجهوه . لم يقف الجميع . عددت الواقفين
 فكانوا احدى عشر فعبر بيولف عن رضاه بهذا .

ورايت الان ايضا ان ثوركل كان بادى السزور بسبب ما جرى

واخذ وضعا اكثر ملوكية بينما لم يعرف بيولف أى اهتمام كما لم يد أى كراهية نحوه ولا حتى أى اكتراث ، مع انهما كانا قبل قليل عدوين .

ثم ان ملاك الموت ، نفس تلك الحيزبون ، اشارت اليه ونطقت ببعض الكلمات ثم غادرت القاعة . واخيرا تكلم مترجمى فقال : « ان بيولف مدعو من قبل الالهة ان يغادر هذا المكان وبسرعة تاركا خلفه كل قضاياهم ومشاغله ليتصرف كبطل ويدفع مصاب الشمال . هذا مناسب وسوف يأخذ معه احد عشر مقاتلا ، كما سيأخذك انت ايضا معه » . قلت انى فى مهمة الى البلغار ، ولا بد لى من اتباع أوامر خليفتى دون تأخير .

« لقد تكلمت ملاك الموت ! » هكذا اجاب مترجمى ثم اضاف « يجب ان تكون مجموعة بيولف ثلاثة عشر ، ويجب ان يكون أحد هؤلاء من غير اهل الشمال ، وهكذا فلا بد ان تكون انت الثالث عشر » . فاحتججت على ذلك باننى لست محاربا . وفى الحقيقة قدمت كل الاعتذارات والتوسلات التى خذرت على بالى والتى يكون لها أى تأثير على هذه الجماعة الوقحة من المخلوقات . وطلبت من المترجم ان ينقل كلمتى الى بيولف ، الا انه اشاح بوجهه وترك القاعة وهو يقول لى هذه الكلمات الاخيرة « أعد نفسك كائن ما يكون الاعداد . ستفادر معهم مع اول ضوء الصباح » .

الفصل السادس

الرحلة الى البلد البعيد

بهذه الطريقة منعت من اتمام رحلتى الى مملكة بلطوار ملك الصقالبة ولم اتمكن من حمل امانة المقتدر امير المؤمنين وخليفة مدينة السلام . اعطيت كل ما استطعت من معلومات وتعليمات الى دادر الحرامى والى السفير ايضا عبد الله بن بسطو الحزارى ، والى الخادمين : تاقن وباريس ، ثم ودعتهم ولم اعد ادري بما جرى لهم بعد ذلك .

أما بالنسبة لى فقد اعتبرت نفسى فى حال ليست أفضل من حال رجل ميت . وسرعان ما أصبحت على ظهر إحدى السفن الشمالية المحزنة شمالا فى الفالجا مع اثنى عشر من جماعتهم أما أسماء الآخرين فكانت كالتالى : بيولف الزعيم وضابطه المرافق اكثو ثم نبلاؤه ورجالاته هفلغ ، اسكلز ، وث ، رونث ، هلفا ، ثم مقاتلوه ومجاربوه الشجعان : هلفدان ، ادغنه ، رثل ، هلتف ، وهرغر (١) . وكنت أنا بينهم ، غير قادر على التكلم بلغتهم أو فهم طرقهم ، لأن مترجمى كان قد ترك أيضا فلم يكن لى سوى الصدفة ورحمة الله التى جعلت من أحد مقاتليهم ، وهو هرغر رجلا ذا معرفة ومحيطا ببعض اللغة اللاتينية .

وهكذا كنت أستطيع أن أفهم من هرغر معنى الحوادث التى تلت . كان هرغر محاربا شابا مرحا شديد المرح ، وكان يبدو وكأنه يجد نكتة فى كل شيء ، وخاصة فى أساى وحزنى عند الرحيل .

هؤلاء الشماليون هم حسب تقديرهم أفضل بحارة الدنيا ، ولقد رأيت مدى حبهم للمحيطات والمياه يشع من ملامحهم . أما عن السفينة فهناك وصفها : كان طولها قدر خمسة وعشرين خطوة وعرضها ثمانية وأكثر من ذلك قليلا . كانت ممتازة البناء ومصنوعة من خشب البلوط . ربما كان لونها أسود من كل ناحية وفى كل جهة . وكانت مجهزة بشراع مربع الشكل من القماش الزرکش يجبال مصنوعة من جلد الفخمة (٢) . وكان موجه الاشرعة يقف على مصطبة صغيرة بجانب مؤخرة السفينة ويشد دفة متصلة بجانب

(١) يلاحظ هنا أن وولف غار قد بقى مع أهل الشمال ولم يعم مع بيولف . يعلق جنسن على ذلك قائلا بأن أهل الشمال كانوا عادة يأخذون الرسول رهينة ، ولهذا « كان الرسل المناسيون أبناء ملوك أو نبلاء عال المقام أو أشخاصا ذوى قيمة فى مجتمعهم ، مما كان يجعلهم راضين مناسيين » . أما أولاف جركنسون فيدعى بأن وولف غار ما بقى هناك إلا خوفا من العودة معهم .

(٢) كان بعض المؤرخين القدماء يعتقدون بأن هذا كان يعنى أن الشراع كان مزودا بحبل يدخل فى الشراع ويخرج منه على شكل الخياطة ، وهناك رسوم ولوحات من القرن الثانى عشر تظهر أشرعة الفايكنج وعليها زركشة من العبال . ليس هناك من دليل على أن الحالة كانت كذلك . ما عناه ابن فضلان أن هذه الاشرعة كانت مطرزة بالمفهوم النوى ، أى انها موجهة فى أفضل زاوية لالتقاط الريح وذلك باستعمال حبال جلد الفخمة كمرابط .

السفينة على الطريقة الرومانية . كانت هذه السفينة مزودة بالمجاديف لكنها لم تستعمل أبدا ، ولكن كنا نتقدم بواسطة الأشعة لوحدها . وعند مقدمة السفينة كان هناك نحت خشبي يمثل رأس وحش بحري رهيب ، كتلك التي نراها عادة على بعض سفن أهل الشمال . وكان هناك أيضا ذيل في المؤخرة . وفي الماء كانت هذه السفينة قوية ثابتة والرحلة فيها ممتعة ، كما أن ثقة المحاربين بأنفسهم قد رفعت من معنوياتي إلى حد كبير .

وعند موجه السفينة كان هناك فراش من الجلود مرتبة فوق شبكة من الحبال وفوقه غطاء من الجلد أيضا . كان ذلك هو فراش بيولف ، أما المحاربون الآخرون فقد كانوا ينامون هنا وهناك على ظهر السفينة بعد أن كانوا يتلفعون بالجلود ، وقد فعلت أنا مثلهم .

أبحرنا لمدة ثلاثة أيام في النهر وقد اجتزنا الكثير من البلدان والمستوطنات الصغيرة على ضفتيه . لكننا لم نتوقف في أي منها . ثم وصلنا إلى معسكر كبير في منعطف من نهر الفولجا . وهنا كان مئات من الناس ، كما كانت هناك مدينة كبيرة الحجم ، وفي مركزها كان هناك كنيسة (كرمين) وقلعة لها جدار من الطين وذات أبعاد كبيرة . سألت هرغر عن هذا المكان فقال لي : « هذه هي مدينة البلغار في مملكة الصقالبة وذلك هو قصر بلطوار ملك الصقالبة » . أجبت « هذا هو الملك ذاته الذي أرسلت لأقابه كممثل لخليفتي » وبكثير من التوسلات طلبت أن أنزل إلى الشاطئ لأقوم بالمهمة التي كلفني بها خليفتي ، كما طلبت ذلك أيضا وبكثير من مظاهر الغضب حتى درجة الوقاحة .

لكن رجال الشمال لم يعيروني أي انتباه ، ولم يتنازل هرغر حتى للإجابة على تساؤلاتي ومطالبتي ، وأخيرا نظر إلى ضاحكا بسخرية ثم عاد ووجه انتباهه إلى أشعة السفينة . وهكذا أبحرت سفينة الشماليين بجانب مدينة البلغار وقريبة من الشاطئ إلى حد كنت أسمع فيه صياح التجار ونبغاء الغنم ، ومع ذلك كنت بلا حول ولا قوة سوى مشاهدة ذلك المنظر بعيني . وبعد مرور ساعة حاولت مرة ثانية ولكن طلبى رفض أيضا ، إذ أن مدينة البلغار كانت على

منقطع من النهر كما قلت سابقا . وسرعان ما غابت عن ناظرى . وهكذا دخلت ثم غادرت بلغاريا (ربما أصبح القاريء الآن مشوشا الى حد كبير حول جغرافية المنطقة . فبلغاريا الحديثة هى احدى دول البلقان ، تحدها اليونان ويوغسلافيا ورومانيا وتركيا . ولكن من القرن التاسع الى القرن الخامس عشر الميلادى كانت هناك بلغاريا اخرى على ضفتى الفولجا وعلى بعد حوالى ستمائة ميل شرقى موسكو الحديثة . وذلك هو المكان الذى كان يقصده ابن فضلان . اما بلغاريا التى كانت على الفولجا فكانت مملكة مهلهلة رغم بعض الاهمية ، كما ان عاصمتها بلغار كانت شهيرة وغنية عندما احتلها المغول فى عام ١٢٣٧ م ويعتقد بان بلغاريا الفولجا وبلغاريا البلقان كانتا ماهولتين بمجموعات عرقية متشابهة من المهاجرين الذين انطلقوا من مناطق حول البحر الاسود خلال الفترة ما بين ٤٠٠ - ٦٠٠ م . ولكن المعلومات عن هذا الموضوع قليلة نادرة . وتقع مدينة البلغار القديمة فى منطقة قازان الحديثة) .

مضى ثمانية ايام اخرى ونحن فى السفينة ومازلنا فى نهر الفولجا وكانت اليابسة أصبحت اكثر جبلية ووعورة حوالى حوض النهر . والان وصلنا الى رافد آخر من روافد النهر يسمى الشماليون نهر اوكر ، وهنا اتجهنا الى الرافد الواقع على اقصى اليسار ثم استمرينا فى رحلتنا عشرة ايام اخرى . كان الهواء باردا جدا وكانت الرياح قوية وكان الكثير من الثلج ما يزال يغطى الارض . وكانت هناك غابات كثيرة هائلة الحجم فى هذه المنطقة التى يسميها الشماليون فادا .

وصلنا الى معسكر لاهل الشمال اسمه ماسبورنج . كان هذا اقل مما يمكن تسميته بلدة ولكنه معسكر من مجموعة قليلة من البيوت الخشبية مبنية بحجوم كبيرة على طريقة اهل الشمال . وتعيش هذه المدينة على بيع المواد الغذائية للتجار الذين يقصدونها عبر هذا الطريق . وفى ماسبورنج غادرنا سفينتنا وسافرنا برا على ظهر الخيول لمدة ثمانية عشر يوما . كانت هذه منطقة جبلية وعرة شديدة البرودة وكنت مرهقا بسبب طول الرحلة . وهؤلاء الشماليون لا يسافرون ليلا ابدا ، كما انهم نادرا ما يبحرون ليلا ، لكنهم يفضلون

أن يرسوا سفنهم في كل مساء وينتظرون بزوغ فجر اليوم التالي قبل استئناف الرحيل .

إلا أنه رغم ذلك وقعت الواقعة التالية : خلال فترة ترحالنا تلاشت فترة الليل الى حد لم يعد يكفى لطبخ اكلة من اللحم خلاله . وقد كان يبدو لى أننى ما أكاد أستلقى لانام حتى يوقظنى الشماليون قائلين « انهض لقد طلع النهار يجب أن نستأنف رحلتنا » . كما لم يكن النوم منشطا للقوى في هذه الاماكن الباردة .

أوضح لى هرغر أن النهار فى بلاد الشمال يكون طويلا فى الصيف ويكون الليل طويلا فى الشتاء ، وأنه نادرا ما يكونان متساويين . ثم قال لى أنه على أن أراقب السماء ليلا لارى ستارة السماء أضواء شاحبة متراقصة خضراء وصفراء وأحيانا زرقاء وهى معلقة وكأنها ستارة فى أعالي الجو . وقد دهشت أعظم الدهشة لمنظر ستارة السماء ولكن أهل الشمال لا يعدونها شيئا غريبا .

ثم تابعنا السير لمدة خمسة أيام أخرى ونحن نهبط الجبال حتى وصلنا منطقة من الغابات . وغابات بلاد الشمال باردة كثيفة فيها اشجار ضخمة هائلة . كما انها أرض رطبة باردة . وفى بعض المناطق هى من الخضرة بحيث تتالم العيان من بهر الالوان ، أما فى مناطقها الأخرى فهى سوداء مظلمة مربعة .

تابعنا السير لسبعة أيام أخرى خلال الغابات وقد واجهنا الكثير من المطر . وغالبا ماتكون طبيعة هذا المطر أن يسقط بغزارة تسبب الشعور بالخوف . وبين مرة وأخرى كنت أظن أننى سأمرق ، فقد كان المطر غزيرا لحد كان فيه الهواء نفسه مملوءا بالمطر . وفى فترات أخرى ، حينما كانت الرياح تقلد المطر كان يبدو وكأنه عاصفة رملية يقرص لحومنا ويحرق عيوننا ويعمى أبصارنا . (اما وأن ابن فضلان قادم من منطقة صحراوية فلا عجب أن تبهره الوان الخضرة الساطعة والمطر الغزير)

الفصل السابع

لم يكن هؤلاء الشماليون يخافون اللصوص أبدا فى الغابات وسواء كان ذلك بسبب قوتهم الهائلة أو نذرة عصابات اللصوص قاننى فى الواقع لم أشاهد أحدا فى هذه الغابات . فسكان بلاد الشمال قليلون

من كل صنف أو هكذا بدا لى خلال ترحالى هناك . وكنا غالبا ما نسافر لمدة سبعة أيام أو عشرة دون أن نرى مستوطنة واحدة أو مزرعة أو منزلا .

استمرت رحلتنا على الوجه التالى : كنا نستيقظ فى الصباح ودون وضوء أو غسل كنا نمتطى جياتنا ونستمر فى السفر حتى منتصف النهار . ثم كان بعض المحاربين يصطادون لنا صيدا حيوانا كان أو طيرا . اذا كان الوقت ممطرا كان هذا الطعام يؤكل دون طبخ . . . ولقد هطل المطر غزيرا لمدة أيام ، وفى أول الامر رصيت بأكل اللحم نيئا ، والذي لم يكن ذبجا حلالا ، ولكننى بعد فترة اكلته أيضا وأنا أقول « باسم الله » بصوت هامس ، وأنا أدمع الله أن يتفهم مصابى . وعندما لم تكن تمطر ، كانوا يوقدون نارا فى منقل كانوا يحملونه معهم ثم يطبخون الطعام عليه . ولقد اكلنا أنواع التوت والاعشاب التى لا أعرف اسمها . ثم استأنفنا رحيلنا فى الجزء الاخير من النهار والذي كان لا بأس بطوله ، وحتى هبوط الليل حين كنا نقف لنتراح ونأكل .

وكثيرا ما كانت تمطر فى الليل ، فكنا نبحث عن ملجا تحت الاشجار الباسقة ، ومع ذلك فقد كنا نهض مبليين وجلود نومنا مبللة أيضا . ولم يتشكك أهل الشمال من كل هذا بل كانوا مرحين بمتبهجين طوال الوقت . كنت أنا الوحيد الذى أشكو وبغضب . لكنهم لم يعمرونى أى اهتمام .

وأخيرا قلت لهرغر : « المطر بارد » فضحك ثم قال : « كيف يمكن أن يكون المطر باردا ؟ أنت البارد وانت التمس . أما المطر فليس باردا ولا تيمسا » .

كان واضحا لى أنه كان يؤمن بهذه الحماسة ، وكان يظننى حقا أحمقا أن أفكر بغير تفكيره ، ومع ذلك بقيت على تفكيرى .

ثم حدث فى ليلة من الليالى وبينما كنا نأكل أن قلت بادئا طعامى « باسم الله » ، فسأل بيولف هرغر عما قلت . أخبرت هرغر أننى اعتقد بأنه يجب ذكر اسم الله على الطعام ، وأننى فعلت ذلك انسجاما مع معتقداتى . فقال لى بيولف « أهذا هو أسلوب العرب ؟ » وكان هرغر هو المترجم .

فاجبت بما يلى : « كلا . فى الحقيقة ان الذى يذبح الذبيحة هو

الذى يجب أن يذكر اسم الله . ولكننى أقول هذه الكلمات لنا
أنسى » .

وقد وجد الشماليون فى هذا سببا للضحك فضحكوا من أعماء
قلوبهم . ثم التفت الى بيولف قائلا « هل تستطيع أن ترس
الاصوات ؟ » لم أفهم قصده أولا فاستفسرت من هرغر ، ثم كار
هناك حديث تداوله الاثنان ، وأخيرا فهمت أنه كان يعنى الكتابة
فاهل الشمال يسمون حديث العرب ضجيجا أو أصواتا . أجبت
بيولف أننى أستطيع الكتابة كما أستطيع القراءة . قال أنه على أن
أكتب له على الأرض . وعلى ضوء نار المساء ، أخذت عصا وكتبت
« الحمد لله » . نظر جميع الشماليين الى الكتابة ثم أمرت أن أقول
ما تعنيه ففعلت . وفجأة حدق بيولف فى الكتابة لمدة طويلة ورأسه
غارق فى صدره .

قال لى هرغر ، « أى اله هذا الذى تحمده ؟ » فأجبت بأننى
أحمد الإله الذى اسمه الله .

فقال هرغر « اله واحد لا يكفى » .

استأنفنا الرحيل ليوم آخر وقضينا ليلة أخرى ثم يوما آخر ،
وفى مساء اليوم التالى تناول بيولف عصا ورسم على الأرض ماكنت
قد رسمته له وطلب الى أن أقرأها . فقلت بصوت عال « الحمد
لله » . ظهرت ملامح الرضا على وجه بيولف لهذا ، وقد وجدت أنه
كان يمتحننى وقد احتفظ فى ذاكرته بالرموز التى رسمتها لى
يرينى إياها مرة أخرى .

أما أكثغو وهو مرافق بيولف ، ولكنه محارب أقل مرحا من
الآخرين شديد المراس ، فقد خاطبنى بواسطة المترجم هرغر . قال
هرغر « أن أكثغو يرغب أن يعرف أن كنت تستطيع أن ترسم صوت
اسمه » .

فقلت أننى أستطيع ذلك ، وأخذت عصا وبدأت أرسم على
التقارارات . وفجأة قفز أكثغو وأطاح بالعصا وداس على كتابتى وهو
يردد كلمات غاضبة .

قال لى هرغر « لا يرغب أكثغو أن تكتب اسمه فى أى ظرف كان .
يجب أن تعد بذلك » .

وهنا انتابتنى الحيرة . وقد رأيت أن اكثفوا كان غاضبا منى
أشد الغضب . كما كان الآخرون يحدقون بى بقلق وغضب وعدت
هرغر ألا أرسم اسم اكثفو أو اسم أى من الآخرين . عند هذا بدا
الارتياح على وجوه الجميع .

لم يناقش بعد هذا موضوع كتابتى أبدا ، لكن بيولف ، وكلما
كانت تمطر ، كان يأمر أن أساق الى شجرة كبيرة كما صار يقدم
لى المزيد من الطعام عما كان قبلا .

لم تكن ننام دائما فى الغابات كما لم تكن دائما نركب خيولنا
عبرها . فعند أطراف بعض هذه الغابات كان بيولف ورفاقه
المحاربون يندفعون الى الامام وجيادهم تعدو خلال الاشجار الكثيفة ،
دون اهتمام أو احساس بالخوف . ومع ذلك فعند غابات أخرى
كان يشد اللجام ويتوقف ، وكان المحاربون يترجلون ثم يحرقون
نارا ويقدمون قرايين من الطعام وبعض أرغفة الخبز القاسى ، أو ربما
يقدمون منديلا من القماش كقربان قبل أن يستأنفوا السفر . ثم
يمتطون جيادهم دائرين حول طرف الغابة دون أن يدخلوا الى
أعماقها .

استفسرت من هرغر عن هذا ، فأجاب بأن بعض هذه الغابات
كانت آمنة وأن بعضها لم يكن كذلك ، ولكن ايضا لم يتجاوز
هذا الحد . فسألته « ما هو الذى غير أمين فى الغابات التى تعتبر
كذلك ؟ » فأجابنى بما يلى : « هناك أشياء لا يستطيع انسان أن
يقهرها ولا يستطيع بسيف أن يقتلها ، ولا تستطيع نار أن تحرقها ،
ومثل هذه الأشياء تعيش فى الغابات » . قلت « وكيف تتم معرفة
ذلك ؟ » . هنا ضحك وقال « أنتم العرب ترغبون دائما أن تكون
عندكم الاسباب لكل شيء . وقلوبكم كيس كبير مملوء بالاسباب » .
فقلت « وأنتم ألا تهتمون بالاسباب ؟ » فقال « انها لا تجدى شيئا .
نحن نقول يجب أن يكون الانسان حكيما باعتدال ولكن ليس مفرط
الحكمة حتى لا يعرف قدره مسبقا . فالانسان الذى يكون عقله
متحررا من الاهتمام والحرص لا يعرف قدره مسبقا » .

هنا قلت انه لا بد لى من أن أرى بجوابه . ففى الواقع فى بعض
المناسبات كنت أثير بعض التساؤلات وكان هرغر يجيب عليها .

وحين لم اكن افهم جوابه كنت الح فى السؤال وكان هو يفصل
الجواب . ولكن فى بعض الاحيان حينما كنت اثير بعض التساؤلات
كان يجيب باقتضاب كما لو كان سؤالى بلا معنى . وعندها لم اكن
الح فى سؤالى ، اذ لم اكن اتلقى من جواب سوى هزة من رأسه .
واستأنفنا الرحيل . واستطيع ان اقول بحق ان بعض الغابات
فى بلاد الشمال العذراء كانت تثير احساسا بالخوف لم اكن ادرى له
سببا . ففى الليل وبينما الشماليون متعلقون حول النار كانوا
يقصون قصصا عن التنين والوحوش القاتلة ، ويحكون الحكايا ايضا
عن اجدادهم الذين قتلوا هذه المخلوقات وكانوا يقولون ان هذه هى
مصادر خوفي انا . ولكنهم كانوا يروون القصص دون اى مظاهر
الخوف ، اما هذه الوحوش فلم ار اثرا لها بىنى .

فى احدى الليالى سمعت دمدمة حسبتها وعدا ولكنهم قالوا انها
صوت عويل التنين فى الغابة . لست اعلم حقيقة هذا ولكنى ادون
ما قيل لى .

بلاد الشمال باردة رطبة ، وقلما ترى الشمس فيها ، فالسما
رمادية تغطيها السحب الكثيفة طيلة النهار . والناس فى هذه المناطق
شاحبو الوجوه وكانها قماش قطنى ، اما شعورهم فشقاء شديدة
الشقرة . بعد ايام عديدة من السفر لم اعد اشاهد اناسا سمرأ على
الاطلاق ، وفى الحقيقة كان سكان هذه المناطق يستغربون لون جلدى
وشعرى الاسود . وكثيرا ما اقترب منى مزارع او زوجته او ابنته
ليلمسونى بشئ من الحذر والخوف . وكان هرغر يضحك ويقول
انهم كانوا يحاولون ازالة لوني اعتقادا منهم باننى طليته على لحمى .
انهم قوم جهلاء لا علم لهم بسمة هذا العالم . وكثيرا ما خافونى
وتحاشوا الاقتراب منى . وفى احدى الاماكن الذى لا اذكر اسمه صاح
طفل فى رعب قاتل وجرى ليتعلق بأمه عندما رآنى .

عندها ضحك محاربو بيولف بفرحة طاغية . ولكنى لاحظت الان
انه مع مرور الايام توقف محاربو بيولف عن الضحك ، واصيبوا
بنوبة مزاج سيء كانت تزداد يوما بعد يوم . وقد قال لى هرغر انهم
كانوا يفكرون بالشراب الذى كنا قد حرمانا منه لايام عديدة .

وفى كل مزرعة او منزل كانه بيولف ومحاربوه يسألون عن الشراب

الآن هذه المناطق الفقيرة نادرا ما كان فيها شراب فكانوا يصابون بخيبة أمل عظيمة ، حتى اختفى كل أثر للمرح على وجوههم .

الفصل الثامن

وبعد مناء طويل وصلنا قرية وجد فيها المقاتلون الشراب فإذا كل رجال الشمال مخمورون في رمشة عين وهم يشربون بطريقة صاحبة غير عابئين بالشراب الذي كان ينسكب على لحاهم وثيابهم وهم يشربون . وفي الحقيقة فإن أحد أفراد المجموعة ، المحارب المتزن اكتشفو غرق في الشراب حتى سكر وهو لا يزال على حصانه وسقط وهو يحاول الترتل فرفسه الحصان في رأسه ، وخفت على سلامته ولكن اكتشفو ضحك ورد رفسة الحصان برفسة مثله .

بقينا في هذه القرية طيلة يومين ، وقد دهشت لذلك لانه في الماضي كان المقاتلون يظهرون استعجالا كبيرا وجدية في رحلتهم ، الا أنهم هجروا كل ذلك الآن مستسلمين الى الشراب والنوم العميق . وفي اليوم الثالث أمر بيولف بأن نستأنف الرحيل فتحرك المحاربون وأنا بينهم ، ولم يعدوا خسارة يومين بالشئ القريب .

لم أمد متاكدا من عدد الايام التي قضيناها في السفر ، الا اننى اذكر أننا غمنا خيولنا خمس مرات بخيول جديدة ، وكنا ندفع ثمن هذه الخيول في القرى ذهباً أو أصدافاً صغيرة خضراء قيمتها عندهم اثنان من أى شئ آخر في هذا العالم . وبعد مناء طويل وصلنا الى قرية اسمها لنبرغ تقع على شاطئ البحر . كان البحر رماديا مغبرا ، وكذا السماء ، كما كان الهواء باردا قارسا . هنا ركبنا سفينة جديدة .

كانت هذه السفينة ذات مظهر شبيه بمظهر السفينة الاولى ولكن اكبر حجما وكان الشماليون يسمونها هسبونج ، أى عنزة البحر ، وذلك لان هذه السفينة كانت تشب على الامواج كما يشب ذكر الماعز على عنزته ، ولان هذه السفينة كانت سريعة ولان عند هؤلاء الناس كان الماعز هو الحيوان الذى يرمز الى السرعة .

كنت خائفا من ركوب هذا البحر ، فمياحه عاتية باردة شديدة

البرودة ، فإذا غطست يد انسان في هذا البحر قانها تصاب بالخدر في رمشة عين ، كان مخيفا باردا . ومع ذلك فقد كان الشماليون مرحين وقد تبادلوا النكات وشربوا طيلة المساء في قرية لتبرغ البحرية وتمعوا أنفسهم بكثير من النباء والاماء . وقد قيل لى أن هذه هى عادة اهل الشمال قبل القيام برحلة بحرية ، اذ لا يعرف احد ان كان سيبقى حيا حتى آخرها ، وهكذا فانه ينزل الى البحر بأقصى ما يستطيع من المتعة .

في كل مكان وصلناه كنا نستقبل بكرم لا يعرف الحدود ، فالكرم عند هؤلاء القوم فضيلة كبرى حتى ان افقر الفلاحين كان يضع كل ما عنده امامنا ، يفعل ذلك دون خوف من ان نقتله او نسرقه ولكن بطيبة وكرم عال . ولقد علمت ان الشماليين لا يتحملون ابدا اللصوص والقتلة بين قومهم ويعاملون مثل هؤلاء الناس بقسوة بالغة . وهم يعتقدون بهذا رغم حقيقة كونهم دائما مخمورين يشفون كالحيوانات البلهاء ويقتلون بعضهم البعض في مبارزات حامية . ومع هذا فانهم لا ينظرون الى هذه المبارزات على انها جريمة قتل ، اما من يقتل منهم رجلا فانه يقتل فوراً .

وبنفس الطريقة يعاملون عبيدهم معاملة طيبة للغاية ، مما اثار عجبى . اذا ممرض احد العبيد او مات بسبب مصيبة ما ، فانهم لا يعدون ذلك خسارة كبيرة ، كما ان النساء الجوارى عليهن ان يكن دائما مستعدات للاستجابة لطلب أى رجل في العلن او في الخفاء وليلا ونهارا . ليس عندهم أى عواطف تجاه العبيد ، ومع ذلك فلا يعاملونهم بوحشية أيضا ، فاسيادهم يطعمونهم ويلبسونهم دائما (١) .

وفيما بعد علمت ان أى رجل يستطيع ان يتمتع بأية جارية ، الا ان زوجة احط المزارعين تقابل بمزيد من الاحترام من قبل زعماء ونبلاء الشماليين كاحترام هؤلاء الزوجات بعضهم البعض . فمحاوله اغتصاب امرأة حرة المولد ليست عبدة هى جريمة نكراء يحكم على الرجل بسببها بالشنق ، مع أننى لم أر هذا مطلقا .

(١) ماكتبه شهود عيان آخرون لا يتفق مع وصف ابن فضلان لمعاملة العبيد وللملاقات الجنسية . ولذلك فان بعض المراجع تشك في مصداقيته كمراتب اجتماعى . ولدى الواقع ربما كان هناك اختلافات محلية كبيرة بين قبيلة وأخرى في أعراف معاملة العبيد والزوجات الزانيات .

ويقال أن العفة بين النساء هي فضيلة كريمة ، ولكنني قلما رأيتها تمارس ، فالزنا لا يعتبر قضية خطيرة ، وإن كانت زوجة أى رجل غالى المقام أو خفيضة شهوانية فإن نتائج ذلك لا تعتبر أمرا ذا بال . فهؤلاء القوم متحررون جدا في هذه القضايا ، ويقول رجال الشمال أن النساء ماكرات ولا يمكن الوثوق بهن . ويبدو أنهم قد استسلموا لهذا الامر ويتحدثون عنه بأسلوبهم المرح المعتاد .

سألت هرغر إن كان متزوجا فقال إن له زوجة . سألت بحدل بالغ إن كانت عفيفة فضحك في وجهي وقال : « أنا أسافر فوق البحار ، وقد لا أعود ، وقد أغيب سنوات طويلة . وزوجتي ليست ميتة » . من هذا أدركت أنها لم تكن مخلصة ، ولكنه لم يابه لذلك . ولا ينتظر أهل الشمال الى أى وليد على أنه نفل أو ابن زنا إن كانت الأم زوجة . أما أطفال العبيد فهم أحيانا عبيد وأحيانا أحرار ، ولا أعرف كيف يقرر هذا الامر .

في بعض المناطق يعلم العبيد بعلامة هي قرط للأذن . وفي مقاطعات أخرى يرتدى العبيد عقدا من الحديد حول أعناقهم يحدد مكانتهم الاجتماعية . وفي بعض المناطق أيضا لا يوجد على العبيد أى علامات تدل عليهم وتلك هي العادة المحلية .

والعلاقات الجنسية الشاذة ليست معروفة بينهم ، مع أنهم يقولون بأن اقواما أخرى تمارسها ، أما هم أنفسهم فيدعون بأنهم لا يهتمون بالامر ، وحيث أن مثل هذا لا يحدث بينهم فليس غندهم عقاب له .

هذا وكثير غيره علمته من أحاديثي مع هرغر ، ومن مشاهداتي لترحال جماعتنا . كما رأيت أيضا أن كل مكان كنا نرتاح فيه كان الناس يسألون بيولف عن المهمة التي قطعها على نفسه . وعندما كانوا يخبرون بطبيعتها - والتي لم أدركها حتى الآن - فإنه ومخاريبه وأنا من بينهم كنا نحاط بأعظم الاحترام يرفعون صلاتهم دعاء بالتوفيق لنا ، كما يقدمون لنا اضحيانهم والحجب المحملة بأطيب التمنيات .

وفي البحر ، كما قلت سابقا ، يصبح الشماليون فرحين طروبين ، رغم أن المحيط كان عاتيا صاخبا ورهيبا بالنسبة لى ، وأيضا

بالنسبة لمعدتي ، التي كانت تصاب دائما بالغثيان والاضطراب . وفي الحقيقة أفرغت معدتي مرة ثم سألت هرغر لم كان هو وأصحابه فرحين الى هذا الحد .

قال هرغر « لأننا سنكون عما قريب في بيت بيولف ، Yatlam المكان المعروف باسم يتلم ، حيث يعيش والده وأمه وكل أقاربه ، والذين لم يرههم منذ زمن بعيد . » فقلت مجيبا « ان نذهب الى بلاد وولف غار ؟ » وأجاب هرغر « نعم ، ولكنه من المناسب ان يتجه بيولف ليؤدى فروض الطاعة لوالده ولأمه أيضا . » رأت في وجوههم ان كل النبلاء الآخرين والمحاربين كانوا فرحين قدر ماكان بيولف نفسه كذلك . فسألت هرغر عن سبب ذلك فأجاب « بيولف رئيسنا ونحن سعيديون لسفادته وللقوة التي سيمتلکها عما قريب . » سألته عن القوة التي تحدث عنها فأجاب « انها قوة رندنج » ، فسألت أيضا « وما هذه القوة ؟ » فأجاب قائلا « انها قوة الاجداد ، انها قوة المردة » .

يعتقد اقوام الشمال انه في عصور خلت كان العالم مأهولا بعرق من الناس المردة الذين اختفوا منذ تلك الايام . ولا يعتبر الشماليون انفسهم احفادا لهؤلاء المردة ، ولكنهم ورثوا بعضا من قوى هؤلاء المردة الاقدمين ، وبطرق لا افهمها تماما كما يؤمن هؤلاء الوثنيون بآلهة عديدة ، والذين هم ايضا آلهة مردة ، ولهم ايضا قواهم الخارقة ، لكن المردة الذين تحدث عنهم هرغر كانوا رجالا مردة ، ولم يكونوا آلهة ، او هذا ما بدا لي على الاقل .

في تلك الليلة رسونا عند شاطئ صخري مؤلف من احجار بحجم قبضة الانسان ، وهناك اسكر بيولف مع رجاله وبقوا حتى الهزيع الأخير من الليل يشربون ويفنون حول النار . وقد اشترك هرغر في الاحتفال ولم يكن عنده من الصبر ما يكفي ليترجم لي معنى الاغاني ، ولهذا لم ادر ماذا غنوا ، لكنهم كانوا سعداء . ففى صبيحة اليوم التالي سيحطون في دار بيولف ، في موطن بيولف المسمى يتلم .

رحلنا قبيل طلوع الفجر ، وكان البرد من القسوة بحيث شعرت بعظامي تن ، وكان جسمي يتألم من قساوة الشاطئ الصخري . وكنا نسافر فوق بحر صاخب وفي رياح هاتية . أبحرنا طيلة الصباح ،

وخلال هذه الفترة كان حماس الرجال يتزايد شيئا فشيئا حتى غدوا كالأطفال أو كالنساء . ولقد كان عجبيا غريبا على أن أرى هؤلاء المحاربين الأقوياء يتهقون ويضحكون كحريم الخليفة ، ومع ذلك لم يجدوا في ذلك مايؤذي رجولتهم .

كانت هناك نقطة على الشاطئ عبارة عن نتوء صخري عال من الحجر الرمادي جاثم على البحر المغبر ، وقد أخبرني هرغر بأن وراء هذه النقطة تقع بلدة يتلم . حاولت جهدي عبثا أن أرى بيت بيولف الاسطوري حين استدارت سفينة الشماليين حول الجرف . أما المحاربون فكانوا يضحكون ويزيد صياح ابتهاجهم ففهمت أنهم كانوا يلقون نكات وقحة كثيرة عن خططهم للتمتع بالنساء عندما ينزلون من السفينة .

ثم كانت هناك رائحة دخان فوق البحر وبعد ذلك رأينا الدخان ، وفجأة صمت الجميع وكان على رؤوسهم الطير . عندما التفتنا حول تلك النقطة رأيت بام عني أن تلك البلدة كان يلفها لهيب خائق ودخان اسود معتم . ولم يكن هناك أى اثر للحياة .

نزل بيولف ورجاله من السفينة ومشوا عبر بلدة يتلم . كانت منثورة هنا وهناك جثث الرجال والنساء والأطفال . وقد التهم بعضها اللهب بينما قطع بعضها الآخر السيوف - اكوام واكوام من الجثث . لم ينطق بيولف ورجاله ببنت شفة ولكن حتى في هذه الحالة لم يكن هناك اثر للحزن أو للبكاء أو للالام لم أر في حياتي قط قوما يتقبلون الموت كما يتقبله اهل الشمال . حتى انا نفسي أصبت بالفشيان مرات عديدة لمشاهد القتل والدمار ، ولكنهم لم يمانوا مثل هذه الحال أبدا .

وأخيرا قلت لهرغر ، « من فعل هذا ؟ » اشار هرغر الى أعماق اليابسة ، الى الغابات والتلال المتباعدة عن المحيط المغبر . كانت هناك كتل من الضباب فوق الغابات اشار اليها هرغر دون أن ينطق بحرف . سألته « هل هي كتل الضباب ؟ » فقال « لا تسل أكثر من ذلك . ستطلع على الحقيقة بسرعة تفوق حتى رغبتك . »

والان حدث الاثنى : دخل بيولف أحد البيوت المدمرة التي كان يتصاعد منها الدخان ، ثم عاد إلينا يحمل سيفاً ضخماً هائلا . كان

السيف من الضخامة والثقل ، والحرارة القوية التي ترومحتها فيسه
النيران ما حمله يحمله وقد لف حول مقبضه قطعة من القماش .
والحقيقة اقول كان ذلك اكبر سيف رابته في حياتي . فقد كان بطول
جسمه وكان حده مبسطا واسما يشبه راحتي رجلين وضعتا جنبا
الى جنب . وكان كبيرا ضخما الى حد ناء تحت حمله حتى بيولف
نفسه . سألت هرغر عن هذا السيف فقال « ذلك هو رندنج » ،
ثم امر بيولف بأن تتوجه كل الجماعة الى السفينة فانطلقنا في عباب
البحر ثانية . لم يلق اى من المحاربين نظرة وداع على المدينة المحترقة ،
« يتلم » ، انا وحدى فعلت ذلك فرايت الدمار يعلوه الدخان ورأيت
كتل الضباب على التلال المحيطة فيما وراء ذلك .

الفصل التاسع

الاقامة في ترلبرغ

على مدى يومين كاملين ابهرنا على طول شاطئ منبسطة ما بين
جزر كثيرة تسمى ارض الدانز ، ثم وصلنا أخيرا الى منطقة من
المستنقعات فيها معابر من انهر صغيرة تصب في البحر . هذه الانهار
لا اسم لها لكن كلا منها يسمى ويك أو فيك ، واسماء اهالى مناطق
هذه الانهار الضيقة هي الفاينج أو الواينج ، والتي تعنى بالنسبة
لاهل الشمال المحاربين الذين يبحرون بسفنهم على طول هذه الانهار
ويهاجمون المستوطنات بطريقة الفاينج (١) .

في هذه المناطق المستنقعية توقفنا في مكان يسمونه ترلبرغ ، كان
بالنسبة الى أعجوبة من العجائب . فلم تكن هناك بلدة بالمعنى
الصحيح ، ولكن كان هناك معسكر حربي ، واهله كانوا محاربين معهم
القليل من النساء والاطفال . وكانت دفاعات معسكر ترلبرغ هذا تبنى
بحرص ومهارة كبيرين على طراز البناء الروماني .

(١) هناك بعض الجدل بين العلماء الحديثين حول اصل كلمة « فاينج » ولكن معظمهم
يوافقون أين فضلان على رايه بأنها مشتقة من كلمة فيك Vlk والتي تعنى نهرا
ضيقة صغيرا .

تقع ترلبرغ عند ملتقى نهرين يصبان بمد ذلك في البحر .
والجزء الاساسى من البلدة محاط بسور دائرى من الطين وبعلو
خمس رجال يقفون فوق بعضهم البعض . وفوق هذه الحلقة
الطينية كان يقوم سياج خشبى يؤمن حماية اكبر . اما خارج هذه
الحلقة الطينية فكان هناك حفرة مملوءة بالماء لم اعرف عمقها .

هذه المنشآت الترابية كانت مصنوعة بشكل ممتاز ، وفيها
تناسق ونوعية من الجودة لا يتنافسها اى شىء اعرقه . وكان هناك
ايضا مايلى : في الجانب المحاذى لليابسة من البلدة كان هناك سور
عال على شكل نصف دائرة وكان هناك حفرة ثانية ورائه .

اما المدينة نفسها فتقع ضمن اطار الحلقة الاولى التى يشقها
اربعة ابواب ، بمواجهة زوايا الارض الاربعة . وكل بوابة مجهزة
بابواب قوية من خشب البلوط لها مفاصل ثقيلة من الحديد ،
ويحرسها رجال كثيرون . كما ان كثيرا من الحرس يتجولون فوق
المناريس والاسوار ، ويقومون بالحراسة والمراقبة ليل نهار .

هناك داخل اسوار البلدة ستة عشر منزلا خشبيا متشابهة تماما :
كلها بيوت طويلة ، كما يدعوها اهل الشمال ، لها جدران منحنية
بشكل يشبه القوارب المقلوبة وقد قطعت نهاياتها وبسطت في المقدمة
والمؤخرة . طولها ثلاثون خطوة وهى اكثر اتساعا في جزئها الوسط
منها في النهايتين . وهى مرتبة على الوجه التالى : كل اربعة بيوت
طويلة تقام بشكل محكم الترتيب بحيث تشكل مربعا . وهكذا ترتب
اربعة مربعات ليكون مجموعها ستة عشر بيتا (١) .

كل بيت طويل له مدخل واحد ، ولا يمكن ان يكون مدخل اى
من البيوت على مرأى من البيت الاخر . سالت عن سبب ذلك ،
فاجاب هرغر قائلا : « اذا هوجم المعسكر ، فيجب على الرجال ان
يسرعوا الى مواقع الدفاع ، وتكون الابواب عادة وبهذا الشكل مرتبة
بشكل يمكن الرجال من الاسراع الى مواقع دفاعهم دون اختلاط او

(١) هناك من يؤكد صحة كلام ابن فضلان عن طريق الدليل الاثنارى (الاركيولوجى)
ففى عام ١٩٤٨ تم التنقيب واكتشاف الموقع المعسكرى لترلبرغ فى زيلندة الفريزية فى
الدانمارك . . . والموقع يتطابق تماما مع وصف ابن فضلان لحجم وطبيعة وتركيب
المستوطنة .

اضطراب ، بل على العكس يستطيع كل واحد منهم ان ينطلق بحرية وسرعة لياخذ مواقعه في الدفاع .

وهكذا فانه ضمن المربع الواحد يكون باب احد البيوت متجها الى الشمال ، والذى يليه الى الشرق ، والذى بعده الى الجنوب والرابع الى الغرب ، وهكذا ايضا هي الحال في كل من المربعات الاربعة .

ثم انى رايت انه في حين ان هؤلاء الشماليين كانوا ضخاما مردة ، فقد كانت هذه البوابات او المداخل منخفضة جدا كنت حتى انا اضطر معها لان انحنى عند الدخول الى احد هذه البيوت فسالت هرغر عن سبب ذلك فاجابنى « اذا ما هوجمنا يمكن ان يبقى محارب واحد داخل البيت . وبسيفه يستطيع قطع رعوس كل من يحاول دخول البيت . فالباب منخفض جدا بحيث يضطر اى داخل ان يرسل راسه اولا فيتم قطعه . وفي الحقيقة وجدت ان ترلبرغ في كل مجالات الحياة كانت بلدة مصممة للحرب والدفاع . لم تكن تجرى اية تجارة هنا كما قلت سابقا . اما داخل البيوت الطويلة فهناك داخل كل بيت ثلاثة اقسام او غرف ولكل منها باب . والغرفة الوسطى هي الاكبر وفيها حفرة لالقاء الزباله .

ادركت الان بان اهل ترلبرغ لم يكونوا كالشماليين المقيمين على نهر الفولجا . فهؤلاء كانوا قوما نظيفين بالنسبة لعرقتهم . فقد كانوا يغتسلون في الانهار ، ويتخلصون من فضلاتهم خارج الابواب في العراء وكانوا في كل مجال اكثر تفوقا مما عرفته من قبل . ومع ذلك لم يكونوا نظيفين بكل معنى الكلمة اللهم الا من باب المقارنة .

اما مجتمع ترلبرغ فمعظمه من الرجال ، والنساء كلهن جوارى اذ ليس هناك من زوجات بين النساء ، كما ان كل النساء هناك يتم الاستمتاع بهن بحرية وحسب رغبة الرجال . ويعيش اهل ترلبرغ على السمك وبعض الخبز القليل ، وهم لا يقومون باية زراعة او فلاحه ، رغم ان الاراضى المستنقعية المحيطة بالبلدة تحوى مناطق ملائمة للزراعة . سألت هرغر لماذا ليس هناك زراعة فاجابنى قائلا « هؤلاء محاربون . انهم لا يحرثون الارض » .

استقبل بيولف ورفاقه استقبالا رائعا من قبل زعماء ترلبرغ الذين كانوا عديدين ، والذين كان اكثرهم صدارة واحد يسمى ساغارد . وساغارد هذا رجل قوى عنيف وضخم ضخامة بيولف نفسه تقريبا .

وخلال وليمة المساء استفسر ساغارد من بيولف عن مهمته واسباب سفره فاخبره بيولف عن تضرعات ورجاءات وولف غار . وكان هرغر يترجم لى كل ما يقال رغم انى فى الواقع كنت قد قضيت بين هؤلاء الوثنيين وقتا كافيا لاتعلم كلمة واحدة او اثنتين من لغتهم هاكم معنى الحديث الذى جرى بين ساغارد وبيولف . تحدث ساغارد فقال : « من المعقول والمنطقي بالنسبة لبيولف ان يقوم بمهمة الرسول ، رغم انه ابن الملك روث غار ، لان ابناء روث غار العديدين قد انقلبوا بعضهم على بعض » .

اجاب بيولف بانه لم يكن يعرف شيئا عن هذا أو شيء بهذا المعنى ولكنى لاحظت بانه لم يكن شديد الدهشة لذلك . كان بيولف نادرا ما يصاب بالدهشة من أى شيء . فقد كان هذا من جملة متطلبات دوره كزعيم وقائد للمحاربين وبطل لهم .

تحدث ساغارد ثانية فقال « فى الحقيقة رث غار له خمسة ابناء ، مات ثلاثة منهم على يدى واحد منهم هو وغلف المكار (1) الذى كان شريكه فى المؤامرة منادى الملك العجوز . وولف غار وحده هو الذى بقى مخلصا وقد غادره الان » . اجاب بيولف ساغارد بانه كان سعيدا لان يسمع بهذه الاخبار وانه سوف يبقياها فى ذاكرته ، وانتهى الحديث عند هذا الحد . ولم يظهر بيولف ولا أى من رجاله أية دهشة لكلمات ساغارد ، فهبت من هذا انه من المعتاد ان يتخلص ابناء الملك بعضهم من بعض ليصلوا الى العرش .

(١) الكلمة المستعملة هنا كانت حرفيا « رجل يجيد استعمال يديه الاثنتين » كما سيتضح فيما بعد كان الشماليون مزدوجى الايدى فى الحرب ، وكانت القدرة على قتل السلاح من يد الى اخرى تعتبر حيلة زائفة . ومكنا فان تعبير « يجيد استعمال يديه الاثنتين » يعنى انه رجل مكار او ماهر . وقد اعطيت كلمة زنبقى معنى مشابه ، يعنى تعنى الان « خداع مناورة » ، ولكن فى السابق كان لها معنى اكثر ايجابية أى « صاحب موارد وفيرة » او « كثير المناورة » .

وصحيح أيضا انه من وقت لآخر قد يقتل الولد اباه الملك ليصل الى العرش ، ولا يعتبر أمرا قريبا اذ ينظر اليه الشماليون كما ينظرون الى أى شجار بين سكارى المحاربين . ويردد اهل الشمال مثلا شعبيا يقول « انظر خلفك » وهم يعتقدون بأن على كل انسان ان يكون مهيبا دائما لان يدافع عن نفسه ، حتى بالنسبة لوالد تجاه ولده .

عند رحيلنا سألت هرغر لماذا بنى تحصين آخر في القسم المعتد صوب اليابسة من ترلبرغ ولم يبنوا تحصينا اضافيا كهذا باتجاه البحر . فهؤلاء الشماليون قوم جوايون للبحار بل ويهاجمون من البحر ، ومع ذلك اجاب هرغر قائلا « انها الارض ، انها اليابسة التى هى مصدر الخطر » . فسألته « ولماذا تكون الارض خطرة ؟ » فاجاب « بسبب كتل الضباب » .

الفصل العاشر

عند رحيلنا من ترلبرغ قام المحاربون المجتمعون هناك بضرب بلطاتهم على تروسهم مسببين بذلك ضجة كبيرة وكله من أجل سفينتنا التى كانت قد نشرت قلعوها . وقد اخبرت بانهم يفعلون ذلك لجرا انتباه اودن ، احد آلهتهم لكى يرمى اودن هذا يعطفه رحلة بيولف ورجاله الاثنى عشر .

ثم علمت هذا ايضا : وهو ان الرقم ١٣ هو رقم ذو أهمية كبرى بالنسبة لاهل الشمال ، لان القمر ينمو ثم يصبح هلالا ثم يموت ثلاث عشر مرة في العام في حسابهم . ولهذا السبب فان كل حساباتهم المهمة يجب ان تحوى على الرقم ١٣ . وهكذا اخبرنى هرغر بان عدد مساكنهم فى ترلبرغ كان ثلاثة عشر يضاف اليها ثلاثة اخرى بدل ان يقول ستة عشر كما عبرت عنها انا من قبل .

واكثر من ذلك علمت ان لدى الشماليين عقيدة مفادها السنة لا تتفق تماما وبدقة مع ثلاثة عشر مروورا للقمر ، ولهذا فان الرقم ١٣ ليس ثابتا ومثبتا فى عقولهم فمرووره الثالث عشر يسمى بالنسحري

او الاجنبى ، ويقول هرغر « ولهذا اخترناك وجلسنا الثالث عشر باعتبارك رجلا اجنبيا » .

والحقيقة ان هؤلاء الشماليين قوم يؤمنون بالخرافات دون رجوع الى المنطق او العقل او القانون وكانوا يبدون لعينى وكأنهم اطفال متوحشون ، ومع هذا فقد كنت بينهم ولهذا سكنت عن كل تعليق . وسريعا ما اكتشفت لشدة سرورى مدى حصافتى فى هذا الامر ، لان الاحداث بدأت تجرى على الشكل التالى : كنا قد ابهرنا لبعض الوقت مبتعدين عن ترلبرغ عندما استذكرت انه لم يحدث قط من قبل ان قدم سكان بلدة ما طقوس الرحيل بالضرب على التروس لاستدعاء اودن . تحدثت بهذا لهرغر فاجاب : « هذا صحيح فهناك سبب خاص للدعاء لاودن لاننا الان فوق بحر الوحوش » وقد بدا لى ذلك برهانا على ايماناتهم الخرافية : سالت عما اذا كان اى من المحاريين قد رآى مثل هذه الوحوش . فقال هرغر « فى الحقيقة لقد رأيناها جميعا . والا فكيف نعرفها ؟ » .

ومن تبرات صوته كنت استطيع ان اميز انه كان يعتبرنى احمقا لشكى فيما يقول .

ومر بعض الوقت قبل ان اسمع صياحا ثم ارى محاربى بيولف واقفين وهم يشيرون الى البحر يراقبون بامعان ويتصايحون فيما بينهم . سالت هرغر عما حصل ، فقال وهو يشير الى البحر « نحن بين الوحوش الان » .

كان المحيط فى هذه المنطقة هائجا هادرا ، والريح تعصف بقوة مرعبة ، محيلة امواج البحر الى زبد ابيض تبصق الماء فى وجه البحار وتلعب حيل المخادعة لبصره . راقبت البحر عدة دقائق ولكننى لم ار منظر وحش البحر ، ولم يكن لدى اى سبب لتصديق ما قالوا .

وفجأة صاح احدهم وهو يدعو الى اودن ، يصرخ مصليا ويكرر الاسم مرار عديدة باستمطاف وتضرع ، وعندها فقط رايت وحش البحر بعينى ، كان على شكل افعى هائلة الحجم لم ترفع رأسها ابدا فوق سطح البحر ، ولكننى رايت جسمه يتقلب ويتلوى ، وقد كان طويلا جدا اطول واعرض من سفينة الشماليين ، وكان لونه

أسود . بصق وحش البحر الماء فى الهواء وكأنه ينبوع ثم اندفع نحو الأعماق رافعا ذيله الذى كان مشطورا الى شطرين وكأنه لسان أفعى ذو شعبتين . وكان هائلا ، حتى ان كل قسم من ذلك الدليل كان أعرض من أعرض وأكبر أى من سعف النخيل .

ثم رايت وحشا آخر ثم آخر ثم آخر بعده ، يبدو انه كان هناك أربعة أو ستة منها أو سبعة ، وكل منها كان يتصرف كبقية أقرانه يتلوى فى الماء ويصق نافورة ثم يرفع ذيله الهائل المشطور شطرين . وعند رؤيتهم له صاح الشماليون طالبين العون من أودن ، وركع عدد غير قليل منهم على ركبهم يرتجفون على ظهر السفينة .

ولقد رايت بعينى وحوش البحر فى كل مكان حولنا فى المحيط ، ثم بعد مرور بعض الوقت ذهبت جميعا ولم نرها مرة أخرى . واستأنف محاربو بيولف جهدهم فى تسيير السفينة ، ولم يذكر أى منهم الوحوش ، ولكنى كنت مصابا بهلع شديد لمدة طويلة بعدها ، وقال لى هرغر ان وجهى كان أبيض بياض وجه رجل من الشمال ثم ضحك وسألنى « ماذا يقول الله فى هذا ؟ » وهو سؤال لم أستطع الإجابة عليه (١) .

فى المساء رسونا عند الشاطئ وأشعلنا نارا ، ثم سألت هرغر عما اذا كانت وحوش البحر قد هاجمت سفينة فى البحر ، وان كان ذلك قد حدث فكيف تم ذلك ، لأننى لم أستطع رؤية رأس أى تلك الوحوش فأجابنى هرغر بمناداته على اكثفو ، والذي هو أحد النبلاء ومرافق بيولف . كان اكثفو محاربا جادا وقورا لم يكن يظهر المرح الا حينما كان يسكر وقد قال هرغر انه كان على إحدى السفن التى هوجمت . وقد قال لى اكثفو ان وحوش البحر اكبر من أى شىء على سطح اليابسة وأكبر من أية سفينة فى البحر ، وهى حين تهاجم فانها تدخل تحت السفينة وترفعها فى الهواء ثم تقلدتها

(١) هذا الوصف لما هو دون شك رؤية الحيتان هو أمر يشك فيه كثير من العلماء . ويظهر هذا الوصف فى مخطوطة الرازى كما أوردناه هنا ، ولكنه أقصر من ذلك . يكتب فى ترجمة سوغرن ، والذي يبدو فيه الشماليون وكأنهم يدبرون مقلبا وكنته واضحة يلعبونها على العربى . ولكن علماء آخرين ، يشكون ، فى ان يكون ابن فضلان غير مطلع أو غير عالم بوجود الحيتان ، كما يبدو من وصفه هذا .

كقطعة من الخشب ثم تحطمها بلسانها الشعب . وأضاف اكثغو بأنه كان يوجد ثلاثون بحارا على سفينته ، ولكن لم ينج منهم الا اثنان بالاضافة اليه هو وما ذلك الا بعون الالهة ورحمتها . وقد تحدث اكثغو بطريقة طبيعية جدا ، والذي كان بالنسبة اليه امرا بالغ الجدية ، وقد صدقت انه كان يقول الحقيقة .

كما اخبرنى اكثغو بان الشماليين يعرفون بان الوحوش تهاجم السفن لانها (اى الوحوش) ترغب فى الزواج بالسفينة ، اذ يظنونها احدى اناثهم . ولهذا لاينى الشماليون سفنهم بحجوم كبيرة .

كما قال لى هرغر بان اكثغو محارب عظيم مشهور بمعاركه ، كما يجب تصديقه فى كل شئ .

على مدى اليومين التاليين ابحرنا بين جزر بلاد الدان ، وفى اليوم الثالث عبرنا ممرا مائيا مفتوحا . وهنا كنت خائفا من رؤية وحوش بحرية اخرى ، لكننا لم نر شيئا من هذا ، بل وصلنا فى آخر المطاف الى مقاطعة تسمى فندان . وبلاد فندان هذه جبلية وعرة مرعبة ، وقد تقدم رجال بيولف بالصلوات وبقربان كان عبارة عن دجاجة ذبحت والقيت فى اليم القى الرأس من على مقدمة السفينة ، اما الجسد فقد القى من مؤخرتها بجانب مسير الدفة .

لم نرس مباشرة عند ارض فندان الجديدة هذه ، ولكنا ابحرنا على طول الساحل ، حتى وصلنا فى آخر الامر الى مملكة روث غار . هكذا رايتها اول مرة : كانت تجثم فوق جرف عال تطل على منظر البحر المزد الهائج الكامد . كان هناك قاعة كبيرة هائلة مصنوعة من الخشب ، قوية مهيبة . قلت لهرغر انه كان منظرا رائعا لكن هرغر وكل رفاقه بقيادة بيولف كانوا يدمدمون وبهزون رعوسهم . سألت هرغر لم كانوا يفعلون ذلك . فأجاب « روث غار يدعى روث غار المختال ، وقاعته الكبرى هذه هى دليل او علامة رجل مغرور » فسألت : « لم تتحدث بهذا الشكل ؟ اهو بسبب حجمها وروعها ؟ » اذ كلما اقتربنا كنت ارى بوضوح اكبر أن القاعة كانت غنية بالزخارف والتمائيل الفضية التى كانت تتلألأ من بعيد .

اجابنى هرغر قائلا « كل ما اقلوه هو أن روث غار مغرور مختال

بسبب الطريقة التى أقام فيها مستوطنته فى هذا المكان . فهو يتحدى
الآلهة أن تقدر على تحطيمه ، يدعى بأنه أكثر من مجرد انسان وهو
الان يعاقب على كل ذلك » .

لم أر فى حياتى قط قاعة مظيمة ملأى بكل ما هو رائع ونفيس
كتلك القاعة فقلت لهفر « هذه القاعة لا يمكن مهاجمتها ، اذ كيف
يمكن تحطيم روث غار ؟ » ضحك هفر ساخرا منى وقال : « انتم
العرب اغبياء فوق كل تصور ، ولا تعرفون شيئا عن اسرار هذه
الدنيا . ان روث غار يستحق الاسى الذى أصابه ونحن فقط الذين
نستطيع انقاذ ، وحتى نحن ربما لن نستطيع » .

وقد زادت هذه الكلمات من دهشتى ، فالتفت الى اكثو مرافق
بيولف ووجدت أنه كان يقف فى السفينة محسباولا رسم معالم
الشجاعة على وجهه ، ومع ذلك فقد كانت ركبتاه ترتجفان ، وقطعا
لم تكن قساوة الريح هى التى جعلته يرتجف بهذا الشكل . لقد
كان خائفا ، كانوا جميعا خائفين ولكن لم أعرف سبب خوفهم .

الفصل الحادى عشر

مملكة روث غار فى بلاد الفندان

رست السفينة على الشاطئ وقت صلاة العصر ، فاستغفرت
الله لانى لم اقم بالصلاة والدعاء . ومع ذلك لم يكن بإمكانى ان افعل
ذلك بحضور الشماليين ، الذين كانوا يظنون ان صلواتى لعنات
عليهم وهددوا بقتلى ان انا صليت على مرأى منهم .

ارتدى كل مقاتل فى السفينة دروع الحرب ، التى كانت على
الشكل التالى : أولا الحذاء ثم طماق من الصوف الخشن ، وفوق
هذا معطف من الفراء السميك كان يصل الى الركبتين . وفوق هذا
وضعوا دروعا كالمعاطف ، التى كان كل واحد منهم يرتديها
سواى . ثم اخذ كل منهم سيفه وعلقه فى حزامه ، ثم حملوا تروسا
مصنوعة من الجلد ، ورمحا ، ثم ارتدى كل منهم خوذة من المعدن

أو الجلد فوق رأسه (١) وفي كل هذا كان كل المحاربين متساوين باستثناء بيولف ، الذي كان يحمل سيفه في يده ، وهم كان سيفاً ضخماً هائلاً :

نظر المحاربون عالياً باتجاه القامة الكبرى للملك روث غار مظهرين إعجاباً شديداً بالسقف المتألق ومهارة الصنع الفائقة ، واتفقوا على أنه ليس كمثلها في الكون ، بقبيها العالية ونحوتها الفنية . ومع ذلك فلم يكن هناك أي احترام في حديثهم عنها .

وبعد طول انتظار نزلنا من السفينة ، وغدينا السير على طريق مرصوف بالحجر حتى القاعة الكبرى . وقد سببت قرعة السيوف وتصادم التروس ضجة عالية . بعد أن اجتزنا بعض المسافة رأينا على جانب الطريق رأس ثور مقطوع ومعلقاً على عصا . وكان واضحاً أن الحيوان قد قتل حديثاً .

تهدد الشماليون . بعمق ورسموا علامات الكتابة على وجوههم لهذا المنظر الذي لم يكن يعنى شيئاً بالنسبة لى . مع حلول هذا الوقت كنت قد تكيفت إلى حد كبير مع عاداتهم في قتل بعض الحيوانات عند اقل ثورة غضب أو إثارة . ومع ذلك فإن رأس الثور هذا كان عندهم معنى خاص .

أشاح بيولف بوجهه بعيداً موجهاً بصره صوب حقول أراضى روث غار ، وهناك رأى بيتاً ريفياً منعزلاً من النوع المألوف في أراضى روث غار . كانت جدران هذا البيت مصنوعة من الخشب ، وقد أحكم اغلاق ثقبها بمجينة مصنوعة من الطين والقش ، الذي كان يجب أن يجدد بعد هطول الأمطار المتكرر . كما أن السقف مصنوع من مادة عازلة مضافة إلى الخشب . أما داخل البيت فلم يكن هناك سوى أرض ترابية وموقد إضافة إلى روث الحيوانات ، لأن الفلاحين ينامون مع حيواناتهم داخل البيوت طلباً للدفء الذي تشعه أجساد

(١) يظهر الوصف الشائع للاسكندنافيين ، يظهرهم وهم يرتدون خوفاً ذات قرون . هذه مفارقة تاريخية أو عارض شاذ في سياق التاريخ ، ففي زمن زيارة ابن نقيبلاين لم تكن مثل هذه العفوات قد استعملت لمدة تزيد على الألف عام ، أي منذ العصر البرونزي .
الاول .

هذه الحيوانات ، ومن ثم يحرقون الروث لاشعال الثيران .
امر بيولف بان نتجه الى ذلك البيت الريفي ، فانطلقنا عبر الحقول
التي كانت خضراء رغم انها كانت مشبعة بالرطوبة تحت اقدامنا .
وفي اكثر من مرة توقفت الجماعة لتتفحص الارض قبيل استئناف
المسير ، لكنهم لم يروا شيئا ذا قيمة بالنسبة لهم . اما انا شخصيا
فلم ار شيئا مطلقا .

الا ان بيولف عاد فاوقف الجماعة وأشار الى بقعة من الارض
سوداء داكنة . وهناك رايت بعيني آثار اقدام عارية - اقدام كثيرة
جدا . كانت اقداما مسطحة لم ار في الخلق ما هو اشبع منها .
فعدت كل اصبع من اصابع القدم كنت ترى حفرة تدل على ظفر او
مخالب كالفرن . وهكذا فقد كانت الاشكال تبدو بشرية ، ولكنها لم
تكن بشرية ايضا . لقد رايت ذلك بعينين هاتين رغم اننى لم اكد
اصدق ما كانت تراه عيناى .

هز بيولف ومحاربوه رعوسهم اما للمشهد ، ثم سمعتهم يكررون
كلمة واحدة مرات ومرات : « وندول » او « وندلون » او كلمة
قريبة من ذلك . لم ادرك معنى هذا الاسم ، ولكنى أحسست بأنه
لا يجوز سؤال هرغر فى تلك اللحظة ، لانه كان جزءا جزء الآخرين
كلهم . تابعنا السير باتجاه البيت الريفي ، وكنا نرى بين وقت
 وآخر آثارا جديدة لهذه الاقدام القرنية الاظفار على الارض . كان
بيولف ومحاربوه يمشون ببطء ، ولكنه لم يكن بظنا مصدره الحذر
اذ لم يستل احدهم سيفه ، الا انه كان نوعا من الخوف لم ادرك
كنهه ، غير انى مع ذلك شعرت بما يشعرون .

واخيرا وصلنا الى المنزل الريفي ودخلناه . وفى داخل ذلك
المنزل رايت ، وبأهول ما رايت اا رايت بعيني هذا المشهد الرهيب:
كان هناك رجل فى مقتبل العمر متناسق الجسم رشيقه ، كان
جسده قد مزق اربا اربا . كان الجذع فى مكان والذراع فى مكان
والرجل فى مكان . وكان الدم مسكوبا فى برك سميكة على الارض
وعلى الجدران وعلى السقف وعلى كل سطح داخل البيت بشكل
بدا معه البيت وكأنه طلى بالدم الاحمر . وكانت هناك ايضا امرأة
وقد قطعت ايضا بنفس الطريقة . وكان هناك طفل ذكر عمره

ما يقارب العامين فصل رأسه عن جسده وقد ترك الجسد كتلة دامية .

كل هذا رأيته بعيني ، وكان أروع منظر شاهدته في حياتي .
أفرغت معدتي من الرهبة وأغمي على قرابة ساعة أو أكثر عدت بعدها لأفرغ معدتي ثانية بصورة لا ارادية .

مهما عشت لن أدرك عقلية هؤلاء الشماليين ، لأنني حتى وأنا مغنى على كانوا هم يزدادون هدوءا وثقلا لمشهد هذا الرعب . كانوا ينظرون لكل ما يرونه بهدوء عجيب : ناقشوا آثار المخالب على أعضاء الأجساد الممزقة وطريقة تمزيق اللحم البشري . كما وجهوا انتباهها خاصا لكون جميع الرؤوس كانت قد اختفت ، وأيضا لاحظوا بانتباه أكثر المناظر بشاعة وشيطانية من كل ما راوا والذي حتى وأنا أكتب عنه في هذه اللحظة أشعر برعب شديد واهلج : كان جسد الطفل الذكر قد مضغ بأنياب شيطانية رهيبة من ناحية اللحم الطرى على أعلى الفخذ ، كما مضغت بنفس الطريقة منطقة الكتف . لقد رأيت هذا المنظر الرهيب بأم عيني .

بدأت الرهبة والوقار على وجوه مقاتلي بيولف وكانوا يدمدمون غضبا وهم يغادرون البيت الريفي . كما استمروا في توجيه انتباه شديد الى الأرض الطرية حول البيت ، وقد لاحظوا أنه لم تكن هناك آثار حوافر خيول . بدأ وكان هذا أمرا ذا أهمية كبرى بالنسبة اليهم . لكنني لم أفهم السبب ، كما لم أعر ذلك أى اهتمام اذ كنت مازلت خائر القوى ضعيف القلب واهن الجسد .

وبينما نحن نعبث الحقول اكتشف اكتشفوا اكتشافا كان على شكل قطعة صغيرة من الحجر أصفر من قبضة طفل وكانت مصقولة ومنحوتة بطريقة فجأة . تجمع المحاربون ليستمعوا فيها وكنت أنا بينهم . وجدت أنه كان جذع انثى حامل . لم يكن له رأس ولا ذراعان ولا ساقان ، بل الجذع فقط يعلو منتفخ كبير وفوقها ثديان منتفخان متدليان (١) . وكان هذا المخلوق في رأيي فجأ قبيحا الى أبعد الحدود ولم يمن لى شيئا أكثر من ذلك . أما الشماليون فقد أصيبوا فجأة

(١) هذا التمثال الموصوف يتطابق الى حد كبير مع منحوتات عديدة اكتشفها علماء الآثار في فرنسا وألمانيا .

بصدمة جملتهم يبدوون شاحبين من الجبن والخوف ، وكانت أيديهم تهتز وهى تقترب لتلمس التمثال حتى ألقي به بيولف الى الأرض أخيرا وحطمه بقبضة سيفه ، فانتثر على الأرض قطعا متناثرة من الحجر . وبعدها أصيب عدد من المحاربين بالفتيان وأفرغوا معداتهم اذ كان الهلع عظيما جدا بينهم دون ان أفهم لذلك سببا .

انطلقنا جميعا باتجاه قاعة الملك روثغار . لم يتطرق أى منهم بحرف طيلة الرحلة التى استغرقت قرابة ساعة ، فقد كان كل واحد من الشماليين يبدو وكأنه متلفع بأفكار مريرة استغرقت كل حواسه ، ومع ذلك فلم تبد عليهم أى من مظاهر الخوف .

وأخيرا استقبلنا مناد من منادى الملك على ظهر حصان قاطعا علينا الطريق . أشار الى الاسلحة التى كنا نحملها والى ملامح جماعة بيولف ، ثم صاح بكلمات انذار .

خاطبني هرغر قائلا : « انه يريد ان يعرف اسماءنا وبسرعة أيضا » . أجاب بيولف المنادى ، ومن لهجة حديثة أدركت ان بيولف لم يكن على مزاج يسمح بالاحاديث الودية . قال لى هرغر « أخبره بيولف باننا من رعايا الملك هفلغ ، من مملكة يتلم ، ونحن قد اتينا بمهمة من أجل الملك روثغار ونود ان نتحدث اليه شخصا » ثم أضاف هرغر قائلا « يقول بيولف ان روثغار ملك عظيم » ، لكن لهجة هرغر كانت توحى بعكس ذلك .

رجانا هذا المنادى ان نستأنف سيرنا الى القاعة الكبرى وننتظر هناك بينما يتجه هو لينبئ الملك بوصولنا . فعلنا ماطلب رغم أن بيولف ورجاله لم يكونوا مسرورين من هذه المعاملة ، بل كان هناك دمدمة وهمهمة وعدم رضى ، لان من عادة الشمالى ان يكون كريما مضيافا ولم يبد هذا التصرف مهذبا اذ أبقوا فى الخارج . ومع ذلك فقد انتظروا بعد أن خلعوا أسلحتهم وسويفهم ورماعهم دون اللدروع وتركوها جميعا خارج أبواب القاعة الكبرى .

الفصل الثانى عشر

كانت القاعة محاطة من كل الجوانب بمساكن متعددة على طريقة أهل الشمال . وكانت هذه البيوت طويلة محدبة الجوانب كما كانت

الحال في تولبرغ ، إلا أنها كانت مختلفة من حيث الترتيب فلم يكن هنا أى مربعات بين البيوت ، كما لم يكن هناك أى تحصينات أو خنادق محفورة . وبدلاً من ذلك كانت الأرض بدءاً من القاعة الكبرى والبيوت المحيطة بها تنحدر على شكل سهل أخضر منبسط طويل يتخلل هنا وهناك بيت ريفي أو آخر ، ثم تأتى بعد ذلك وفيما وراء هذا السهل التلال وأطراف الغابات .

استفسرت من هرغر عن هم أصحاب هذه البيوت الطويلة ، فقال لى « بعضها يخص الملك ، وبعضها الآخر يخص العائلة المالكة ، وبعضها يخص النبلاء ، كما أن بعضها يقيم فيه الخدم وموظفو البلاط الأدنى رتبة » . كما قال أيضاً انه مكان صعب ولكنى لم أدرك ماكان يعنيه بهذا .

ثم اذن لنا بالدخول الى قاعة الملك روثغار الكبرى والتي وجدت حقاً انها تعد من عجائب العالم الكبرى ، وما يزيد في ذلك كونها واقعة في بلاد الشمال العذراء . وقد كانت تسمى بين قوم روثغار باسم هاروت ، لان أهل الشمال يعطون أشياء حياتهم استثناء بشر كما يعطون هذه الاسماء للابنية والسفن وخاصة للأسلحة . وانى أقول بحق أن هاروت هذه ، أى قاعة روثغار العظيمة ، كانت بحجم قصر الخليفة كله ، ومطعمة بالفضة وحتى ببعض الذهب والذي هو معدن نادر جداً في بلاد الشمال . وفي كل جانب منها كانت هناك رسومات وزينات كما تكون أدورع الزينات والرسومات وروعة الفن . كانت في الحقيقة نصبا يرمز الى قوة الملك روثغار وعظمته .

أما الملك روثغار هذا فقد جلس في النهاية القصوى لقاعة هاروت، والتي كانت من السعة بحيث بدا الملك بعيداً الى حد لم نستطع أن نراه الا بصعوبة . وكان يقف عند كتفه الايمن نفس ذلك المنادى الذي أوقفنا . القى المنادى خطاباً ترجمه لى هرغر على الشكل التالى : « هاهنا أيها الملك عصابة من المحاربين جاءوا من مملكة يتلم . وقد وصلوا حديثاً من البحر ، وأما قائدهم فرجل يسنى بيولف . وهم يطلبون الاذن لهم بأن يحدثوك عن مهمتهم . أيها الملك لا تجرحهم من الدخول ، فلهم أخلاق النبلاء ومن ملامح زعيمهم ارى أنه مقاتل

شجاع . فماملهم كنبلاء ايها الملك روثغار . » وهكذا طلب الينا
الاقتراب من الملك .

بدا الملك روثغار رجلا يقترب بسرعة من الموت . لم يكن شابا ،
بل كان شعره ابيض ناصع البياض وكان جلده شاحبا شديدا
الشحوب وكانت اخايد وجهه يملؤها الاسى والخوف . نظر الينا
نظرة ريبة وشك وهو يجعد عينيه او ربما انه كان اعمى او يكاد
فلم استطع التأكد من ذلك . واخيرا بدا يلقي خطابا قال لى هرغر
ان فحواه كالتالى : « انا اعرف من هو هذا الرجل ، لاننى ارسلت
بطلبه ليقوم بمهمة بطل . انه بيولف وقد عرفته طفلا حين سافرت
عبر البحار الى مملكة يتلم . انه ابن هفلغ الذى كان مضيفى الكريم
وهذا هو ابنه يأتى الى الان ساعة الحاجة والالم . »

ثم دعا روثغار المحاربين للاجتماع فى القاعة الكبرى حيث قدمت
الهدايا وأقيمت الاحتفالات .

بعدها التى بيولف خطابا طويلا لم يترجمه هرغر لى ، اذ كان
التحدث اثناء اللقاء بيولف خطابه يعتبر مظهرا من مظاهر قلة
الاحترام . وعلى كل حال فقد كان المعنى كالاتى : وهو ان بيولف
قد سمع بمشاكل روثغار ، وانه كان آسفا حزينا لهذه المشاكل ،
وان مملكة ابيه هو قد هدمت بسبب هذه المشاكل نفسها ، وانه قد
اتى الان لينقذ مملكة روثغار من الشياطين التى حلت بها فاقبلتها .
وحتى الان لم اكن قد عرفت ماذا يسمى هؤلاء الشماليون اولئك
الشياطين ، او كيف ينظرون اليهم ، رغم انى رايت افعال هؤلاء
الوحوش الذين يقطعون الرجال اربا .

ثم تحدث الملك روثغار ثانية وبشئ من التردد . ادركت من
طريقة حديثه انه كان يرغب فى أن يقول بعض كلماته قبل أن يصل
محدروبه ونبلأوه . هذا ما قاله وترجمه لى هرغر : « يا بيولف ، لقد
عرفت اباك يوم كنت انا نفسى رجلا شابا حديث العهد بالعرش .
وانا الان عجوز كسير القلب منحنى الراس عيناي تبيكان خجلا وانا
اعترف بضعفى . فكما ترى يكاد عرشى يكون بقعة جرداء ، وارضى
أصبحت اماكن موحشة . ولست ادرى ماتضمرة الشياطين لمملكتى .
وغالبا مايقسم محاربى اثناء الليل وقد اثار شجاعتهم الخبرة -

يقسمون بأن يحطموا هذه الشياطين . الا انه ما ان تزحف أضواء الفجر المظيرة فوق الحقول الضبابية حتى نرى الاجساد المدماة في كل مكان . ذلك هو مصدر الاسى في حياتي ، ولن اتحدث عنه بعد هذا أبدا .

ثم اتى بطاولة خشبية كبيرة صفت عليها الوان الطعام ، بينما كنت أسأل هرغر مامعنى كلمة « الشياطين » التى ردها الملك . غضب هرغر وهددنى بعنف ان انا سألته اى سؤال آخر .

في ذلك المساء اقيمت حفلة كبرى ترأسها الملك روثغار وملكته ويليو التى كانت ترتدى ثوبا يتلالا بالاحجار الكريمة والذهب . ترأس الملك والملكة احتفال النبلاء والمحاربين في مملكة روثغار . هؤلاء المحاربون كانوا قوما تافهين حقيرين ، كانوا رجلا مسنين كثيرى الشراب ، كما ان الكثيرين منهم كانوا كسبيين او جرحى . وفي عيني كل منهم كانت تسكن نظرة خوف فارغة ، وكان هناك فراغ وعقم في فرحتهم ايضا .

ثم كان هناك الابن المسمى وغلف ، الذى تحدثت عنه سابقا ، وهو ابن روثغار الذى قتل ثلاثة من اشقائه . كان هذا الشاب صغير السن رشيق القوام ذا لحية شقراء وعينين لم تكونا تستقران على شيء بل تقفزان باستمرار من شيء الى آخر ومن مكان الى آخر ، كما أنه لم يكن لينظر الى احد ينظر في وجهه أبدا . رآه هرغر فقال : « انه ثعلب » . وعنى بذلك أنه زئبقى متغير متلون وداهية ماطر ، لان أهل الشمال يعتقدون أن الثعلب حيوان يستطيع أن يتخذ اى صورة يريد .

وفي منتصف هذه الاحتفالات ارسل روثغار مناديه الى ابواب قاعة هاروت ، فعاد هذا المنادى ليخبره بأن الضباب لن يحل في ذلك المساء . فعمت الفرحة الكبيرة لدى سماع الخبر بأن المساء سيكون صافيا ، وسر الجميع الا وغلف .

وفي لحظة معينة نهض وغلف على قدميه وقال ، « انى اشرب نخب ضيوفنا ، وخاصة بيولف ، وهو المحارب الشجاع الحق الذى اتى لمؤازرتنا في وقت المحنة - رغم انها قد تثبت انها مفضلة

سينستحيل عليه حلها . « همس هرغر بهذه الكلمات في اذني ، فادركت انها كانت مديحا واهانة في نفس الوقت .

التفتت كل العيون الى بيولف انتظارا لجوابه . وقف بيولف ونظر الى وغلف ثم قال : « لست اخاف من اى شئ على الاطلاق ولا حتى من الشيطان الغر الذي يزحف ليلا ليقتل الناس اثناء نومهم . » ادركت من هذا انه يشير الى « الوندول » ، لكنى رايت وجه وغلف ينقلب شاحبا ويده تقبض بشدة على الكرسي الذي كان يجلس عليه . « هل تقصدنى انا ؟ » صاح وغلف بلسان مرتجف . فاجاب بيولف بما يلى : « كلا ولكنى لا اخافك ابدا كما لا اخاف وحوش الضباب » .

واستطرد الشاب وغلف متحمدا مع ان الملك روثغار دعاه للجلوس . خاطب وغلف كل النبلاء الحاضرين قائلا : « ان بيولف هذا ، والذي وصل الينا من شواطئ اجنبية بعيدة ، يملك كما هو واضح فخرا عظيما وقوة اعظم . الا اننى ربت الامر لامتحان حماسه ، اذ كثيرا ما يعنى الصلف والخيلاء عيني اى انسان » .

في هذه اللحظة رايت محاربا قويا كان يجلس الى الطاولة قرب الباب خلف بيولف ، رايته ينهض بسرعة ليستل رمحه ويفرزه في ظهر بيولف . حدث كل هذا في اقل من الوقت اللازم لشهقة . التفت بيولف رافعا رمحه ثم غرزه في صدر المقاتل رافعا اياه على سارية الرمح فوق راسه ثم ضربه بالحائط . وهكذا تسمم المحارب في الحائط بواسطة الرمح بينما قدماء تتدليان فوق الارض وهو يرفس بهما . كان قضيب الرمح مدفونا كله في جدار قاعة هاروت ، وقد مات المحارب دون ان ينطق بحرف .

الفصل الثالث عشر

حدثت الان ضجة كبيرة حين التفت بيولف مواجهها وغلف ثم قال « هكذا ساقضى على كل شر » ثم تحدث هرغر بصوت جهير موجها عدة اشارات الى . شعرت بالاضطراب بسبب هذه الاحداث ، وفي الحقيقة كانت عيناه مثبتتين على ذلك المحارب الميت المسمر الى الجدار . ثم التفت هرغر الى وقال باللاتينية « عليك ان تغنى اغنية

لبلاط الملك روثغار : فالكل يرغب في ذلك . « سألته « وماذا أغنى؟
لست أعرف ولا أغنية . « فأجاب بما يلي « عليك أن تغنى شيئاً يسر
القلب . « ثم أضاف « لا تقل شيئاً عن الهك الواحد ، فليس هنا
من يهتم . « وفي الحقيقة لم اكن أعرف ماذا أغنى ، فلم اكن مغنياً
في حياتي . مضى وقت محرج بينما الكل يحدقون بي ثم عم القاعة
صمت كامل . وهنا قال لي هرغر « غن أغنية ملوك وبطولات في
المعارك . « قلت اننى لا أعرف مثل هذه الاغنيات ولكنى أستطيع
ان أحدثهم بقصة خرافية والتي كانت تعتبر في بلادى مضحكة مسلية .
قال انى احسنت الاختيار ، فأخبرتهم - الملك روثغار وملكنه ويلىو
وابنه وغلف وكل النبلاء والمحاربين المجتمعين - بقصة حذاء أبى
القاسم الطنبورى التى يعرفها الجميع . تحدثت بارتياح وكنت ابتسم
طيلة الوقت ، وقد سر الشماليون في بادئ الامر وضحكوا وضربوا
على بطونهم . ولكن فجأة وقع مايلى . بينما كنت مستمر فى حكايتى
توقف الشماليون عن الضحك وانقلبوا بالتدرج الى حالة من البؤس
والتجهم . وما ان انهيت حكايتى حتى انقطع الضحك نهائياً وكان
هناك صمت قاتل .

قال لي هرغر « ربما كنت لاتعرف ذلك ، ولكن هذه حكاية لا تدعو
الى الضحك ، وعليك الان أن تصلح مايمكن اصلاحه « ، وبعدها
تحدث حديثاً اعتقد انه كان نكتة القيت على حسابى فسببت ضحكا
بين الجميع وعاد الجميع يتمتعون بحفلتهم .

(قصة حذاء أبى القاسم قديمة فى الثقافة العربية وكانت معروفة
لابن فضلان ولمواطنيه من اهل بغداد .

هذه القصة تروى بأشكال مختلفة ، ويمكن سردها مقتضبة أو
مطولة حسب حماس الراوى . وهى باختصار تحكى حكاية أبى
القاسم ، وهو تاجر غنى وبخيل يرغب بأن يخفى حقيقة غناه لكي
يعقد صفقات اكبر وافضل فى تجارته . وليوحي بمظاهر الفقر ،
فانه يرتدى زوجاً من الاحذية قمىء بائس قديم أملاً بأن يضلل
الناس ، لكن حيلته مكشوفة ، اذ بدلاً من ذلك يعتقد الناس حوله
بانه سخيف وان تصرفاته منافية للعقل .

وفى أحد الايام يعقد أبو القاسم صفقة رابحة فى تجارة الزجاج ،

فيقرر ان يحتفل ليس كما جرت العادة بدعوة اصدقائه الى حفلة كبيرة وانما بدعوة نفسه شخصا الى ترف زيارة الى الحمام العمومي . يترك ثيابه وحذاءه في الغرفة الخارجية ، فيعائنه صديق له بارتدائه حذاء باليا غير مناسب لمقامه . يجيبه ابو القاسم بان الحذاء مازال فيه روح ، ثم يدخل الحمام مع صديقه . وبعد قليل يصل قاض كبير الى الحمام ويخلع ثيابه تاركا وراءه حذاء فخما . في تلك الاثناء يقادر ابو القاسم الحمام فلا يجد حذاءه القديم بل يجد مكانه حذاء جديدا جميلا ، وظنا منه بانه هدية من صديقه فينتعله ويقادر الحمام .

وحين يقادر القاضي الحمام يكتشف اختفاء حذائه ، ولا يجد سوى حذاء مهترئ بالئس يعرف الجميع انه حذاء البخيل ابي القاسم . يفضب القاضي ، ويتوزع الخدم في كل أرجاء بغداد بحثا عن الحذاء المفقود ، وسرعان مايجدونه في قدمي اللص الذي يؤتى به الى المحكمة ليقف امام القاضي ويفرم غرامة باهظة .

ويندب ابو القاسم حظنه ، وما ان يعود الى البيت حتى يلقى بحذائه المشوم خارج النافذة حيث يسقط في نهر دجلة المليء بالطين . وبعد عدة ايام يخرج بعض الصيادين شبابهم فيجدون مع السمك حذاء ابي القاسم ، ويجدون ان مسامير الحذاء قد قطعت شبابهم فيقذفون الحذاء المشيع بالطين والماء بغضب باتجاه احدى النوافذ المفتوحة فيصادف ان تكون تلك النافذة نافذة ابي القاسم فيسقط الحذاء على الاواني الزجاجية المشتراة حديثا ويحطمها جميعا .

ويتحطم قلب ابي القاسم ويحزن كما يحزن اى بخيل عفن . فيقسم يمينا بالا بصيبه الحذاء اللعين باى اذى بعد الان ، وللتأكد من ذلك ، يذهب الى حديقة ومعه مجرفة حيث يدفن الحذاء . ويحدث ان جار ابي القاسم يراه وهو يقوم بالحفر ، وهو عمل وضيع لا يليق الا بخادم . عندها يقول الجار لنفسه : ان كان صاحب البيت يقوم بهذا العمل القدر بنفسه فلا بد ان يكون من اجل دفن كنز كبير . فيذهب الجار الى الخليفة ويقص على الخليفة قصة ابي القاسم ، اذ طبقا لقوانين البلاد فان اى كنز يكتشف في البلاد فانه يصبح ملكا للخليفة .

يستدعى أبو القاسم الى حضرة الخليفة ، وحين يبلغ بأنه لم يدفن الا زوجا من الاحذية البالية يضحك الحاشية مقهقهين لاكتشاف محاولة التاجر أن يخفى هدفه الحقيقي وغير الشرعى . يغضب الخليفة اذ يجروا احدهم على الظن بأنه من الحق بحد يمكن معه أن تنطلى عليه كذبة كهذه فيضاعف لهذا حجم الغرامة . ويصناب أبو القاسم بصدمة شديدة حين يصدر الحكم ولكن لا مفر له من الدفع .

ويصمم أبو القاسم مرة أخرى على التخلص من حذائه مرة وإلى الابد . ولكي يتأكد من استحالة وقوع مشاكل جديدة فإنه يقوم برحلة خارج المدينة ويلقى بالحذاء فى بركة بعيدة ويظل يراقبه حتى يفرق ثم يعود راضيا . ولكن تلك البركة تغدق قنوات الماء التى تشرب منها المدينة كلها واخيرا يسد الحذاء الانابيب . ويكتشف الحرس الذين يذهبون لازالة العائق - يكتشفون الحذاء ويميزونه بسهولة ، لان كل الناس الان صاروا يعرفون حذاء هذا البخيل سيء السمعة . ويستدعى أبو القاسم مرة أخرى الى حضرة الخليفة بتهمة تلويث مياه المدينة وتكون غرامته هذه المرة اعظم من كل سابقتها كما يعاد الحذاء اليه .

ثم يقرر أبو القاسم أن يحرق الحذاء ، وحيث انه مازال رطبا ندبا فإنه يضعه على الشرفة ليجف . فيراه كلب ويبدأ باللعب به . وهنا تسقط احدى فردتى الحذاء من بين فكي الكلب الى الشارع تحته ، حيث تصيب امرأة كانت تمر فى الشارع فى تلك اللحظة كانت المرأة حاملا فسببت قوة اللطمة اجهاضا . يتوجه زوجها الى المحكمة ويطالب بالتعويض عن الاضرار ، فيحكم له بها وبسخاء ، ويجبر أبو القاسم الذى اصاب بالافلاس والدمار على الدفع .

ان ماتوحى به هذه القصة العربية هو ماتستطيع الشرور ان توقعه بانسان ما لا يغير حذاءه فى الوقت المناسب الا أنه لاشك ان هناك معنى ضمنيا أعمق بكثير فى هذه الحكاية : الا وهو فكرة الانسان الذى لا يستطيع ان يثور على قدره وهذا هو ما اقلق الشماليون بالفعل)

وهكذا مضى الليل مأبين مرح وطرب واحتفالات ، ومتع محاربو بيولف انفسهم بالنساء بطريقة اباحية مطلقة . وقد رايت وغلف

الابن يحرق بيولف قبل مغادرة القاعة ، لكن بيولف لم يعرفه أى اهتمام مفضلا الاستمتاع بالاماء والجوارى والاستمتاع بالنساء الحرات . وبعد وقت غلبنى النعاس فنامت .

وفى الصباح استيقظت على صوت المطارق ، وحين اطلت من قاعة هاروت الكبرى رايت كل شعب مملكة روثغار يعملون بجد فى بناء الدفاعات . وقد كانت هذه الدفاعات تبنى بطريقة بدائية : كانت الخيول تجر اعدادا من اعمدة السياج التى كان المحاربون يقومون بتقليم رءوسها حتى تصبح مدية . وكان بيولف نفسه يوجه اوامره بتحديد مواقع بناء الدفاعات وذلك بوضع علامات على الارض برأس سيفه . لم يستعمل لهذا الغرض سيفه العظيم رندنج ، ولكنه استعمل سيفا آخر ، ولم ادر ان كان هناك سبب لهذا التصرف .

وعند منتصف النهار ، وصلت الحزبون المسماة بملاك الموت (١) والقت بالعظومات على الارض متممة تفتحات غامضة فوقها ، ثم اعلنت ان الضباب لابد ان فى ذلك المساء . ولدى سماع بيولف لهذا امر بايقاف كل اعمال البناء وبدأ الاعداد لوليمة كبرى . وقد شارك الكل فى هذه المهمة بعد ان اوقفوا كل جهودهم الاخرى . سالت هرغر عن سبب اقامة تلك الوليمة ، فأجابنى باننى اسأل أسئلة كثيرة لا داعى لها . كان ذلك صحيحا كما كان صحيحا ايضا اننى اسات اختيار الوقت لالقاء هذا السؤال لان هرغر كان فى تلك اللحظة يقف امام فتاة شقراء جميلة يقارلها بينما كانت تبتسم بحرارة وهى تنظر الى .

فى اواخر ذلك النهار ، استدعى بيولف اليه كل محاربيه وقال لهم ، « استعدوا للمعركة » وقد قبلوا المهمة وتمنوا الحظ السعيد لبعضهم البعض ، بينما كانت تجهز الوليمة الكبرى فى كل مكان حولنا .

(١) ملاك الموت هذه ليست هى نفسها التى كانت مع الشماليين على سفاف الفولفا واضح ان لكل قبيلة امراء عجوزا يقوم بوطيفة التنبؤ واعمال السحر الاخرى . يطلق عليها اسم « ملاك الموت » . فالاسم على هذا هو اسم نوع او تمييز يدل على النوع .

الفصل الرابع عشر

كانت وليمة المساء كبيرة الشبه بوليمة الليلة السابقة ، رغم ان عددا اقل من نبلاء ووجهاء روثغار كان حاضرا . وفي الحقيقة علمت أن كثيرا من النبلاء لن يحضروا الوليمة خشية وتحاشيا لما كان سيقع في قاعة هاروت تلك الليلة ، اذ بدا واضحا أن ذلك المكان كان مركز اهتمام الشيطان في تلك المنطقة ، الذي كان يطمع بقاعة هاروت أو بشيء شبيه آخر - ولكنى لم استطع ان اتأكد من المعنى .

لم تثرنى حفلة ذلك المساء بسبب خوض من الاحداث القادمة . وعلى كل حال فقد وقعت الحادثة الآتية . كان أحد كبار النبلاء سنا يتكلم بعض اللاتينية ، كما كان يتكلم بعض اللهجات الاندلسية ، لانه كان قد سافر الى بلاد خلافة قرطبة وهو شاب . تحدثت الى ذلك النبيل ، وفي تلك الظروف وجدت لزاما على أن ادعى معرفة لم اكن ادرکها كما ستعرفون بعد قليل .

حدثنى النبيل فقال : « اذن فانت هو الاجنبى الذى سيكون رقم ١٣ ؟ » فأجبت بآنى هو . فقال الرجل المسن « لابد وأن تكون فائق الشجاعة ، واننى احببك احتراما لهذه الشجاعة » واجابة على هذا رددت باستجابة مهذبة بسيطة لشعورى بآنى كنت جانا بالمقارنة بالآخرين من رجال بيولف ، والذى كان هو الصحيح فى الواقع .

« هذا ليس مهما » قال النبيل الشيخ معلقا ، وقد أسكرته خمرة تلك المقاطعة - وهى مشروب قمى يسمونه (ميد) ولكنه مشروب قوى - « ولكنك مع هذا رجل شجاع لمجاهتك الوندول » .

احسست الان اننى قد استطعت فى آخر المطاف أن اتعلم بعض الامور الهامة . أعدت على مسامع هذا الشيخ قولا من أقوال الشماليين كان هرغر قد قاله لى مرة ، قلت « الحيوانات تموت ، والاصدقاء يموتون ، وانا سأموت ، ولكن شيئا واحدا لن يموت ابدا ، الا وهى السمعة التى نخلقها وراءنا بعد موتنا » .

لدى سماعه هذا الكلام فوق الشيخ العجوز من فم خال من الاسنان ، فقد سره كثيرا أن يرى اننى كنت أعرف مثلا شعبيا

شماليا . قال « تلك هي الحقيقة ، ولكن الوندول لهم شهرة
ايضا » . فاجبته بأقصى حدود اللامبالاة : « حقا ؟ لم أكن أدرك
ذلك » .

اجابني الشيخ بقوله اني كنت اجنبا ، وانه لهذا يوافق على ان
ينورني ، فقص على مايلي : الاسم (وندول أو وندون) هو اسم قديم
جدا قدم اى شعب من شعوب بلاد الشمال ، وهو يعنى (الضباب
الاسود) . وبالنسبة لاهل الشمال فان هذا يعنى ضبابا ياتى تحت
جنح الظلام بشياطين سوداء تصرع وتقتل وتاكل لحم الكائنات
البشرية (١) . وهؤلاء الشياطين غزرو الشعر كرهو الملمس والرائحة

(١) من الواضح ان الاسكندنافية كانوا اكثر تأثرا وخوفا من خلسة ولؤم ووحشية
هذه المخلوقات اكثر من خوفهم من كونها آكلة لحوم البشر ويعتقد جتسن ان اكل
لحوم البشر قد يكون رهيبا مرعبا بالنسبة لاهل الشمال لانه اكل لحوم البشر يجعل
الدخول الى عالم الخلود بعد الموت (قال هالا) اكثر صعوبة . ولكن ليس هناك اى
دليل على صحة هذا الرأى .

وعلى كل حال فانه بالنسبة لابن فضلان والملاحه الواسع ربما كانت فكرة اكل لحوم
البشر تنفسم او توحي ببعض الصعوبات فى الحياة الاخرى او فى حياة الخلود .
واكل الاموات هو مخلوق معروف جيدا فى الاساطير المصرية ، وهو على شكل وحش
مخيف له رأس تمساح وجذع اسد وظهر فرس النهر . واكل الاموات هذا يلتهم
الاشراذ بعد حسابهم .

ومما يستحق الذكر انه بالنسبة لمعظم تاريخ الانسانية فان اكل لحوم البشر كجزء
من العقيدة الدينية ، بشكل او بآخر والسبب ما او لآخر لم يكن امرا نادرا كما لم
يكن امرا بارزا . فانسان يكين وانسان نياندرتال كانا بالتاكيد من آكلة لحوم البشر ،
وكذلك كان ايضا وبأوقات مختلفة السكاثيون ، والمصينيون ، والايرولنديون ، وأهل
اليو وسكان جزر الماريانا ، والجاغا ، والمصريون ، والاستراليون الاصليون ،
والموار ، واليونانيون و **Hurons** والمراقيون وقبائل اليونا والاشانتى .
وفى الفترة التى كان ابن فضلان خلالها فى اسكندنافيا كان تجار عرب آخرون قد
وصلوا الى الصين ، حيث سجلوا وكتبوا ان لحم البشر - والذى كان يشار له باسم
لحم الطائر ذى الرجلين - كان يباع فى الاسواق وبشكل مكتشف وقانونى .

ويعتقد مارتنش ان الساميين وجدوا فى اكل لحم البشر من قبل الوندول امرا متفرا
ومتفرا لانهم كانوا يعتقدون ان النساء كن يأكلن لحم المقاتلين الابطال ، وخاصة ام
الوندول الكبرى . ليس هناك من دليل على صحة هذا الرأى ايضا ولكن مجرد احتماله
يجعل مية مقاتل شمال بهذه الطريقة اكثر عارا وشبلا .

وهم قساة ماكرون ، لا يتكلمون أى لغة من لغات البشر ومع ذلك فانهم يتحدثون فيما بينهم . وهم يأتون مع ضباب الليل ويختفون عند طلوع النهار أما الى أين يذهبون فلم يجزؤ ابن امرأة يوما أن يتبعهم . »

وأضاف المعجوز يحدثنى فقال : « يمكنك أن تتعرف على المناطق التى يسكن فيها شياطين الضباب الاسود وذلك بطرق عديدة . فمن وقت لآخر قد يصطاد المحاربون الفرسان ايلًا بواسطة الكلاب بعد مطاردته عبر التلال والوديان وخلال اميال عديدة من الغابات والأرض العراء . حتى اذا وصل الابل الى مستنقع رطب رتراق ضحل توقف عن الجرى مفضلا أن تقطعه كلاب الصيد اربا على أن يدخل الى ذلك المكان الكريه . وبهذا الشكل نتعرف على المناطق التى يعيش فيها الوندول ونعرف ايضا أنه حتى الحيوانات لا تجرؤ على الدخول الى ذلك المكان .

أظهرت دهشة عظيمة حين سماعى هذه القصة ، وما ذلك الا لاستدرج الرجل المعجوز لزيد من الحديث . وفي تلك اللحظة رأتى هرغر فرمانى بنظرة لئيمة لكنى لم اعره أى انتباه .

استطرد الشيخ قائلا : « فى قديم الايام كان كل أهل الشمال وفى كل أصقاعهم يخافون الضباب الاسود . ولكن منذ ايام أبى وجدى وجد أبى قبله لم يرا شمالى الضباب الاسود أبدا ، وينظر اليها المحاربون الشباب على أننا مجانين أو حمقى حين نتذكر الحكايا القديمة عن الرعب والجزع الذى كان الوندول يسبونه . الا أن زعماء الشمال فى كل ممالكهم حتى فى التروج ، كانوا دائما يتوقعون عودة الضباب الاسود . وكل مدننا وقلعنا محمية ومحصنة من ناحية البر . ومنذ ايام أبى وجدى وجد أبى يقوم الناس بهذه الاعمال والتحصينات ولكننا لم نر الضباب الاسود أبدا . أما الآن فقد عاد اثينا » .

استفسرت عن سبب عودة الضباب الاسود ، فخفض صوته وهو يقول مجيئا : « لقد عاد الضباب الاسود بسبب صلف وخيلاء وضعف روثغار الذى أساء الى الالهة بتباهيه الاحمق فحرض الشياطين وأغراهم ببناء قاعته الكبرى فى الموقع الذى اختاره والذى

لا يتمتع بأى حماية من ناحية البر . وروثغار اليوم مسن هرم وهو يعلم علم اليقين بأنه لن يذكر بمعارك خاضها أو ربحتها ، ولهذا بنى هذه القاعة الفخمة التى أصبحت حديث الدنيا بأكملها وأرضت غروره وخيلاءه . ان روث غار يتصرف كاله ، ولكنه انسان ولهذا بعثت الالهة بالضباب الاسود ليصعقه وليعلمه معنى التواضع .

قلت لهذا الشيخ الهرم انه ربما كان اهل المملكة يكرهون روثغار. فأجاب قائلا : « ليس هناك من رجل فاضل الى حد الخلو من كل الشرور ، كما انه ليس هناك من رجل شرير الى حد لايساوى معه شيئا . ان روثغار ملك عادل ولقد ازدهر شعبه ابان حياته . وان حكمه وغنى حكمه هما هنا ، فى قاعة هاروت وهما حقاً رائعان ، أما خطيئته الوحيدة فهى انه نسى أن يبنى دفاعاته لان عندنا قولا مفاده : « لايجوز لرجل أن يخطو خطوة واحدة بعيدا عن أسلحته . » وروثغار بلا سلاح وهو فاقد الاسنان ضعيف ولهذا يسرح الضباب الاسود ويمرح حرا فوق أرضنا . »

تمنيت لو يحدثنى باكثر من هذا ، لكن الشيخ الهرم سرعان ماشعر بالتعب وابتعد عنى ، ورايته يفغو بسرعة . وأقول الحق بأن طعام وشراب روثغار كان كثيراً بالغ الكرم ، وقد أصيب العديد من النبلاء والوجهاء بالنعاس لكثرة ما أكلوا وشربوا .

أما عن طاولة روثغار نفسه فاليكم ما رأيت عليها : كان كل رجل جالس اليها قد وضع امامه غطاء طاولة وصحن وملعقة وسكين ، أما الوجبة فكانت لحم خنزير وماعز مطبوخ ، كما كان هناك بعض السمك ايضا ، لان الشماليين كانوا يفضلون اللحم المطبوخ على المشوى . وكان هناك الملقوف والبصل بكميات هائلة ، كما كان هناك تفاح وجوز . وقد اعطيت لى قطعة لحم محلاة دسمة لم اذقها من قبل . قيل لى انها لحم غزال .

الفصل الخامس عشر

أما الشراب الكريه المسمى (ميد) فانهم يصنعونه من العسل ثم يخمرونه . وهو اشد مادة صنعها انسان سوادا وحموضة وقدارة، ولكنها رغم كل ذلك مبعث قوة وعزيمة لاتعترف الحدود ، فما أن

يشرب الواحد بضع كئوس حتى يدور العالم به ويدوخ . ولكننى لم أشرب والله الحمد .

وقد لاحظت الان ان بيولف ورفاقه لم يشربوا تلك الليلة وان شربوا فلعلما ، ولم يعتبر روثغار ذلك اهانة له ، بل اعتبره منطق الامور الصحيح . لم يكن هناك اى ريخ تلك الليلة حتى قناديل ومشاعل قاعة هازوت لم ترتعش ، ومع ذلك فقد كان المساء رطبا وقارس البرودة . ولقد رايت بأم عيني ان الضباب خارج الابواب كان يتدحرج هابطا من على التلال فيحجب ضوء القمر الفضى ويجعل كل شئ بالسواد . وبينما كانت حفلة المساء مستمرة غادر الملك روثغار وملكته القاعة ليناما ، بينما اغلقت واوصدت ابواب قاعة هازوت بواسطة القضبان الحديدية اما النبلاء والوجهاء الذين بقوا هناك فقد سقطوا فى نوبة من النوم السكران وراحوا يشخرون باصوات عالية .

اما بيولف ورجاله ، وكانوا لا يزالون مرتدين دروعهم ، فقد راحوا يتجولون فى القاعة يصلحون من القناديل ويصلحون النار لكى تشتعل ببطء ويضعف . سألت هرغر عن معنى كل هذا ، فطلب الى ان اصلى وادعو لنجاتى ، وان انتظر بالنوم . ثم اعطيت سلاحا كان عبارة عن سيف قصير ولكنه لم يمنحنى من الراحة الا القليل ، فما كنت يوما محاربيا وانا اعرف ذلك حق المعرفة .

وهكذا تظاهر كل الرجال بالنوم ، حتى بيولف ورجاله تعددوا بجانب اجساد نبلاء الملك النائمة والذين كانوا يشخرون بعمق . لا ادرى كم مضى علينا من الوقت ونحن ننتظر لاننى اعتقد اننى قد سهوت بعض الوقت . وفجأة استيقظت وانا بحالة من التنبه والفرع غير الطبيعيين . لم اكن نعسانا ولكننى كنت متنبها متوترا الى ابعد الحدود ، بينما كنت لازال مضطجعا على القماش المصنوع من جلد الدب على ارض القاعة الكبيرة . كانت ليلة مظلمة حالكة السواد ، وكانت القناديل فى القاعة تحترق بضوء هزيل ، بينما كانت نسمة ناعمة خفيفة تهمس وهى تتسلل الى القاعة وتراقص اللهب الاصفر . ثم سمعت صوت دمدمة خفيض وكأنه عواء خنزير حملته الى النسمة ثم شممت رائحة كريهة مؤذية كأنها رائحة جثة متعفنة مضى

على موتها شهر من الزمان ، وشعرت بالخوف الشديد . هذا الصوت المدمم المزع ، ولا أجد له وصفا خيرا من هذا ، هذا الصوت المهم المدمم الشاخر بدأ يعلو شيئا فشيئا وبدأت تشتد ثورته . كان يأتى من خارج الابواب من أحد جانبي القاعة . ثم أتى من الجانب الآخر ثم من الجانب الثالث ثم الرابع . وفي الواقع كانت القاعة مطوقة تطويقا كاملا . جلست متكئا على أحد كوعى وقلبي يدق كمطرقة ، ثم نظرت فى أنحاء القاعة . لم يتحرك أى من المحاربين النائمين ، لكن كان هرغر مستلقيا بجانبى وعيناه مفتوحتان . ثم رايت بيولف أيضا يتنفس بعمق متصنعا الشخير ، بينما عيناه مفتوحتان استنتجت من هذا كله أن كل مقاتلى بيولف كانوا بانتظار المعركة مع الوندول الذين كانت أصواتهم الآن تملأ الجو فى الخارج .

ليس هناك والله خوف اعظم من خوف الانسان حين لا يعرف السبب . ترى كم مضى على وأنا مستلق فوق جلد الدب اصغى الى همهمة الوندول واستنشق رائحتهم الكريهة ! وكم مضى على انتظر ما لا اعرف ماهو : ربما بداية معركة اكثر ارهابا فى الخيال مما هى عند النزال ! وهنا تذكرت مايلى : وهو أن أهل الشمال يرددون دائما قول المديح الماثور الذى يحفرونه على قبور نبلأ المحاربين ، والذى يقول « انه لم يهرب من معركة يوما » وفى الحقيقة لم يهرب تلك الليلة أى من رفاق بيولف رغم أن الاصوات والروائح العفنة كانت تحيط بهم من كل جانب ، ترتفع حيننا وتنخفض حيننا آخر ، وحيننا تاتى من هذه الجهة وحيننا من تلك . ورغم ذلك فقد انتظروا وانتظروا .

ثم جاءت اشد اللحظات ربعا . توقفت كل الاصوات وساد صمت رهيب لم يكن يقطعه الا شخير الرجال وعصعصه النار الهامسة . وحتى الآن لم يأت أى من رجال بيولف بأقل حركة .

وفجأة جاء صوت تحطم هائل على ابواب قاعة هاروت الصلب ثم انفتحت هذه الابواب وكأنها عاصفة . تبع ذلك دفقة من الهواء الممن اطفا كل الانوار ثم دخل الضباب الاسود . لم استطع عددهم ، ولكنهم كانوا يبدون وكأنهم آلاف مؤلفة من اشكال سوداء مدممة ، ورغم ذلك فقد لا يكونون اكثر من خمسة أو ستة من اشكال سوداء

ضخمة لا يكادون يشبهون الرجال ، ومع ذلك فقد كانوا أشباه رجال .
وعقب الجو برائحة الدم والموت ، وأحسنت بيرد يذهب بالعقل
وارتجفت . ورغم كل ذلك فلم يتحرك مقاتل واحد .

ثم وبصرخة تجمد الدم في العروق وكافية لابقاظ الموتى قفز بيولف
واقفا وهو يلوح بذراعيه السيف الهائل رندنج الذى كان يدوى
كالسنة اللهب المتأججة وهو يقص الهواء . وقفز كل محاربيه معه
وانضموا الى المعركة . واختلطت صيحات الرجال بهمهمات الخنازير
وروائح الضباب الاسود ، وكان هناك رعب وفوضى وتخريب
وتمزيق في كل مكان من القاعة الكبيرة .

اما فيما يتعلق بى فلم يكن لى رغبة في القتال ، ومع ذلك سقط
على احد هذه الوحوش الضبابية الذى كان قريبا منى الى حد رايت
بريق عينيه الحمراوين - وفي الحقيقة رايت عينين تشعان كالنار ،
ثم شممت رائحة العفن ثم رفعت كلى في الهواء وطوح بى عبر القاعة
ثم القيت كما يلقى طفل حصة . ارتطمت بالجدار وسقطت على
الارض ، ثم اصابتنى غيبوبة لبضع لحظات تالية فبدا كل ما حور
مضطربا فوضويا اكثر مما كان حقيقة اراها . استمرت المعركة من
لا اعرف طولها ولكنها انتهت نجاة وبرمشة عين ثم اختفى الضباب
الاسود هكذا وانسل مبتعدا وهو يدمدم ويلهث تاركا وراءه روائح
الكريهة ومخلقا وراءه ايضا الدمار والموت الذى لم يستطع ان نحدد
مداه حتى اضانا مشاعل جديدة .

واليكم وصفا لما جرى في المعركة : بالنسبة لجماعة بيولف فقد
مات منهم ثلاثة ، وهم رونت وهلفا ، وهما نيلان ، وادغثو وهو
محارب . اما الاول فقد شطر صدره شطرين ، واما الثانى فقد
كسر عموده الفقرى اما الثالث فقد قطع راسه بالطريقة التى وصفتها
سابقا . كل هؤلاء المحاربين أصبحوا الآن موتى .

كما جرح اثنان آخران ، هما هلتف ورثل وقد فقد هلتف احدى
اذنيه وفقد رثل اصبعين من كفه اليمنى . ولم تكن جراحهما خطيرة
كما لم يعبرا عن اية شكوى او ألم . لانه من عادة رجال الشمال ان
يتحملوا آلام جراح الممارك بمرح ، وان يمجدوا فوق كل شيء بقاء
الحياة .

أما بالنسبة لبيولف وهرغر والآخرين فقد كانوا غارقين بالدماء ، كما لو كانوا قد استحموا فيها .

أما الآن فسأروى ما لن يصدقه الكثيرون . ومع هذا فقد وقع : لم تقتل جماعتنا أيا من وحوش الضباب إذ انسلوا جميعا هاربين وربما مجروحين جراحا بليغة ومع ذلك فقد هربوا جميعا .

هذا مقالته هرغر : « لقد رأيت اثنين منهم يحملان ثالثا كان ميتا » . ربما كان الأمر كذلك لأن الكل وافقوه عليه . وقد علمت بأن وحوش الضباب لا تترك أيا من أفرادها لاقوام البشر وهم يفضلون أن يتعرضوا لمخاطر جسيمة مقابل أن يستعيدوه من أيدي البشر . كما أنهم يرضون بتحمل المشاق الطويلة لكي يحتفظوا برأس ضحيّتهم ، ولذلك لم نجد رأس ادغثو في أي مكان فقد حملته الوحوش معهم .

ثم تحدث بيولف وترجم هرغر كلماته لي على النحو التالي : « انظروا لقد احتفظت بتدكار لامجاد الليلة الدامية . انظروا هاهي ذراع أحد الشياطين » .

وتصديقا لكلماته رفع بيولف ذراع أحد وحوش الضباب وقد برتت من الكتف بقوة ضربة السيف العظيم رندنج . تجمع كل المحاربين حوله ليتفحصوا الذراع وقد تراءى لي على الشكل التالي : بدا صغيرا له كف كبيرة الحجم مما يفوق حدود الطبيعة إلا أن العضد والساعد كانا صغيرين بشكل لا يتفق وحجم الكف رغم أن العضلات كانت قوية جدا . كما كان هناك شعر أسود طويل وكثيف فوق كل أجزاء الذراع ماعدا راحة الكف . بقي أن نقول أن الذراع كانت تفيض برائحة كتلك التي كانت تنطلق من جسم كل يحش . يضاف إليها رائحة عفن وحش الضباب الأسود .

عند ذلك حى جميع المقاتلين بيولف وسيفه رندنج وعلقت ذراع الشيطان من عارضة خشبية في سقف القاعة الكبيرة . لينظر اليه بالدهشة والاستغراب كل سكان مملكة روثغار . وهكذا انتهت المعركة الأولى مع الوندول .

الفصل السادس عشر

الاحداث التى تلت المعركة الاولى

الحقيقة ان اهل بلاد الشمال لا يتصرفون ابدا كما يتصرف البشر العاقلون والمنطقيون . فبعد الهجوم الذى قامت به وحوش الضباب وبعد صدهم من قبل بيولف وجماعته ، وانا بينهم طبعا ، لم يفعل رجال مملكة روث غار اى شئ على الاطلاق .

لم يكن هناك اى احتفالات ولا ولائم ولا تظاهرات فرحة ولا تعبير عن السعادة . انما جاء شعب المملكة من قاصى الاصقاع ودانيتها ليشاهدوا يد الشيطان المعلقة التى كانت تتدلى فى القاعة الكبرى ، وقد ابتهجوا لهذا المشهد بكثير من الاستغراب والتعجب . الا ان روث غار نفسه ، ذلك الرجل الشيخ نصف الاعمى ، لم يبد اى سرور كما لم يقدم لبيولف ورجاله اى هدايا ولم يقم لهم اية ولائم ، كما لم يقدم لهم اية اماء او عبيد ، ولم يقدم لهم الفضة او الثياب الثمينة ولم يقدم اى تعبير عن التقدير والاکرام .

بل خلافا لاي تعبير عن المسرة فان الملك روث غار اظهر تقززا واشمئززا راسما على وجهه تعابير الجذ ، كما كان يبدو اكثر خوفا مما كان فى الماضى . حتى انا نفسى ، وان لم اقل ذلك بصراحة ، كنت اشك بان روث غار كان يفضل الحالة السابقة قبل ان يهزم الضباب الاسود .

حتى بيولف لم يكن حاله مختلفا عن هذا ، فلم يدع الى اى احتفالات او شراب او اقامة ولائم على الاطلاق . اما النبلاء الذين ماتوا ميتة الشجعان فى معركة الليلة الماضية فقد وضعوا سريعا فى حفر ذات سقوف خشبية فى اعلاها ، وتركوهم هناك لمدة عشرة الايام المقررة . وكان هناك تسرع فى هذه القضية .

ومع هذا لم يعبر بيولف ورفاقه عن سعادتهم الا حين بدعوا بوضع المقاتلين الموتى فى جفرهم فعندها فقط سمحوا لانفسهم بالابتسام . وبعد كل هذا الوقت الذى قضيته بين اهل الشمال

صرت أدرك أنهم يبتسمون لاي ميتة فى ساحة المعركة اذ ان هذه مسرة يعبرون عنها نيابة عن الشخص الميت وليس نيابة عن الاحياء . فهم يفرحون حينما يموت اى منهم ميتة المحاربين . وعكس ذلك صحيح ايضا بالنسبة اليهم : فهم يظهرون الالم والامتعاض حين يموت احدهم فى نومه او فى فراشه . فهم يقولون عن مثل هذا الرجل « انه مات ميتة بقرة بين القش » . وليست هذه اهانة ولكنها السبب الذى يبدونه لرثاء الميت .

ويعتقد اهل الشمال ان كيفية موت انسان هى التى تحدد وضعه فى الحياة الاخرى « حياة الخلود » ، وهم يعتبرون موت المقاتل فى المعركة اسما مراتب الموت . اما « ميتة القش » فهى ميتة مخجلة . وحين يموت اى انسان منهم فى نومه فانهم يقولون عنه انه قد خنقه « الماران » ، اى كابوس الليل . هذا المخلوق ، اى كابوس الليل ، هو امرأة ، وهو الامر الذى يجعل مثل هذه الميتة عارا مخجلا ، اذ ان الموت على يدى امرأة هو اخط الامور عندهم على الاطلاق .

وهم يقولون ايضا ان الموت بلا سلاح مهين ، ولذلك ينام المقاتل الشمالى وسلاحه دائما معه ، حتى اذا اتى كابوس الليل يكون سلاحه فى متناول يده . ونادرا ما يموت مقاتل من مقاتليهم بسبب المرض او بسبب وهن الشيخوخة . وقد سمعت بملك اسمه آن ، عاش من العمر طويلا حتى اصبح كالطفل الرضيع مرة اخرى ، لا استنان له ويعيش على طعام الاطفال ، حتى انه قضى بقية ايامه فى فراشه يشرب الحليب من قربة ועل . ولكن قيل لى ان هذا نادر وغير عادى فى بلاد الشمال . ولقد رايت بأم عيني عددا قليلا منهم فقط يعمر حتى سن الشيخوخة ، واعنى بذلك التعمير حتى بلوغ السن الذى لا تصبح اللحية فيه بيضاء فحسب بل ايضا تتساقط عن الدقن والوجه .

اما نساؤهم فكثيرات منهن يعشن حتى سن الشيخوخة خاصة تلك الحيزبون التى يدعونها ملاك الموت ، فانهم يعتقدون بان مثل هؤلاء النسوة يملكن قوى سحرية فى شفاء الجراح والقاء التعاويذ والرقية ، وفى ابعاد الانار الشريرة وفى التنبؤ عن احداث المستقبل .

ونساء بلاد الشمال لا يتقاتلن فيما بينهن أبدا ، وكثيرا ما رأيتهن يتدخلن لحل نزاع أو مبارزة بين رجلين ويطفئن الغضب المتصاعد . هذا ما يفعله خاصة إذا كان المقاتلون قد أصيبوا بالخجل بسبب السكر الشديد ، فهذا ما يحدث في العادة .

لكن هؤلاء الشماليين الذين يفرطون بشرب المسكرات طيلة ساعات الليل والنهار لم يشربوا قطرة واحدة طيلة اليوم الذي تلا المعركة . ونادرا ما كان شعب روث غار يعرض على أحدهم كأسا ، وإن حصل هذا كانوا يرفضون الكأس . وقد وجدت هذا مدعاة للاستغراب الشديد فحدثت هرغر عنه مستفسرا . هرغر كتفيه على الطريقة الشمالية في التعبير عن اللامبالاة ثم قال « الكل خائفون » وحين سألت عن سبب الخوف قال لي ما يلي : « لانهم يعلمون حق العلم ان الضباب الاسود سيعود ثانية » .

وهنا اعترف بانني أصبت للحظفة بعدوى روح العداء التي تسيطر على المحاربين ، مع اني أعلم في الواقع انني لا أستحق مثل هذه الهيئة . ولكن رغم ذلك شعرت بالطرب والفرحة الغامرة لكوني ما زلت على قيد الحياة ، ولان شعب روث غار يعاملني باعتباري واحدا من جماعة المحاربين الإبطال . قلت بشجاعة « ومن يهاب مثل هذا ؟ إذا ما عادوا ثانية فسنهزمهم مرة أخرى » .

في الحقيقة كنت مختالا مغرورا اختيال ديك حديث السن ، واني اذ اتذكر ذلك الان أحس بالخجل من مباهاة السخيفة . اجاب هرغر : « ليس لمملكة روث غار مقاتلون أو وجهاء يقاتلون : لقد ماتوا جميعا منذ وقت بعيد ، وعلينا نحن فقط ان ندافع عن المملكة . بالامس كنا ثلاثة عشر . اما اليوم فنحن عشرة ، ومن بين العشرة اثنان جريحان ولا يستطيعان ان يقاتلا كرجلين كاملين . والضباب الاسود غاضب وسينتقم انتقاما رهيبا » . قلت لهرغر الذي كان قد أصيب ببعض الجروح الطفيفة أثناء المعركة ، والتي لم تكن شديدة شدة آثار المخالب على وجهي والتي كنت اتباهى بها . قلت له انني لا اخاف شيئا يمكن لهذه الشياطين ان تفعله . اجاب باقتضاب انني عربي وانني لا افهم شيئا من عادات بلاد الشمال . ثم أخبرني بأن انتقام الضباب الاسود سيكون رهيبا .

عينيها ، ثم أضاف « انهم سيمودون كالكورغن » . لم أفهم معنى الكلمة فسألت « وماهو الكورغن ؟ » فقال لي « انه تنين الجباب ، والتي تطير هابطة في الجو » . الا ان هذا بدا لي خيالا محضاً ، ولكنى كنت قد رأيت وحوش البحر كما وصفوا لي وحوشا تعيش بتلك الصفات ، رأيت وجه هرغر الممتقع والمجهد ، فاقننت بأنه كان مقتنعا بوجود تنين الجباب . سألت « ومتى يأتى الكورغن ؟ » . اجاب هرغر « ربما هذا المساء » .

وفي الحقيقة بينما كان هرغر يتكلم رأيت ان بيولف ، رغم انه لم ينم طيلة تلك الليلة ورغم ان عينيه كانتا محمرتين مثقلتين بالاجهاد ، كان يشرف من جديد على بناء الدفاعات حول سور هاروت والبنابات الملاصقة ، والتي تشكل منسازل الملك روث غار وبعض نبلائه ، والاكوخ الوضيعة التي يعيش فيها عبيد هذه العائلات كما يعيش فيها بعض الزارعين الذين كانوا يعيشون اقرب ما يكون الى شاطئ البحر ، حول كل هذه المنطقة بنى بيولف نوعا من السياج من العصي المتصالبة وعواميد الخشب ذات الرؤوس المدببة . . ولم يكن السياج اعلى من كتف رجل ، ورغم ان هذه الرؤوس المدببة كانت حادة قاطعة مخيفة فأننى لم أستطع ان ارى او اقتنع بفاعلية هذا الدفاع لان اى رجل يستطيع صعوده على سلم بسهولة .

حدثت هرغر عن هذا فاجاب باننى لست سوى غبى . وكان واضحا انه كان يعاني من مزاج سيئ للغاية .

ثم بنوا خط دفاع آخر ، كان عبارة عن خندق خارج سياج الاعمدة ، وعلى بعد خطوة ونصف من ذلك السياج . كان هذا الخندق غريبا حقا . فلم يكن عميقا ابدا بل هو لا يكاد يفعم رجلا الى ركبتيه وأحيانا اقل عمقا . وقد تم حفره بشكل غير متناسق بحيث كان في بعض الاماكن ضحلا للقاية وفي بعضها الاخر اكثر عمقا ، تتناوب حفر صغيرة . وفي بعض الاماكن غرزت بعض العصي القصيرة فى الارض ورءوسها المدببة الى اعلى .

الا اننى عجزت عن تفهم مغزى وقيمة هذا الخندق الرديء عجزى عن فهم السياج ، ولكننى لم أسال ولم أستفسر من هرغر ، لادراكى لما كان عليه فى تلك اللحظة من سوء المزاج . ولكن بدلا من ذلك

ساهمت في أعمال البناء كأفضل ما أستطيع المساهمة ، ولم أتوقف عن العمل إلا مرة واحدة لامتنع نفسي بجارية على الطريقة الشمالية ، إذ أني نتيجة اثاره الليل الماضية والمركة التي تلت واستعدادات النهار أحسست بنشوة وقوة عظيمتين .

الفصل السابع عشر

خلال ترحالي مع بيولف ومحاربه على طول نهر الفولفا كان هرغر قد حدثني بأن النساء غير المعروفات ، وبخاصة ان كن جذابات ومثيرات جنسيا ومغريات ، لا يجوز أن يوثق بهن . وقال لي هرغر ان في أعماق الغابات والاماكن الموحشة من بلاد الشمال تعيش نساء يدعين نساء الغابات ونساء الغابات هؤلاء يغرين الرجال بجمالهن وكلماتهن المسولة ، حتى اذا ما اقترب منهن الرجل ، وجدهن بلا مؤخرة ووجد انهن لسن سوى أشباح . ثم تقوم هؤلاء النساء باسقاط سحرهن ورقيهن على الرجل الذي اغرينهن فيصبح أسيرهن .

الان وبعد أن حدثني هرغر بهذا الشكل كنت حين اقترابي من هذه الجارية خائفا مترددا ، لأنني لم أكن أعرفها . لذلك فأول ما فعلت هو أن تحسست مؤخرتها بيدي فرائتها تضحك حتى غشيت لأنها عرفت سبب تلمسي لقفاهها ، والذي كان الرغبة في أن أطمئن نفسي أنها لم تكن روحا من أرواح الغابات . وكم شعرت بأني أحمق سخيف في تلك اللحظة ، وكم لعنت نفسي بتصديق خرافات الوثنيين . الا أنني اكتشفت مع مرور الزمن أنه ان كان جميع من حولك يؤمنون بشيء ما فسرعان ما سستجد نفسك مدفوعا لان تشاركهم ذلك المعتقد ، وكان هذا ما حدث لي فعلا .

ونساء أهل الشمال نحيفات شاحبات كالرجال هنا ، وهن طويلات طول الرجال أيضا ، حتى ان الكثيرات منهن كن ينظرن الى أسفل ليرين راسي . وللنساء عيون زرقاء وشعر طويل للغاية ولكن شعرهن ناعم سهل شبكه . ولهذا فهن يعقدنه على شكل حزمة حول اعناقهن وفوق رءوسهن . وتسهلا لهذه العملية فقد صنعن لانفسهن انواعا

كثيرة من الملاقط والدبابيس مصنوعة من الخشب أو الفضة الزخرفة . وهذا ما يشكل زينتهن الرئيسية . كما أن زوجة الرجل الفنى منهم ترتدى عقدا من الذهب أو الفضة كما قدمت آنفا . والنساء مفرمات بأساور الفضة المطروقة على شكل تين أو أقمى ، يرتدينها على سواعدهن ما بين الكوع والكتف وتصاميم أهل الشمال معتدة مضفورة ، كما لو كانوا يريدون تصوير تداخل أفعسان الشجر أو التفاف الأقمى حول نفسها . وهذه التصاميم جميلة جدا .

ويعتبر أهل الشمال أنفسهم حكماء حاذقين فى الحكم على جمال المرأة . ولكن فى الواقع بدت كل نسائهم لعينى نحيلات هزيلات ، كل أجسادهن نتوءات وزوايا وكتل من العظم .. وحتى وجوههن أيضا كانت ناتئة العظام وخدودهن مرتفعة . هذه الصفات يتقدها الرجال الشماليون ويمتدحونها مع أن امرأة فيها هذه المواصفات لن تجتذب ولو نظرة واحدة فى مدينة السلام وسيُنظر إليها على أنها ليست أفضل من كلب نصف جائع بارز الأضلاع . فنساء الشمال لهن أضلاع تبرز بنفس الطريقة .

لست أدري لم النساء نحيفات الى هذا الحد ، فهن يأكلن بشراسة الرجال ، ومع ذلك فهن لا يكسبن لحما يغطى أجسادهن أبدا .

كما أن النساء لا يظهرن أى « حياء » أو أى سلوك محتشم . فهن لا يتحجبن ، كما يخلصن أجسامهن من فضلاتها فى أماكن عامة كما تتطلب الحاجة . وبنفس الطريقة يندفنن نحو أى رجل يروق لخيالهن كما لو كن هن أنفسهن رجالا . ولا يوبخهن المحاربون على ذلك أبدا . والحال هى نفسها حتى ولو كانت المرأة جارية ، لأنه كما قلت سابقا يتصرف رجال الشمال بعطف شديد ومجبة تجاه عبيدهم خاصة إذا كانوا نساء .

مع تقدم ذلك اليوم نحو نهايته رايت بشكل واضح أن دفاعات بيولف لن تكتمل مع حلول الظلام ، سواء السياج المصنوع من الأعمدة المصنوعة من أفعسان الأشجار المدببة أو الحفرة الضحلة . كما لاحظ بيولف ذلك أيضا نادى الملك روث غار والذى استدمى بدوره الحيزبون العجوز . هذه الحيزبون التى كانت هزيلة بالية

ولها لحية رجل قامت ببيع غنمة ونشر أوردها على الأرض . ثم قامت بترديد أغان غديدة استمرت مدة طويلة وتخللها الكثير من التضرع الى السماء (١) .

حتى الان لم اسال هرغر عن هذا بسبب مزاجه السيئ . وبدلا من ذلك رحت اراقب محاربي بيولف الذين كانوا ينظرون الى البحر . كان المحيط أغبر هائجا ، والسماء مليدة بالغيوم ، الا أن نسمة قوية كانت تهب نحو اليابسة . وهذا ما أشعر المقاتلين بالراحة ، وقد حلت السبب : وهو أن نسمة المحيط باتجاه اليابسة لابد وأن تمنع الضباب من الهبوط من فوق التلال . وكان تخميني صحيحا .

وعند هبوط الليل توقف العمل في الاستحکامات والدفاعات ، ولشدة حيرتي ودهشتي أقام « روث غار » وليمة أخرى فخمة رائعة ، وفي هذا المساء وبينما أنا اراقب ما يجري راح بيولف وهرغر والمحاربون الآخرون يشربون الكثير من الميد ويمرحون ويمتعون انفسهم كما لو أنهم كانوا لا يحسون بأى من هموم الدنيا ، وتمتعوا كعادتهم بالاماء والجوارى ، ثم غرق الكل في نوم رتيب عميق .

ولقد علمت أيضا ما يلى : وهو أن كلا من محاربي بيولف كان قد اختار من بين الاماء والجوارى واحدة كان يفضلها على غيرها ، رغم أنه لم يكن يستثنى الآخريات . وقد حدثنى هرغر وهو مخمور منتش عن المرأة التى كان يفضلها قائلا « انها ستموت معى اذا اقتضى الامر » . ومن هذا استنتجت أن كلا من محاربي بيولف قد اختار امرأة ستموت من أجله فوق محرقة الدفن ، وأن هذه المرأة يعاملونها

(١) ان استعمال اين فسلان لتعبير « أوردة » قد أدى لبعض الأخطاء عند الباحثين . فقد كتب ي . د . كريهم مثلا أن « الفايكنج كانوا يتنبئون بالمستقبل عن طريق طقوس تعتمد على أوردة الحيوانات وتشرها على الأرض » وهذا بكل تأكيد رأى خاطئ ، فالتعبير العربى عن تنظيف الحيوان هو « قطع الأوردة والترايب » واين فسلان هنا انما يشير الى ممارسة طقوس دينية عن طريق فحص الأوردة . واللغويون الذين يعالجون مثل هذه التعابير العامية المحلية طيلة الوقت مفرومون بتناقضات وتعارضات المعانى : والمثل المفضل لها السند هو التعبير الانجليزى المستعمل فى التحذير « انتبه » والذي يعنى عادة على المرء أن يفعل العكس تماما وأن يفتس يعضا عن ملجأ أو غطاء .

بمحة وأعزاز وتقدير أكثر من غيرها ، فهؤلاء المحاربون كانوا ضيوف المملكة ، ولم يكن لهم فيها اماء يملكونهن ويمكن أن يؤمرن بحكم القربة أن يفعلن ما يأمرونهن به .

الفصل الثامن عشر

خلال الفترة الاولى لاقامتى بين قوم الفندان كانت نساء الشمال يمتنعن عن الاقتراب منى بسبب سمرة جلدى وسواد شعرى ، ولكن كان هناك همس كثير ونظرات كثيرة تتجه منهن صوبى ، ثم كانت هناك ضحكات وقهقهات بين احداهن والاخرى . وقد وجدت أن هؤلاء النسوة السافرات كن رغم سفورهن يجعلن من أيديهن حجابا يغطى وجوههن بين وقت وآخر خاصة عندما كن يضحكن . وهنا سأله هرغر : « لماذا يفعلن ذلك ؟ » لاننى لم أكن أربغ فى أن أتصرف بطريقة مخالفة لعادات الشماليين .

وقد أجاب هرغر بهذا الجواب : « تعتقد النساء أن العرب كالخيول الاصيله ، فقد كان هذا ما سمعته يتردد اشاعة بينهن » . ولم يثر هذا استغرابى وذلك للسبب التالى : ففى كل البلاد التى تجولت فيها وحتى ضمن أسوار مدينة السلام الدائرية ، وفى كل مكان يتجمع فيه الناس ليشكلوا لانفسهم مجتمعا تعلمت أن الاشياء التالية هى حقائق صحيحة . أولا ، أن شعوب بلد ما تعتقد بأن عاداتها هى المناسبة وهى أفضل من عادات أى من الشعوب الاخرى . ثانيا ، أن أى غريب ، رجلا كان أو امرأة ينظر اليه باعتباره اقل قيمة فى كل مجال ما عدا قضية النسل والتوالد . وهكذا فالأتراك يعتقدون بأن الفرس عشاق موهوبون ، وينظر الفرس باحتقار الى البشر ذوى البشرة السوداء ، كذلك ينظر اليهم من قبل شعوب أخرى وهكذا .

ويستمر الامر كذلك ، أحيانا بسبب يقوم حول حجم الاعضاء التناسلية وأحيانا بسبب يعطى عن مدة الفعل الجنسى ، وأحيانا أخرى بسبب مهارات وأوضاع متعددة أثناء الممارسة الجنسية . لا أستطيع التاكيد أن نساء الشمال يعتقدن بحق ما قاله هرغر ، ولكنى فى الواقع اكتشفت أنهن كن شدد مندهشات بسبب ختامى وهى عادة غير معروفة بين أهل الشمال لانهم كفرة قدرون . أما عن

ساعة الحمام أو اللقاء ، فهؤلاء النساء صاحبات عثقات ، تقوح
منهن رائحة كان تضطرنى لأن أخنق أنفاسى طيلة فترة المجامعة .
كما أنهم معتادات على اعتلاء الرجل والتلوى والخدش والعض الى
درجة يحد الرجل معها نفسه وقد أطيح به من فوق من هى تحته
كما يتحدث رجال الشمال . أما فيما يتعلق به فقد وجدت كل تلك
الممارسة مصدر ألم وعذاب أكثر مما هى متعة .

وتحدث رجال الشمال عن هذا قائلين : « لقد وقعت معركة
حامية بنى وبين هذه المرأة أو تلك » وتتفاخرون باظهار العلامات
الزرقاء والاورام التى يصابون بها فى تلك المعارك لاصدقائهم أو
لرفاقهم كما لو كانت حروبا حقيقية فى معركة من المعارك . وعلى
كل حال لم يكن الرجال ليؤذون أية امرأة ابداً استطعت أن أرى
أثاره .

فى هذه الليلة وسنما كان محاربو بولف ينفذون فى سيات عميق ،
كنت خائفاً جداً من الشرب أو من الضحك ، فقد كنت أخشى عودة
الندول . ومع هذا لم يعودوا ، ووجدت نفسى أخيراً أغفو ولكن
بقلق .

وفى اليوم التالى لم تكن هناك أية ربيع ، وعمل كل شعب .
مملكة « روث غار » بجهد وإخلاص وخوف . كان هناك حديث فى
كل مكان عن « الكورغن » ، وعن حتمية عودتهم للهجوم اثناء الليل . كانت
جراح مخالب الوندول على وجهى تؤلمنى ، فقد كانت تقرصنى وهى
تتمائل الى الشفاء ، كما كانت تؤلمنى كلما حركت فمى لأكل أو
أتكلم . وأقول الحق أن عزيمة المحارب قد هجرتنى . فقد أصبت
بالخوف مرة أخرى ورحت أعمل بصمت جنباً الى جنب مع النساء
والرجال .

حوالى الظهر زارنى النبيل المسن الادرد (ساقط الاسنان) الذى
كنت قد تحدثت اليه فى قاعة الوليمة . تنحى بى جانبا وقال
يحدثنى باللاتينية : « أريد أن أقول لك بضع كلمات » . ثم قادنى
بضع خطوات بعيداً عن العمال والتحصينات .

بدأ باظهار اهتمام كبير بفحص جروحى التى لم تكن فى الواقع
خطيرة الى ذلك الحد ، وبينما كان يفحص تلك الجراح قال لى
« أريدك أن تنقل تحذيراً وانذاراً لجماعتك ، هناك ثورة وقلق فى
قلب الملك روث غار » . قال لى هذا باللاتينية .

سألت « وما السبب ؟ » قال النبيل الشيخ « انه المنادى والابن
وغلف أيضا الذى لا ينى - يهمس فى اذن الملك . ثم هناك صديق
وغلف . فوغلف يكرر على مسامع روث غار ان بيولف ورفاقه يخططون
لقتل الملك وحكم المملكة » .

« وهذا ليس صحيحا » قلت هذا رغم اننى لم اكن اعرف
الحقيقة . وبصدق كانت الفكرة تخطر على بالى من وقت لآخر ،
فقد كان بيولف شابا قويا وكان روث غار هرما ضعيفا ، وفى حين
كان صحيحا ان طرق وعادات الشماليين غريبة فانه صحيح وحقيقى
ايضا ان كل الرجال متشابهون (فالانسان هو الانسان اينما كان) .
تابع النبيل الشيخ قائلا « المنادى ووغلف ينظران بحسد الى
بيولف . وهما يستمعان الجو بالهمس الدائم فى اذن الملك . اننى
انما اخبرك بكل هذا لكى تخبر الآخرين لكى يكونوا على حذر ، فهى
قضية تناسب زواحف الخوف القاتلة » ثم أعلن ان جروحي كانت
بسيطة وغادرنى .

ثم عاد النبيل الى مرة أخرى وقال « ان صديق وغلف هو رائفر »
ثم ابتعد ثانية دون أن ينظر الى مرة أخرى .
وبجد كبير رحت احفر وأعمل فى بناء التحصينات حتى وجدت
نفسى قرب هرغر ، كان مزاج هرغر ما زال كئيبا كما كان فى اليوم
السابق . حبانى بهذه الكلمات : « لا اريد ان اسمع أسئلة مجنون » .
قلت له انه ليس لدى أية أسئلة أطرحها ، ثم حدثته بما أخبرنى
به النبيل الشيخ ، وأضفت قائلا بأنها قضية ثلاث زواحف الخوف
القاتلة (١) وعندما انتهيت حديثى عيس هرغر وأقسم اقلظ الايمان

(١) لا يصف ابن فضلان زواحف الخوف الاسطورية هذه Basilisk

مفترضا كما يبدو ان قراءه يعرفون هذا المخلوق الاسطورى ، والذي يظهر فى المعتقدات
الاولى لكل الثقافات الغربية تقريبا . والباسيليسك أو زاحف الخوف ، والمعروف ايضا
باسم كوكاتريس Cokatrice . هو عادة نوع من الديكة له ذنب النمر وثنايية
أرجل . يحل أحاسنا سلما بدل الريش . وما هو صحيح كما دائما عن الباسيليسك أو
زاحف الخوف هو ان نظرتهم قاتلة ، كمنظرة الكورغون ، كبح ان سمه ميت قاتل وطفا
لنفس الحكامات فان أى شخص يظن زاحف الخوف هذا يستطيع اى يرى النسر وهو
يصعد سله ثم يدخل فى يده . وسيكون هذا الانسان مرغبا فيما يبدع عل أن يطلع
يده ذاتها لينقل حسمه .

ربما كان شعور الخوف والخطر هذا من زاحف الخوف هو الذى يثير ذكره هنا .
فالنبيل الشيخ يخبر ابن فضلان بما معناه ان محاربة مباشرة مع مسبب الاضطرابات
لن تحل المشكلة . ومن المضمح حقا ان تعلم ان احدي طرق التخلص من زاحف الخوف
كانت فى تركه يرى خياله المعكوس فى مرآة ، فقد كان عندما يقتل بنظرته ذاتها .

وهو يضرب الارض بقدمه ثم طلب الى أن أرافقه الى بيولف .
كان بيولف يوجه سير العمل على الخندق فى الجانب الآخر عن
المسكر . تنحى هرغر به جانبا وحدته بسرعة بلسان أهل الشمال
مع اشارات تكررت باتجاهى أنا . عيس بيولف بدوره وأقسم
الأيمان وضرب الارض برجله كما فعل هرغر ، ثم سأل سؤالا . هنا
سألنى هرغر قائلا « أن بيولف يسأل من هو صديق وغلف ؟ هل
أخبرك الشيخ من هو صديق وغلف ؟ » .

أجبت بأنه قد فعل وأن هذا الصديق اسمه رنفر . عند سماعهما
هذا الخبر استأنف بيولف وهرغر حديثهما وتجادلا لمدة قصيرة
ثم ابتعد بيولف بعد أن تركنى مع هرغر . قال هرغر « لقد بت فى
الامر » .

وسالت « وما الذى تقرر ؟ » أجاب هرغر « ابق على أسنانك
مطبقة » وهو تعبير شمالى يعنى أنه لا يجوز أن أتكلم .

وهكذا عدت الى عملى دون أن أفهم شيئا عن هذه القضية أكثر
مما كنت أعرف من قبل . ومرة أخرى صرت أشعر بأن هؤلاء
الشماليين هم أكثر الناس شذوذا وتناقضا على سطح البسيطة ،
اذ أنهم لا يتصرفون حول أية قضية من القضايا كما يتوقع من أناس
عاقلين أن يفعلوا . ومع ذلك استثمرت بالعمل فى تحصيناتهم
السخيفة وفى خندقهم الضحل ، ورحت أراقب وانتظر .

بعد صلاة عصر ذلك اليوم لاحظت بأن هرغر قد اتخذ موقعا
للعمل قريبا من شاب ضخيم قوى . وراح هرغر وهذا الشاب يعملان
جنباً الى جنب فى الحفرة لبعض الوقت . وقد بدا لطريقتى فى
رؤية الأشياء أنه هرغر كان يحاول جاهدا أن يقذف بالفبار فى وجه
ذلك الشاب الذى كان فى الواقع أطول بحجم رأس كامل من هرغر
كما كان أصغر سنا أيضا .

احتج الشاب واعتذر هرغر ، الا أنه سرعان ما عاد يقذف
الفبار فى وجهه مرة أخرى . ومرة أخرى اعتذر هرغر ، إلا أن
الشاب غضب الان واصطبغ وجهه بالحمرة من الغضب . لم يمض
سوى وقت قصير حتى عاود هرغر قذف الفبار ، فانتفض الشاب
وبصق الفبار والتراب بغضب شديد . وصاح فى وجه هرغر
بكلمات أخبرنى هرغر بها فيما بعد رغم أن المعانى كانت واضحة بما
فيه الكفاية منذ البدء .

الفصل التاسع عشر

قال الشاب « أنت تحفر كالكلب » .

اجاب هرغر قائلا : « او تدعوني كلبا ؟ » على هذا اجاب الشاب قائلا : « كلا انما اقول بانك تحفر كالكلب وانت تنفض الغبار بلا انتباه كالحیوان تماما » . وقال هرغر : « او تدعوني اذن حيوانا ؟ » فأجاب الشاب « انت تخطيء فهم كلمائى » . وهنا قال هرغر « هذا صحيح فان كلمائك ملتوية محدودة كامراة شمطاء هزيلة » . صاح الشاب وهو يستل سيفه « هذه المرأة ستديقك طعم الموت » . وهنا استل هرغر سيفه ايضا ، فلم يكن ذلك الشاب الا رنفر نفسه ، صديق وغلف . وهنا وعلى هذا الشكل رايت نيات بيولف وقصده فى هذه القضية واضحة تماما .

هؤلاء الشماليون شديدا الحساسة فيما يتعلق بكرامتهم وتجري فيما بينهم مبارزات عديدة بعدد مرات تبولهم ، كما ان معركة حتى الموت بهذا الصدد تعتبر امرا عاديا . وقد تقع هذه المعركة فى موقع الاهانة ، اما ان كان لابد من المنازلة بشكل رسمى فان المبارزين يلتقون عند ملتقى طرق ثلاث . وعلى هذا النحو تحدى رنفر هرغر لمبارزته .

وعادة الشماليين فى هذا المجال تجرى على النحو التالى : فى الوقت المحدد يتجمع اصدقاء واقارب المبارزين فى موقع المعركة ويقيمون حفرة سرية على الارض مغطاة بالجلد ، ويثبتون هذا الجلد بواسطة اربعة اعمدة من الفار . ويجب ان تجرى المعركة فوق هذا الجلد بحيث يضع كل من المبارزين قدما او قدمين على الجلد طيلة الوقت وبهذا الشكل يبقى المتخاصمين قريبين من بعضهما طيلة الوقت . ثم يصل المتحاربان ومع كل منهما سيف وثلاثة تروس ، فان انكسرت التروس الثلاثة وجب عليه ان يحارب بلا حماية وتستمر المعركة حتى الموت .

هكذا كانت القوانين كما رتلتها الحيزيون الشمطاء ، اى ملاك الموت فى موقع الجلد الممدود ، بينما كل جماعة بيولف واهل مملكة روث غار متجمعون حول المكان . وكنت انا هناك ايضا ولكننى لم

اكن قريبا جدا من المقدمة . ولقد تعجبت كثيرا كيف يستطيع هؤلاء الناس أن ينسوا خطر الكورغن الداهم والذي كان قد أربعهم قبل ذلك الى حد الجرع . أما الان فلم يكن أى منهم يهتم بأى شيء على الإطلاق سوى المبارزة .

وقد جرى النزال بين رنغر وهرغر على النحو التالى . ضرب هرغر ضربته الاولى فقد كان هو المتحدى ، ورن صوت سيفه هائلا مربعا وقويا على ترس رنغر . انا شخصا كنت خائفا على هرغر لان ذلك الشاب كان أضخم بكثير وأقوى منه ، وفى الحقيقة قصمت ضربة رنغر الاولى ترس هرغر من عند القبض ، فطلب هرغر ترسه الثانى . ثم استؤنفت المعركة مرة أخرى وبوحشية شديدة . نظرت مرة أخرى الى بيولف فلم أرى على ملامح وجهه أى تعبير على الإطلاق ، ثم نظرت الى وغلف والمنادى على الجانب المقابل للذين كانا ينظران بين حين وآخر الى بيولف بينما المعركة محتدمة .

ثم انكسر ترس هرغر الثالث وبدا حال هرغر يائسا يأسا ما بعده هرغر شديد التعب والارهاق وقد علا وجهه الآخر العرق والجهد ، بينما بدا الشاب رنغر مرتاحا هادئا وهو يقاتل بجهد بسيط .

ثم انكسر ترس هرغر الثالث وبدا حال هرغر يائسا يأسا ما بعده يأس ، أو هكذا بدا لى للحظة عابرة . وقف هرغر وقدماه جامدتان على الارض وانحنى وهو يلث مرهقا تعباً الى أبعد حدود التعب وهنا اختار رنغر هذه اللحظة ليطبق عليه . وفى لمح البصر تنحى هرغر جانبا وكأنه رعشة جناح طير فانقرض سيف رنغر الشاب فى هواء الفراغ . وهنارمى هرغر سيفه من يد الى أخرى ، فهؤلاء الشماليون يستطيعون أن يقاتلوا قتالا رائعا بكلتا اليدين وبفئس القوة . وبسرعة فائقة استدار هرغر وقطع رأسى رنغر من مؤخرته بضربة واحدة من سيفه .

ولقد رأيت بعينى الدم يتدفق من عنق رنغر بينما الرأس يطير فى الهواء ويقع بين حشد الناس ، ثم رأيت بعينى الرأس يصطدم بالارض قبل أن يصطدم الجسد أيضا بالارض . هنا تنحى هرغر جانبا وعندما فقط أدركت أن المعركة لم تكن الا مهزلة ، فقد توقف هرغر عن اللهاث والتنفخ والتعب ووقوف دون اشارة اجهاد ودون

أن يرتفع صوته وينخفض من اللهاث وكان يحمل سيفه بخفة ويبدو وكأنه قادر على أن يقتل عشرة رجال آخرين من نفس النوع . ثم نظر الى وغلف وقال « كرم صديقك » وهو يقصد أن يعنى وغلف بأمر الدفن .

وبينما كنا نغادر موقع النزال قال لى هرغر أنه كان يتصرف بجِد ودهاء لكى يعرف وغلف أن رجال بيولف لم يكونوا فقط محاربين أقويا شجعانا ولكن مقاتلين دهاءا أيضا . « سيزيد هذا من خوفه ولن يتجرا أن يقول شيئا ضدنا » . كان هذا آخر ما قاله هرغر فى ذلك الوقت .

ولقد شككت فى أن تعطى خطته هذا الاثر ، ولكن الحقيقة أن الشماليين يمتدحون المكر والدهاء وينظرون اليه باكبار أكثر مما ينظر اليه أكثر مقاتلى الهازار خداعا ومكرا ، بل أكثر من أكثر تجار البحرين كذبا والذين يشكل الدهاء بالنسبة اليهم نوعا من أنواع الفن . فالذكاء فى المعركة والامور الرجولية تعتبر فضيلة اكبر من القوة المجردة فى عالم المقاتلين .

الا أنه رغم ذلك كله لم يكن هرغر سعيدا ، كما انى لاحظت أن بيولف لم يكن سعيدا أيضا . وبينما كان المساء يقترب بدأت بواد الضباب تتجمع فوق التلال العالية . لقد اعتقدت أنهم كانوا يفكرون برنغر الميت والذي كان شابا متيا قويا شجاعا والذي كان من الممك أن يكون ذا فائدة عظيمة فى المعركة القادمة . لكن هرغر قال لى معلقا على ذلك : « أن الرجل الميت ليس مصدر نفع أو فائدة لاي انسان » .

الفصل العشرون

هجوم تنين « الكورغن المضى »

مع هبوط الظلام راح الضباب يزحف من على التلال ويلتف كالاصابع حول الاشجار وفوق الحقول الخضراء باتجاه قاعة هاروت ومحاربى بيولف الذين كانوا بانتظار الضباب . هنا حصل ارجاء

فى العمل ، فمن تبع ماء عذب حول الماء باتجاه الخندق وعندما فهمت مجمل الخطة ، اذ ان الماء اخفى العصي كما اخفى الحفر العميقة ، مما جعل الخندق شركا خادعا لاي غاز .

واضافة الى هذا فان نساء روث غار رحن ينقلن قرب الماء المصنوعة من جلد الماعز من البئر ويغمرن السياج بمائها والمنازل وكل سطوح قاعة هاروت . وكذلك ايضا راح محاربو بيولف يصبون الماء على اجسادهم وثيابهم واسلحتهم من ماء النهر . وكان الليل رطبا باردا ، ولاعتقاد بان هذا كان طقسا من طقوسهم الوثنية اعتذرت عن ممارسته او قبوله ولكن عبثا : فقد غمرنى هرغر بالماء كالآخرين من قمة رأسى حتى قدمى . فوقفت والماء يقطر من جسمى وانا ارتجف حتى انى فى الحقيقة صرخت لصدمة الماء البارد وطالبت بان اعرف السبب . فكان جواب هرغر « ان تنين ضوء الليل ينثف النار » .

ثم قدم لى كاسا من شراب الميد ليخفف من شموورى بالبرد فشربته جرعة واحدة وكنت سعيدا به . كان الليل مظلما هالك الظلمة وكان محاربو بيولف ينتظرون وصول التنين « كورغن » . كانت كل العيون تنظر باتجاه التلال وقد غابت فى ضباب الليل . الا بيولف نفسه الذى راح يقطع محيط التحصينات جيئة وذهابا وهو يحمل سيفه العظيم رندنغ ويتمم بكلمات التشجيع التى كان يوجهها بصوت منخفض الى محاربيه . كانوا جميعا ينتظرون بهدوء باستثناء واحد منهم وهو الضابط اكثفو . واكثفو هذا هو معلم فى استعمال فأس اليد ، وقد اقام عمودا قويا من الخشب على مسافة قريبة منه . وراح يتدرب على رمى بلطة اليد هذه على العمود الخشبي مرات ومرات . وفى الحقيقة قدمت اليه كثير من البلطات او فتوس اليد حتى انى عددت خمسا او ستا كانت مربوطة الى حزامه العريض وكانت هناك بلطات اخرى فى يديه وكثير منها منشور على الارض حوله .

وكان هرغر يتدرب على قوسه وحسامه بنفس الطريقة ، وكذلك كان يفعل سكلد ، لان هؤلاء الثلاثة كانوا اكثر الرماة مهارة بين المحاربين الشماليين . كانت سهام الشماليين مزودة برءوس

حديدية . وهى ممتازة الصناعة قناها مستقيمة كحبل مشدود .
وفى كل قرية أو معسكر لهم هناك رجل غالبا ما يكون كسيحا أو
أعرجا يسمى صانع السلاح يفصل السهام وأقواسها أيضا لمحاربى
منطقته ويدفع له مقابل هذه الحسنة ذهباً أو صدفاً أو وكما رأيت
بأم عيني طعاماً ولحماً (١) .

وأقواس الشماليين تكاد تكون بطول أجسادهم ومصنوعة من
قضبان شجر البتولا . أما أسلوب إطلاق السهام فهو كالتالى تشد
قناة السهم حتى الاذن وليس حتى العين ومن هناك تترك لتنتقل ،
وهى قوية لدرجة أن هذه القناة قد تمر بسهولة مخترقة جسم
الانسان من طرف الى آخر دون أن تستقر فيه ، كما تستطيع هذه
القناة أن تخترق صفيحة من الخشب بسماكة قبضة يد الانسان .
ولقد رأيت بعيني مثل هذه القوة فى سهم ، حتى أنى حاولت أن أتقلد
وأستعجل أحد أقواسهم ، ولكن عبثاً لأنه كان أطول وأعصى من أن
استطيع تدبير أمره . والشماليون أيضاً مهرة فى كل فنون الحرب
والقتل بأسلحتهم المختلفة التى يعتزون بها ايما اعتزاز . وهم
يتحدثون عن اتساق الحرب ، والذي لا يعنى شيئاً أبداً كترتيب
الجنود مثلاً لأنه كل قتالهم ومعاركهم هى قتال رجل لآخر يكون
عدوه . أما خطأ القتال فيختلفان باختلاف السلاح المستعمل .
فبالنسبة للسيوف العريضة التى يلوح بها دائماً على شكل قوس ولا
تستعمل أبداً فى الطعن فهم يقولون عنها : « هذا السيف يبحث عن
خط الانفاس » والذي يعنى بالنسبة اليهم العنق وبالتالى تعنى هذه
الجملة قطع الرؤوس عن الاجساد . أما بالنسبة للرمح والسهم
والبلطة والخنجر وأدوات الطعن الأخرى فانهم يقولون عنها : « هذه

(١) وأضح أن هذا القطع هو مصدر التعليق الذى نشره عام ١٨٦٩ العالم الاب نويل
هارلى ، والذي يقول فيه : انه بين الفايكنج البرابرة كانت القيم الاخلاقية معكوسة
مقلوبة الى حد من التضاد كانت تبدو معه مفاهيم الصداقات على أنها واجبات او صدقات
تدفع لصانعى الأسلحة ، وقد تجاوز تأكيد هارلى الفيكترى حدود مرفقة اللغوية .
فالكلمة الشمالية Alm وهى تعنى Elm ، وهو الخشب الطرى
الذى يصنع منه الاسكندنافيون أقواسهم ورماحهم ، وبعضى الصدفة كان لهذه الكلمة
معنى فى اللغة الانجليزية أيضاً . فالكلمة الانجليزية Alms والتى تعنى
الهبات الخيرية هى كلمة يعتقد عادة بانها مشتقة من الكلمة اليونانية Eleos
ومعناها يشفق على .

الاسلحة تبحث عن الخط الدسم . « (١) بهذه الكلمات هم يقصدون الجزء المركزي من الجسد بدءا من الرأس وحتى الاربية أو أصل الفخذ فالجرح في هذا الخط المركزي يعنى بالنسبة اليهم الموت المحقق لعددهم . ويعتقدون أيضا انه من الاولى أن تطعن المدة لطراوتها من أن يطعن الصدر أو الرأس .

وفي الحقيقة استمر بيولف وجماعته بالمراقبة اليقظة طيلة تلك الليلة ، وكنت أنا بين الساهرين . ولقد عانيت الكثير من التعب والاجهاد وفي هذا النفر وسرعان ما شعرت بتعب شديد كما لو اني خضت معركة حامية ، الا أن معركة من هذا النوع لم تقع أبدا . أما الشماليون فلم يكونوا متعبين ولكنهم كانوا متأهين مستعدين في كل لحظة . صحيح أنهم أعظم الناس حيوية ويقظة على سطح البسيطة دائمو الاستعداد لاية معركة أو خطر داهم ، كما أنهم

(١) **Linea Adeaps** : تعنى حرفيا - الخط أو الخيط الدسم - مع أن الحكمة التشريحية في هذا القطع لم يشك فيها يوما جندى خلال الالف سنة التي مضت على هذا الكلام - لأن خط الوسط في الجسم هو المكان الذي تتجمع فيه أكثر الاعصاب والاورية حيوية في كل الجسم - فإن الاشتقاق الدقيق لهذا التعبير كان غامضا . وفي هذا المجال من المفيد أن نبين أن احدى السير الايسلندية تتحدث عن محارب مجروح عام ١٠٣٠ م يسحب سهما من صدره ويرى قطعا من لحمه معلقة على رأسه . عندما يقول أنه ما زال لديه بعض الدسم أو الدهن حول قلبه . ويتفق معظم العلماء على أن هذا تعليق ساخر من المحارب الذي كان يدرك تماما أنه كان قد جرح جرحا قاتلا ، وهو ما يعطينا حسا تشريحيًا رائعًا .

في عام ١٨٧٤ أشار المؤرخ الأمريكي روبرت ميلر الى هذه الفقرة من مخطوطة ابن فضلان حين قال ، « رغم أن الفايكنج ، هم محاربون قساة فإن اطلاعهم على المعلوم التشريحية ضئيل محدود . فقد كان يطلب من محاربيهم أن يبحثوا عن خط الوسط العمودي في جسم الخصم ، ولكنهم عندما كانوا يفعلون ذلك بالضبط كانوا يخطئون القلب الذي موضعه في يسار الصدر » .

وحقيقة القول أن مسألة المعرفة والاطلاع هي من صفات ميلر - نفسه لا من صفات الفايكنج . . . فعل امتداد مئات السنين العديدة الماضية كان الفريبيون العاديون يعتقدون دائما بأن موقع القلب هو على يسار الصدر ، والأمريكيون يضمنون أيديهم على قلوبهم عندما يقسمون بين الولاء للعلم .

والحقيقة هي أن القلب هو بناء من أبنية خط الوسط في الجسد ، وهو البناء الذي يعتمد بدرجات متفاوتة الى يسار الصدر ، الا أن جرحا في خط الوسط في الصدر لا يبد وأن يخرق القلب دائما .

لا يشعرون بالتعب ابدا من استمرارية هذا الوضع والذي هو أمر طبيعي بالنسبة لهم منذ ولادتهم . فهم في كل الاوقات متنبهون يقظون .

بعد مرور بعض الوقت غفوت ولكن سرعان ما أحسست بهرغر يوقظني بعنف : شعرت بهزة شديدة وبصغير قرب رأسي ، وعندما فتحت عيني رأيت سهما يهتز ويصطدم بالخشب على مسافة عرض شعرة من أنفي . كان هذا سهما أطلقه هرغر الذي راح هو والآخرين يضحكون طربا لحالة الهلع التي أصابتني . ثم قال لي « اذا نمت فستتقيب عن المعركة . » فقلت مجيبا بأن هذا لن يكون مأساة كبيرة طبقا لطريقة تفكيري .

استعاد هرغر رمحه وحين رأى أنني كنت غاضبا لمزاحه الخشن جلس بجانبى وراح يحدثني بطريقة ودية صادقة . وقد كان هرغر هذه الليلة ذا مزاج واضح الرغبة للتكيت والضحك والسخرية . شاطرني قدحا من شراب الميد ثم حدثني قائلا « ان سكلد مسحور » ثم ضحك لهذا طويلا .

لم يكن سكلد بعيدا عنا فناداه هرغر بصوت عال وعندها أدركت انه كان يفترض بسكلد ان يكون قد سمع ماقلناه عنه ، الا ان هرغر حدثني باللاتينية التي لم يكن سكلد يفهمها ، لهذا ربما كان هناك سبب اخر لم اكن أعرفه . في هذه المرة راح سكلد يبرى رءوس سهامه منتظرا المعركة . وهنا سألت هرغر : « وكيف هو مسحور ؟ » فقال هرغر مجيبا « ان لم يكن مسحورا فانه ربما بدأ ينقلب عريبا ، لانه بدأ يغسل ثيابه الداخلية ويفسل جسده كل يوم الم تلاحظ هذا بنفسك ؟ » أجبت بأنني لم لاحظ ذلك فيه . فقال هرغر وقد غرق في ضحكة طويلة « ان سكلد انما يفعل ذلك من أجل هذه المرأة الحرة او تلك والتي قد ملكت عليه ليه وفؤاده . فمن اجلها يغتسل بالماء كل يوم ويتصرف كاحمق خجول رقيق ، الم تلاحظ كل ذلك ؟ » ومرة أخرى أجبت بأنني لم لاحظ مثل ذلك ، فسألني هرغر بحدة « اذن ما الذى تراه بدلا من ذلك ؟ » ثم ضحك كثيرا اعجابا بنباهته الشخصية ، وهو اعجاب لم اكن اشاركه فيه ولا حتى تظاهرت بذلك لاننى لم اكن في مزاج يدفعنى الى الضحك ابدا وهنا قال هرغر ،

« أنتم العرب شديدو القسوة والصرامة . وأنتم تهمهون شاكين طيلة الوقت . وليس هناك من شيء في نظركم يثير الضحك ؟ » .

هنا قلت له بأنه يخطئ الظن . فتحدثني أن أقص عليه قصة مرة . حدثته بقصة الموعظة التي ألهاها ذلك الواعظ الشهير . أنتم بالطبع تعرفون هذه القصة جيدا . فهي تتحدث عن واعظ شهير يقف على منبر الجامع وقد تحلق حوله الرجال والنساء ليسمعوا كلماته الكريمة . في هذه الاثناء يقوم رجل اسمه حميد بارتداء ملابس امرأة ويضع على وجهه وشاحا ويجلس بين النساء . يقول الواعظ المشهور : « طبقا للإسلام ، يستحسن ألا يدع رجل أو امرأة شعر العانة ينمو طويلا جدا . » فيسأل أحدهم : « ومتى يصبح طويلا جدا أيها الواعظ ؟ » - الكل يعرف هذه القصة طبعا فهي نكتة قليلة الحياء - يحجب الواعظ « لا يجوز أن يطول إلى ما هو أطول من سنبلة شعير . » وهنا يسأل حميد المرأة الجالسة بجانبه : « اختاه أرجوك أن تفحصي شعري عانتني وتخبريني أن كان أطول من سنبلة شعير . » وتمد المرأة يدها تحت رداء حميد لتتحسس شعر العانة عندما تصطلم يدها بعضوه فتطلق صيحة وهي في حالة ذهول . ويسمع الواعظ هذه الصيحة فيسر كثيرا ويتجه إلى الحضور قائلا : « يجب عليكم جميعا أن تتعلموا أصول الاصغاء إلى موعظة كما تفعل هذه السيدة ، فانكم ترون بأنفسكم كم مست شغاف قلبها . » وهنا تصبح المرأة مجيبة ومازالت الصدمة تهزها : « انه لم يمس شفف قلبي أيها الواعظ انما مست يدي . »

الفصل الحادى والعشرون

أصفى هرغر لقصتي بلامح محايدة تماما . ولم يضحك حتى ولم يبتسم . وبعد أن أنهيت حديثي سألتني ببلاهة ظاهرة « ماذا تقصد بالواعظ ؟ » عندها أجبتة بأنه شمالى غبى لم يكن يعرف شيئا عن مدى اتساع هذا الكون وهذا العالم . فضحك لتأنيبي هذا ضحكا شديدا بينما لم تضحكه ولا مرة واحدة قصتي الخيالية .

وفي هذه اللحظة اطلق سككد صيحة التفت بعدها كل محاربى

بيولف وأنا بينهم لينظروا باتجاه التلال فيما وراء طبقات الضباب .
وهاكم مارايت : على ارتفاع كبير في الهواء رأيت نقطة ضوء نارية
متوهجة وكأنها نجمة متألقة وعلى بعد كبير منا . ولقد رآها المحاربون
جميعا ، فحدث بينهم لفظ واستفراغ وتعجب .

وسرعان ما ظهرت نقطة اضاءة اخرى ثم ثمانية ثم ثلاثة عدت
اكثر من عشرة ثم توقفت عن العد ، فقد بدت هذه النقاط المضيئة
وكانها في نسق كانت تتلوى كالافعى او كجسد التنين المتلوى .

« تها الان » قال هرغر لى مضيفا القول الشمالى المأثور : « اتمنى
لك حظا جيدا في المعركة القادمة . » رددت له امنيته هذه بأفضل
منها ثم ابتعد عنى .

كانت نقط النار المضيئة مازالت بعيدة ولكنها كانت تقترب شيئا
فشيئا . في هذه اللحظة سمعت صوتا ظننته الرعد . كان هذا
رنين دمدمة عميقة كانت تملأ الهواء العابق بالضباب كما تفعل كل
الاصوات في الضباب . فمن المعلوم ان همسة انسان في الضباب
يمكن سماعها على بعد مائة خطوة واضحة كما لو كان يهمس في اذنك .

رحت اراقب واصفى في حين شد مقاتلو بيولف قبضاتهم على
اسلحتهم وراحوا يرقبون ويصفقون بانتباه شديد ، بينما تنين
الكورغن المضيء راح ينهال علينا متلفعا بالرعد واللهيب .

وشيئا فشيئا كانت كل نقطة مضيئة تتنامى وتكبر حمراء كالبحر
تومض . اما جسد التنين فكان طويلا متلألئا ، وهو منظر
مثير لاشد الرعب ، الا اننى مع ذلك لم اشعر بالخوف ، لاننى أدركت
الان ان هؤلاء لم يكونوا سوى خيالة او فرسان يحملون المشاعل ،
وقد ثبت لى ان ذلك كان صحيحا .

وهكذا فرعان مابز الخيالة من الضباب هياكل سوداء تحمل
مشاعل مرفوعة فوق خيول سوداء تزفر وتنفخ . واحتدمت
المعركة . وسرعان ما امتلأ جو الليل باصوات صراخ مرعب وصيحات
الموت لان اول موجة من هجوم الخيالة كانت قد اصطدمت بالخندق
فانقلبت خيول كثيرة وسقطت لاطمة راكبيها بالارض بينما غرقت
المشاعل بالماء . وقد حاولت خيول كثيرة ان تقفز فوق السياج
ولكنها علققت بنهايات العصي المدبية . وانتشرت النيران في جزء من

هذا السياج . أما المحاربون فقد راحوا يترافضون في كل اتجاه .

رأيت أحد هؤلاء الخيالة يقفز بجوار ، فوق القسم الملتهب من السياج ، وقد تمكنت من رؤية هذا الوندول بوضوح تام ولأول مرة في حياتي . ولقد رأيت مايلي : على ظهر جواد اسود كان يركب شكل بشري ملفع بالسواد ، لكن رأسه كان رأس دب . وقد ذهلت لبعض الوقت عند رؤية هذا المنظر المريب حقاً وخشيت أن أموت من الرعب وحدي لأنى لم أر كابوساً كهذا في حياتي حتى ولا في المنام . ولكن في نفس تلك اللحظة كانت بلطة اكتفو تنغرز عميقاً في ظهر الفارس الذى انقلب وسقط وبسقوطه تدرج رأس الدب عن جسده فראيت عندها أنه كان له رأس انسان تحت رأس الدب .

وبسرعة البرق قفز اكتفو فوق المخلوق الساقط وطعنه طعنة عميقة في صدره ثم قلب البشة على قفاها واستعاد بلطته من ظهرها وجرى لينضم الى المعركة ثانية . وانضمت انا الى المعركة أيضاً ، لأننى أصبت بلطمة جملتنى الف وادور على قدمي . كانت لطمة من رمح أصبح كثير من الخيالة الان في قلب السياج ومشاعلم متوهجة ، بعضهم كان له رعوس اللبية وبعضهم لم يكن له مثل تلك الرعوس . وقد تحلقوا في حلقة وحاولوا أن يضرعوا النار فى الابنية وفى قاعة هاروت وقد حارب بيولف ورجاله ضد هذه المحاولة بعنف شديد .

استقرت على قدمي فى اللحظة التى انقض فيها أحد وحوش الضباب على فوق حصانه المندفع . وقفت ثابتاً وقد رفعت رمحي عالياً ، وقد اعتقدت لوهلة بأن شدة الضغط سوف تعصرنى ولكن الرمح مر خلال جسد الفارس فصاح صيحة مربعة لكنه لم يسقط عن حصانه بل ظل راكباً . أما انا فقد سقطت على الارض وأنا الهث من الألم الذى كان يقطع معدتى ولكنى لم أكن حتى ذلك الحين قد جرحت جرحاً حقيقياً .

وخلال المعركة اطلق هرغر وسكld سهامهم العديدة وامتلأ الجو بصفيرهم واصابوا أهدافاً كثيرة أيضاً . ولقد رأيت أحد سهام سكld يخترق عنق أحد الفرسان ليستقر هناك ، ثم رأيت مرة ثانية سكld وهرغر يطعنان معاً أحد الفرسان فى صدره ثم يعودان بسرعة لسحب

سهامهم من غمدها واطلاقها على نفس هذا الفارس حتى استقرت اربعة منها في جسده ، بينما صراخه يملأ الجو رعبا وهو يعدو بعيدا بجواده .

ومع ذلك علمت بان هذا العمل اعتبر قتالا هزيلا يمارسه هرغر وسكلك ، لان الشماليين يعتقدون ان لاشيء مقدس في الحيوانات ، وهكذا فبالنسبة اليهم كان الاستعمال الملائم للسهام يتحصر في قتل الخيول لايقاع الراكب . وهم يقولون في ذلك : « ان رجلا ساقطا عن حصانه هو نصف انسان ، وفرص قتله مضاعفة . » وهكذا يتقدمون دونما ابطاء او تردد(١) .

ثم اندفع احد الفرسان في قلب المعسكر وقد انحنى قدر المستطاع فوق فرسه الاسود المنطلق كالسهم ثم أمسك بجسد الوحش الذي كان اكثفو قد قتله ووضع على عنق حصانه وجرى الحصان مبتعدا . فكما قلت سابقا ، لا يترك وحوش الضباب هؤلاء ايا من قتلهم ليكتشف في ضوء الصباح .

احتدمت المعركة مدة من الوقت طويلة وعلى ضوء النار المتأججة في قلب الضباب . وقد رايت هرغر مشتبكا في معركة حياة او موت مع احد هؤلاء الشياطين . فاخذت رمحا جديدا وغرزته في ظهر ذلك المخلوق ، فرفع هرغر يده الى شاكرا والدماء تقطر منه ثم عاد ليفرق في حمم المعركة . وهنا شعرت بفخر وزهو عظيمين .

حاولت مقلدا ان استعيد رمحي ولكنى وبينما كنت احاول ذلك اصبت بصدمة من خيال عابر اطاحت بى بعيدا ، واقول الحقيقة اننى منذ تلك اللحظة لم اعد اذكر الا القليل . رايت بيت احد نبلاء روثغاز يحترق بالسنة اللهب المتدفقة ، ولكنى رايت ان قاعة هاروت النائمة كانت لاتزال سليمة لم يمسه سوء ، فشعرت بسرور عظيم كما لو كنت انا شماليا ، وكانت هذه اخر افكار ولذتها مخيلتى .

(١) طبقا للقانون الدينى يعتقد المسلمون بان « رسول الله قد حرم التسوية في معاملة الحيوانات » . واضافة الى ذلك كان العرب يتمتعون بصورة خاصة بتربية وتدريب الخيول . اما الاسكندنافيين فليس لديهم اى شعور خاص تجاه الحيوانات وقد نوه كل المراقبين العرب تقريبا بانعدام الشعور تجاه الخيول عند الاسكندنافيين .

الفصل الثاني والعشرون

ومع اطلالة الفجر أيقظني ما يشبه غسلا على صفحة وجهي ، وقد سرتني اللمسة اللطيفة . وسرعان ما أدركت بعدها أنني كنت أتلقي عناية كلب لائق ، وكم شعرت عندها بشعور الإحتمق السكران ، ثم أصابني رعب شديد لا أشك بأنكم تستطيعون تصويره (١) . وجدت نفسي ملقى في الخندق حيث كان الماء أحمر كالدم . نهضت ومشيت عبر المسكر العابق بالدخان وبما لا يوصف من الموت والدمار . رايت الأرض نفسها مشبعة بالدماء كما تكون مشبعة بالأمطار وقد تكونت فوقها برك من الدماء كثيرة . رايت أجساد النبلاء المقتولين ونساء وأطفالا موتى أيضا . كما رايت ثلاثة أو أربعة أجساد وقد احترقت في النيران حتى تفحمت . كانت كل هذه الأجساد منشورة في كل مكان على الأرض وكنت مجبرا على أن أبقى

(١) كان معظم المترجمين الأوائل لمخطوطة ابن فضلان من المسيحيين الذين لم يكونوا يملكون أية معرفة بالثقافة العربية ، وكانت ترجمتهم لهذا المقطع غالبا ما تعكس جهلهم ففي ترجمة مسترسلة يقول الإيطالي لاسيلا (١٨٤٧) « في الصباح استيقظت من غفوتي السكرانة وكأني كلب مشرد ، وكم شعرت بالخجل لحالي هذه » . ويستنتج سكوف مانه في تعليق له عام ١٩١٩ ويقول إنه « لا يستطيع أي إنسان أن يضع ثقته أو يصدق قصص ابن فضلان ، لأنه كان سكرانا مخمورا أثناء المارك ، وهو يعترف بذلك » ، وبلغف أكثر قليلا من ذلك يقول دوشاتلييه وهو مختص موثوق به بتاريخ الفايكنج ، يقول في تعليق له عام ١٩٠٨ : « وسرعان ما اكتسب العرب تشوهر السكر من المارك ، وهو جوهر روح البطولة الشمالية و النورسية » .

أنا مدين لمسعود فرزان العالم الصوفي بتفسير الإشارة أو التلميح التي يقدمها ابن فضلان هنا . وهو في الواقع يقارن نفسه هنا بشخصية إحدى التكاات العربية القديمة جدا : يسقط رجل مخمور في بركة على جانب الطريق . يمر كلب ويبدؤ بلحس وجهه ، فيظن المخمور أن شخصا لطيفا ينظف له وجهه فيقول بامتنان ، « ليحمل الله أطفالك مطيعين لك » . عندها يرفع الكلب رجله الخلفية ويمسح على السكران ، الذي يقول ردا على ذلك « وليباركك الله يا أخي لاني آتيت بلاء الملقى» لنسل وجهي » .

في اللغة العربية تحيل هذه التكة مضامين مالوفة عند السكر والتذكير الذكي بأن المشروب ما هو إلا خرة وقدارة كالبول تماما .

وبما كان ابن فضلان يتوقع من قارئه أن يدرك ليس أنه كان مخمورا أبدا ولكن أنه لحسن الحظ استطاع أن يتحاشى أن يبول عليه كلب كما استطاع في وقت سابق أن يتحاشى الموت في المعركة : أنها بتعبير آخر إشارة الى نجاته أخرى من خطر داهم محقق .

نظري مثبتا على الارض ثلثا ادوس على اى منهم فقد كان القتلى كثيرين ومنتشرين بغزارة فى كل مكان .

اما عن منشآت الدفاع فقد احترق شياخ العواميد كله تقريبا . وفى اقسام اخرى منه كانت الخيول تتولى معلقة باردة ، والمشاغل مشورة هنا وهناك . لكننى لم ار ايا من مقاتلى بيولف .

لم تكن تاتى اية صيحات او نجيب من مملكة روثغار ، فاهل الشمال لا يندبون موتاهم ابدا ، ولكنهم على العكس كان يسود الجو هدوء غير عادى . سمعت صياح ديك ثم نباح كلب ولكنى لم اسمع اى صوت انسانى مع انبلاج الصبح .

ثم دخلت قاعة هاروت الكبرى ، فوجدت جسيدين ممددين على اغصان نبات السمار وقد وضعت خوذاتهم فوق صدورهم . كان هناك سكلد وهو احدث نبلات بيولف ، ثم هلتوين الذى كان قد جرح سابقا اما الان فكان باردا شاحبا . كان كلاهما ميتين ، ثم كان هناك رثل وهو اصغر المحاربين سنا ، وقد جلس منتصبا فى احدى الزوايا بينما كانت تعنى بجراحه عدد من الجوارى . كان رثل قد جرح سابقا ولكنه كان الان يعانى من جرح جديد فى معدته والدماء تنهمر منه بغزارة وكان واضحا ان ذلك كان يؤلمه الى حد كبير ومع ذلك لم يبد الا الابتسامة والحبور ، وكان يبتسم دائما وبعاكس الجوارى بقرصه اثناءهن وافخاذهن ، وكن غالبا ما يوبخنه لانه كان يسبب لهن الالتواء وتشتت الدهن بينما كن يحساوون تضميد جراحه .

واليكم طريقة معالجة الجراح طبقا لعاداتهم وطباعهم . ان كان جرح المحارب بليفا سواء فى ساعده او فى ساقه فقد كانت تربط حول هذا الطرف او ذاك دعامة ، ثم توضع قطع من القماش المفلى بالماء فوق الجرح لتغطيته . كما قيل لى بان نسيج العنكبوت وقطعا من صوف الحمل قد توضع فى الجرح ليتخثر الدم ويتوقف تدفقه . ولكنى لم ار مثل هذا ابدا .

اما ان جرح المقاتل فى راسه او فى عنقه فكان الجرح يفسل حتى ينظف ثم تفحصه الجوارى . فان كان الجلد ممزقا ولكن العظم سليم يسمون مثل هذا الجرح ، « جرحا لا اهمية له . » ولكن ان

كانت العظام محطمة أو مكسورة بشكل أو بآخر فانهم يقولون ، « ان حياته تنطلق من جسده وسرعان ماستهرب . »

أما ان جرح المقاتل في صدره فانهم يتحسسون يديه وقدميه . فان كانت هذه دافئة قالوا عن مثل هذا الجرح . « انه لا أهمية له . » أما ان كان هذا المقاتل يسعل ويتقيأ دما ، قالوا « انه ينطق دماء » ، ويعتبرون ذلك خطيرا جدا . وقد يموت الرجل من مرض النطق بالدم ، وقد لا يموت حسب قدره .

أما ان جرح المحارب في بطنه ، فانهم يقدمون له حساء من البصل والاعشاب ، ثم تبدأ النساء بتشتم ماحول جرحه ، فان هن شمن رائحة البصل قلن « انه مصاب بمرض الحساء » ويعرفن عندها انه سيموت .

ولقد رايت النساء بأم عيني وهن يحضرن حساء البصل لرثل الذي شرب كمية منه ، ثم راحت الجوارى يتشمن جراحه ، وشمن رائحة البصل . عندها ضحك رثل وقام بالقاء نكتة مضحكة للغاية ثم طلب شراب الميد الذي احضر له . وطيلة ذلك الوقت لم يظهر اى اثر للخوف أو المبالاة .

في هذه الاثناء كان القائد بيولف ومحاربوه يفقدون اجتماعا في مكان آخر من القاعة الكبرى . انضمت اليهم ولكنى لم اطلق اية تحية منهم . حتى هرغر الذي انقذت حياته لم يعرنى اى انتباه ، فقد كان المقاتلون جميعا في حديث جدى خطير . كنت قد تعلمت بعضا من لغة الشماليين ولكن هذا البعض لم يكن كافيا ليتمكنى من تتبع كلماتهم السريعة المنخفضة ، وهكذا سرت الى مكان آخر وشربت بعض الميد وتحسست آلام جسدى . ثم جاءت جارية لتفسل لى جراحى التى كانت عبارة عن قطع أو جرح في أعلى فخذى وآخر في صدرى . هذه الجراح لم اكن اعمى وجودها الى ان جاءت هذه الجارية تعرض خدماتها على .

يفسل الشماليون الجراح بماء المحيط لاعتقادهم بأن هذا الماء يحتوى على قوى شافية أكثر مما يحتويه الماء العذب . وغسل الجراح بماء البحر ليس ملائما للجراح . وفي الواقع رحت ائن وأتالم

من ذلك بينما رثل يضحك ويحدث الجبارية قائلا : « انه مازال عريبا . » وعندها شعرت بالخجل .

كما يفسل الشماليون الجراح ببول البقر المسخن ولقد رفضت هذا حين عرض على .

يعتقد الشماليون بأن بول البقر مادة رائعة وهم يخزنونها في اوعية خشبية وفي الظروف العادية يفلونها حتى تصبح كثيفة ومخرشة للأنوف ثم يستخدمون هذا السائل المقرف للفسيل وخاصة لفسل الثياب البيضاء (١) .

وقد اخبرت ايضا عدة مرات أن الشماليين قد يذهبون في رحلات بحرية طويلة دون أن يتوفر لهم الماء العذب الكافي . عندها يشرب كل انسان بوله ، وبهذا الشكل يبقون على قيد الحياة حتى يصلوا شاطئ الامان . هذا ما قيل لى ولكنى لم أره أبدا بحمد الله .

والان اقترب هرغر منى بعد أن انتهى مؤتمر المحاربين . اما الجارية التى كانت تعتن بجروحي فقد جعلت هذه الجراح تحرقنى حتى طار لى . ومع ذلك فقد كنت مصمما على أن اتحدى بمظهر أهل الشمال من المرح والحبور . فقلت لهرغر « اية قضية تافهة ستكون مهمتنا فيما بعد ؟ » نظر هرغر الى جراحى وقال « انت تجيد ركوب الخيل . » سألت والهلع يتملكنى عن الوجهة التى سأركب فيها الخيل وقد فقدت لبرهة من الزمن كل مرجى وحبورى لانى كنت مرهقا شديدا التعب ولم اكن املك من القوة شيئا الا مايكفى للراحة . فقال هرغر « هذا المساء سيعود التنين المضى للهجوم ثانية ولكننا الان منهكون مرهقون وقد أصبح عددنا قليلا جدا ، ودفاعاتنا محروقة مدمرة . سيقتلنا التنين المضى جميعا . » قال لى هذه الكلمات بهدوء . ولقد رايت ذلك واضحا وقلت لهرغر : « الى أين اذن سنتجه بخيولنا ؟ » وكنت اعتقد انه بسبب خسائرهم الفادحة قد يحاول بيولف وجماعته أن يفادروا مملكة روثغار . لم يعترض على رأى هذا .

قال لى هرغر : « ان ذئبا يحتوى دائما فى وكره لايمكن أن يحصل على اللحم ، كما أن رجلا نائما لايمكن أن يحصل على النصر . » هذا

(١) البول هو مصدر من مصادر الامونيا (النشادر) وهو مركب منظف ممتاز .

مثل شمالى ومنه أدركت الخطة المفارقة تماما : وهى اننا كنا سنغير على ظهور الخيل ونهاجم وحوش الضباب حيث يختبئون فى الجبال او فى التلال . ويقلب يملؤه الخوف . سألت هرغر عن الوقت الذى سنبدا فيه هذه المهمة فأجاب باننا سنبدا عند ظهيرة ذلك اليوم .

فى هذه اللحظة رايت طفلا يدخل القاعة وهو يحمل بيديه شيئا من حجر . اخذه هرغر وفحصه بامعان وكان نحتا حجريا آخر بلا رأس لامرأة جبلى مشوه قبيح . اطلق هرغر صيحة غضب ثم اسقط الحجر من يديه المرتجفتين . ثم صاح بالجارية التى اخذت الحجر وألقت به فى النار التى جعلته حرارة لهيبها يتحطم ويتناثر قطعاً صغيرة . هذه القطع الصغيرة حملت ورميت فيما بعد فى البحر . هذا ما اخبرنى به هرغر .

سألت عن معنى الحجر المنحوت فقال لى : « انها صورة أم آكلة الموتى وهى التى ترأسهم وتوجههم عند الاكل . » وهنا رايت أن بيولف الذى كان واقفا فى منتصف القاعة الكبرى كان ينظر الى ذراع أحد الشياطين التى كانت مازالت معلقة فى خشب السقف . ثم تحول ببصره الى جسدي رفيقيه المقتولين ثم الى رثل الدابل ورايت كتفيه تهبطان بياس وذقنه تفرق فى صدره . ثم مشى مارا بجانبهما ورايته يرتدى درعه ويأخذ سيفه ويهيب نفسه للمعركة من جديد .

الفصل الثالث والعشرون

صحراء الرعب

طلب بيولف سبعة من الخيول القوية ، وانطلقنا فى ضحى ذلك اليوم من قاعة روثغار الكبرى باتجاه السهول المنبسطة الفسيحة ومن هناك توجهنا الى التلال الجائفة خلفها . كان معنا أيضا أربعة من كلاب الصيد البيضاء الناصعة البياض وهى حيوانات عظيمة اميل لان تكون ذئابا من أن تكون كلابا ، وقد كانت ملامحها موحشة

مربعة . وهذا ماشكل مجمل قواتنا المهاجمة ، وكنت انظر اليها على انها تعبير ضعيف امام خصم بهذه الرهبة ، ومع ذلك كان الشماليون يضعون املا كبيرا في عنصر المفاجأة وفي هجوم مباغت . وبحسابهم أيضا كانوا يعتبرون كل واحد منهم مساويا لثلاثة أو أربعة مقاتلين دفعة واحدة .

لم اكن ميالا للانطلاق بمغامرة أخرى من مغامرات الحرب ، وكم كانت دهشتي عظيمة لان الشماليين لم يكونوا يعكسون مثل هذا الرأي ، لان رأيي هذا كان ينبع من ارهاق جسدي . وعن هذا قال لي هرغر : « ان الامر لكذلك دائما هنا والان وفي عالم الحياة الخالدة » وهو تعبير عن فكرتهم عن السماء والجنة . في هذه الجنة ، والتي هي بالنسبة اليهم قاعة كبيرة ، يتقاتل فيها المحاربون من الفجر حتى الفسق . وأولئك الذين يموتون يعودون فيحيون ليشاركوا جميعا في وليمة كبرى في المساء فيها مالا ينتهي من الطعام والشراب . وما ان يعود ضياء الصباح حتى يعودا للقتال ، والموتى يعودون فيحيون وتكون هناك وليمة وهكذا دواليك . هذه طبيعة الجنة في عالم الخلد عندهم (١) . وهكذا فانهم لايعتبرونه امرا غريبا ان يحتدموا في معارك متواصلة يوما بعد يوم وهم مازالوا على الأرض .

تم تقرير وجهتنا بموجب ذيل متواصل من الدمار تركه الخيالة المتقهقرون من الليلة السابقة . كانت الكلاب تقودنا وهي تعدو على طول هذا الاثر من النقاط الحمراء . ولم نتوقف الا مرة واحدة فوق السهل المنبسط وذلك لاستعادة سلاح سقط من احد الشياطين الهارين . هاكم وصفا لهذا السلاح : كان عبارة عن بلطة لهامقبض من نوع من الخشب وشفرة مصنوعة من الحجر المسقول مربوطة الى المقبض بواسطة سير جلدية . اما حد هذا الفأس فكان حادا جدا ، وكانت الشفرة مصممة بمهارة خارقة كما لو كان هذا الحجر حجرا كريما يراد صقله ليرضى خيلاء سيدة غنية . كانت مهارة الصنع

(١) تشير بعض المراجع اللاهوتية الى ان الاسكندنافيين لم يكونوا يمدعي هذه الفكرة عن المعركة الابدية ، ولكن هذه الفكرة هي مفهوم كلتي أو سلتى . وبها كانت الحقيقة فمن المعقول والمنطقي جدا أن يكون رفاق ابن فضلان قد تبينوا هذا المفهوم ، لان الاسكندنافيين ، كانوا على صلة بالكلتيين لمدة تزيد عن مائة وخمسين عاما في ذلك الوقت .

بهذا الحد وكان السلاح مخيفاً بسبب حدة شفرته . لم أكن قد رايت في حياتي شيئاً من هذا القبيل على سطح الأرض . وقد أخبرني هرغر أن الوندول يصنعون كل أدواتهم وأسلحتهم من هذا الحجر ، أو هذا ماكان يعتقدوه الشماليون .

ومع هذا أغزينا السير قدما وبسرعة كبيرة تفودنا الكلاب النابحة التي كان نباحها يسعدنى . وبعد وقت طويل وصلنا الى التلال . وتعمقنا داخل التلال دون إبطاء ودون طقوس بينما كان كل محارب من محاربى بيولف عازما على تحقيق قصده ، وكنا جميعا مجموعة من الرجال الصامته المكفهرة الوجوه . كانوا يحملون علائم الخوف على وجوههم ومع ذلك لم يتوقفوا ولم يترددوا بل أغزوا السير قدما غير مباليين .

كان البرد شديدا فوق التلال وفي غابات الاشجار الخضراء الداكنة . وكانت ريح مثلجة تهب على ثيابنا وكنا نرى أنفاس الخيول الصافرة ودفقات النفس البيضاء المنبعثة من الكلاب الجارية ولكننا رغم كل هذا أغزينا السير غير مباليين . وبعد بعض الوقت من السفر والرحيل الذى استمر حتى الظهر وصلنا الى منطقة جديدة . هنا رأينا تلة او رابية أو هضبة داكنة أو قل هى أرض قفر شديدة الشبه بالصحراء ، غير أنها ليست رملية وليست جافة ولكنها رطبة مستنقعية ، وفوق هذه الأرض كانت تففو طبقات رقيقة من الضباب . ويسمى الشماليون هذه المنطقة صحراء الرعب(١)

ولقد رايت بأم عيني أن هذا الضباب كان يحل على الأرض على شكل جيوب أو تجمعات صغيرة وكأنه سحببات دقيقة قد وقعت على الأرض . كنت تحد الهواء ثقيا في منطقة ما ثم فى منطقة أخرى

(١) هى حرفيا « صحراء خوف » فى مقال ظهر عام ١٩٢٧ ، كتب جى دجى توم لنسون مبينا أن نفس تلك الجملة تظهر فى كتاب **Volsumaga Saga** ولذلك فهو يناقش مطولا أن هذا التعبير إنما يمثل تعبيرا أصيلا يقصد به «الأراضى المحرقة » وواضح أن توم لنسون لم يكن مدركا أن **Volsumaga Saga** لم تكن شيئا من هذا القبيل ، كما أن ترجمة وليم مورس التى ظهرت فى القرن التاسع عشر تحتوى على السطر أو البيت الذى يقول : هناك صحراء رعب فى أقصى اقصى الدنيا . لكن هذا البيت كان من اختراع موريس نفسه ، وهو يظهر فى واحد من العديد من المقاطع حيث يضيف ويزيد على هذه السيرة الجرمانية الأصلية .

كنت تجد فقاعات ضبابية صغيرة معلقة قريبا من الارض على ارتفاع رتبة حصان . وفي مثل هذه الامكنة كنا نضيع اثر الكلاب التي كان يلغها الضباب . وبعد لحظة من الزمن كان الضباب يتبدد لنجد انفسنا مرة اخرى في فضاء رحب مكشوف . هكذا كانت معالم هذه الهضبة .

لقد أعجبني هذا المنظر كثيرا ولكنه لم يكن يعنى شيئا بالنسبة للشماليين . قالوا بان في الارض في هذه المناطق مستنقعات كثيرة مالحة كريهة كما كان فيها ينابيع حارة دائمة الغليان كثيرة الفقاعات تخرج من شقوق في الارض . في هذه الاماكن كان يتجمع ضباب قليل ويبقى هناك طيلة الليل والنهار . وهم يسمون : هذا المكان بأرض البحيرات البخارية .

والارض هنا صعبة على الخيول لذا أصبح تقدمنا بطيئا . كما ان تقدم الكلاب أصبح اكثر بطئا . ولاحظت ان نباحها أصبح اقل قوة . وسرعان ماغيرت جماعتنا سيرها من عدو على ظهور الجياد وكلاب قافزة امامها الى مشية بطيئة مع كلاب صامتة تود لو لم تكن في المقدمة . وبدلا من ذلك بدأت الكلاب تتراجع حتى صارت تحت حوافر الخيول مسببة لها صعوبة اضافية في السير . كان الهواء لايزال باردا جدا بل في الواقع اكثر برودة مما كان ، وكنت ترى هنا وهناك بقعا صغيرة من الثلج على الارض ، مع ان هذا الفصل كان حسب ادق تقديراتي جزءا من فصل الصيف .

وببطء شديد تقدمنا مسافة لا بأس بها وكنت اتساءل عن احتمال ان نضيع دون ان نجد طريق العودة عبر هذه الهضبة . وفجأة وفي مكان ما توقفت الكلاب . لم يكن هناك اى فرق في طبيعة الارض او اى شيء على الارض ، ومع ذلك توقفت الكلاب كما لو كانت قد وصلت الى سياج او حاجز لايمكن تجاوزه . توقفت جماعتنا في هذا المكان وراحت تنظر في هذا الاتجاه أو ذاك . لم تكن هناك اى ريح أو اية أصوات ولا حتى صوت طير أو حيوان حتى بل كان هناك الصمت والصمت العميق .

قال بيولف « هنا تبدأ أرض الوندول » ، بينما راح المحاربون يربتون على اعناق خيولهم ليخففوا من قلقها لان الخيول نفسها

كانت مضطربة نائرة الاعصاب في هذه المنطقة . كذلك كان الخيالون ايضا . أبقي بيولف شفتيه مطبقتين بينما يدا اكتفو ترتجفان وهو يقبض على أعنة جواده . أما هرغر فقد كان شاحبا كالاموات وعينه تفتران بين هذا الاتجاه أو ذاك . وكان الآخرون يفعلون الشيء ذاته كل بطريقته .

يقول الشماليون « للخوف فم أبيض » وكنت الآن أستطيع أن أرى ذلك بوضوح تام ، فقد كانوا جميعا شاحبين حول الشفاه والفم . لكن لم يتحدث أى من الرجال عن خوفه أبدا .

والآن تركنا الكلاب خلفنا وتقدمنا بأرض كانت سماكة الجليد تزداد فيها شيئا فشيئا ولو أنها كانت في البدء رقيقة تتكسر تحت الاقدام كما كانت كثافة الضباب تتزايد . لم ينطق أى منا بحرف الا حين كان يخاطب حصانه . وعند كل خطوة كنا نخطوها كانت هذه الحيوانات أكثر عنادا في التقدم ، وكان المقاتلون يجدون أنفسهم مضطرين لحضها على التقدم بكلمات ناعمة ورفسات حادة . بعد حين بدأنا نرى أشكالا كالظلال في الضباب أمامنا وحنا نتقدم منها بحذر . رأيت مايلي بأم عيني : على جانبى الممر وفوق أعمدة قوية علقت جماجم حيوانات هائلة وأفكاكها مفتوحة بوضع هجومى . استمرينا في السير وهنا رأيت أن هذه الجماجم كانت لدية هائلة الحجم يعبدها الوندول . وقد أخبرنى هرغر بأن جماجم الدبية تحمى حدود أرض الوندول .

ثم رأينا عائقا آخر أغبر بعيدا كبيرا . هنا كانت صخرة هائلة الحجم هالية علو سرج حصان ومنحوتة على شكل امرأة جبلية ومعدتها مندلقة الى الامام وكذلك ثدياها ، دون أن يكون لها رأس أو ذراعان أو ساقان . كانت الصخرة مغطاة بدماء القرايين ، والحقيقة أنها كانت تقطر بسيل من الدم الاحمر وكانت رهيبة المنظر شنيعة .

الفصل الرابع والعشرون

لم يتحدث أى من الرجال عما رأى . واستمرينا في التقدم راكبين ، بينما استل المحاربون سيوفهم وأشرعوها متهئين للقتال . وبهذه

المناسبة هاكم احد مزاي الشماليين : وهى انهم فى حين انهم كانوا يظهرون بعض الخوف فى السابق ولكنهم ما أن دخلوا الى ارض الوندول قريبا من منبع الخوف حتى اختفت كل مظاهر الخوف عندهم . وهكذا كانوا يبدون وكأنهم يفعلون كل شيء بشكل معكوس وبأسلوب محير لانهم فى الواقع كانوا يبدون الان مطمئنين . ولكن الخيول وحدها بدت أكثر عنادا فى التقدم الى الامام .

بدأت أشم الان رائحة الجثث المتعفنة التى كنت قد شمعتها من قبل فى قاعة روثغار الكبرى ، والتى ما أن صدمت أنفى من جديد حتى كادت يقمى على وهبط قلبى . اقترب هرغر منى وقال بصوت خفيض « كيف حالك ؟ » . ولانى لم اكن قادرا على اخفاء عواطفى قلت له « اننى خائف » .

اجاب هرغر « ماذلك الا لانك تفكر فيما سياتى وتتخيل اشياء مرعبة قد توقف الدم فى عروق اى انسان . فلا تفكر فى المستقبل وكن أكثر حيويا بأن تعرف انه ما من انسان يعيش ابد الدهر . »

ولقد رايت مدى صدق كلماته فقلت مجيبا « فى مجتمعى نردد قولا ماثورا يقول : اشكروا الله لانه فى حكمته وضع الموت فى نهاية الحياة وليس فى بدايتها . » ابتسم هرغر لهذا وضحك ضحكة قصيرة ثم قال « فى حال الخوف حتى العربى يقول الحقيقة » ثم عدا بجواده قدما وهو يبتعد عنى لينقل كلماتى الى بيولف الذى ضحك بدوره . وكم سر محاربى بيولف أن يستمعوا الى نكتة فى هذه الظروف . بعدها وصلنا الى تلة ما أن وصلنا الى طرفها حتى توقفنا ورحنا ننظر الى معسكر الوندول تحتها . هاكم وصفا لامتداده امامنا كما رايت بهينى : كان هناك واد وكان فى الوادى دائرة من الاكواخ الحقيرة المصنوعة من القش والطين ، هزيلة البناء يستطيع طفل صغير أن يبنى افضل منها . وفى مركز الدائرة كانت نار كبيرة تشتعل وقد بدأت تخمد . ومع ذلك لم تكن هناك أية خيول أو حيوانات أو أية حركة ، كما لم تكن اية بادرة حياة من أى نوع ولقد راينا كل ذلك من خلال رقائق الضباب المنقلة .

ترجل بيولف عن حصانه وفعل المقاتلون نفس الشيء وأنا بينهم . وفى الحقيقة كان قلبى يدق واخذت انفاسى تتسارع بينما كنت انظر الى المعسكر المتوحش لهؤلاء الشياطين . سألت هامسا « ولماذا ليس هناك أى نشاط ؟ » اجاب هرغر قائلا « ان الوندول هم من مخلوقات

الليل كالبلوم والخفاش ، وهم ينامون طيلة ساعات النهار . ولهذا فهم نائمون الآن ، وسوف تنقضى عليهم ونذبحهم وهم يحلمون . « قلت وأنا أنظر الى الاكواخ الكثيرة . التى كنت أراها فى الاسفل « ولكننا قليلون » فاجاب هرغر وهو يقدم لى كأسا من شراب الميد « عددنا كاف » فاخذت الشراب منه بامتنان حامدا لله على أنه غير محرم ولا حتى مكروه (١) . وفى الحقيقة بدأت أحس بتدوق لسانى وترحيبه بهذه المادة التى كنت أظنها فى الماضى قدارة كريهة : وهكذا تتوقف الأشياء الغريبة عن أن تكون كذلك بفعل التكرار . وبنفس الطريقة لم أعد أهتم برائحة الوندول النتنة المخيفة لائنى كنت قد تعودت على استنشاقها لمدة طويلة ولم أعد أحس بعميقها . وأهل الشمال غريبو الاطوار جدا فيما يتعلق بالشم . فهم كما قلت غير نظيفين ، وهم يأكلون كل أنواع الطعام والشراب السيئ ، ولكنها حقيقة أيضا أنهم يقدرون أنوفهم تقديرا ما بعده تقدير وفوق كل أجزاء الجسد الأخرى . ففقدان أذن فى المعركة لاعتبر أمرا عظيما ، كما أن فقدان أصبع يد أو أصبع قدم أو حتى فقدان اليد هو قضية أكثر خطورة ولكنها أيضا ليست ذات بال ، ولكنهم يعدون فقدان الأنف مساويا للموت نفسه وحتى لو كان ذلك الفقدان خسارة أرببة الأنف وحدها والتى قد تنظر اليها الشعوب الأخرى على أنها إصابة طفيفة جدا .

وكسر عظم من عظام الأنف بسبب معركة أو لطمة ليس أمرا ذا بال، فالكثيرون منهم لهم أنوف محطمة لهذا السبب . ولكنى لا أدرى سببا لهذا الخوف الكبير عندهم من قطع الأنوف (٢) .

(١) ان تحريم الاسلام للكحول هو حرفيا تحريم لفاكهة العنب المخمر ، أى الخمرة . بينما مشروبات العسل المخمر فهي مباحة للمسلمين .

(٢) ان التفسير النفسى المعتاد لمثل هذه المخاوف من فقد بعض أعضاء الجسم من أنها تمثل القلق من التشوه (قلق النفس) . فى دراسة أجريت عام ١٩٣٧ عن تشوهات صورة الجسد فى المجتمعات البدائية بلاسط انكلوهارت أن الكثير من الثقافات لها رأى واضح ومباشر فى هذه المعتقدات . فقبائل الناناماني فى البرازيل مثلا ، تهاب الغاطئين جنسيا يقطع أذنهام اليسرى ، وهو عقاب يعتقد بأنه يضيف القوة الجنسية . بينما مجتمعات أخرى تعطى أهمية كبيرة لفقدان الأصابع وأصابع الأرجل أو كما هو الحال عند الشماليين ، فقدان الأنف . وهى خرافة شائعة فى كثير من المجتمعات تلك القائلة بأن حجم أنف الرجل ينعكس حجم قفصه .

ويقول امرسون أن الأهمية المطلقة للأنف فى المجتمعات البدائية تعكس قيمة وظيفية منذ الايام التى كان فيها الناس صيادين ويعتمدون الى حد كبير على حاسة الشم لايجاد الفرائس ولتجنب الإعداء . ففى حياة مثل هذه كان فقدان حاسة الشم أذى خطيرا حقا .

ترك محاربو بيولف وقد أصابهم الرعب ، وأنا طبعاً بينهم ، تركوا خيولهم فوق التلال ، وبما أن هذه الحيوانات لا يمكن أن تترك وحدها لأنها كانت خائفة جزئة . فكان لابد أن يبقى أحد أفراد مجموعتنا معها ، وكنت أأمل أن أكون أنا المختار لتلك المهمة ، إلا أنها كانت من نصيب هلف ، إذ كان قد أصيب بجرح وكان ذا فائدة محدودة جداً . وهكذا رحنا نحن الآخرون نهبط التلة بتعب ظاهر مابين الشجيرات الضعيفة والاجمات الميتة عبر المنحدر باتجاه معسكر الوندول . كنا نتحرك خلسة ولم نسمع أى انذار بل سرعان ما كنا فى قلب قرية الشياطين .

لم يتلق بيولف بحرف بل كان يعطى كل أوامره وتوجيهاته بيديه ومنه أدركت أن علينا أن نتحرك ضمن مجموعات كل منها من مقاتلين وكل مجموعة تتحرك باتجاه مختلف . كان على أنا وهرغر أن نهاجم اقرب الاكواخ الطينية وكان على الآخرين أن يهاجموا الاكواخ الأخرى . وقد انتظر الجميع حتى استقرت المجموعات خارج الاكواخ ثم وبصيحة كانت اشارة رفع بيولف سيفه العظيم وندغى وقاد الهجوم . اندفعت مع هرغر داخل احد الاكواخ والدم يغلى فى راسي وسيفي خفيف كبريشة فى يدي . وكنت والله مستعداً لأعظم معركة فى حياتي . لكننى لم أر شيئاً فى الداخل إذ كان الكوخ مهجوراً عارياً أيضاً باستثناء بعض الفراش القش الحقيق الذى كان قمىء المنظر الى حد كان يشبه معه أعشاش بعض الطيور .

فاندفعنا خارجين وهاجمنا الكوخ الطينى التالى . ومرة أخرى وجدناه خالياً . فى الحقيقة كانت جميع الاكواخ خالية وقد أصاب رجال بيولف غضب كان من الشدة بحيث راح الواحد منهم يحدق بالآخر وعلى وجوههم تعابير الدهشة والتعجب .

وبعد ذلك دعانا أكثفو فتمعنا عند واحد من هذه الاكواخ كان اكبر من الاكواخ الباقية . وقد وجدته أيضاً مهجوراً ككل الاكواخ الباقية ، ولكن داخله لم يكن عارياً أجرباً ، فافرض الكوخ كانت مغطاة بعظام هشة راحت تتكسر تحت أقدامنا كعظام الطيور رقيقة هشة متكسرة . أصابتنى من ذلك دهشة عظيمة فانحنيت لآتعرف على طبيعة هذه العظام . ويا للصدمة التى أصبت بها عندما رأيت الخطوط المنحنية لمحجر عين هنا وبعض أسنان هناك .

فى الحقيقة كنا نقف على سجادة عظام الوجوه البشرية ، وكبرهان اضافى على هذه الحقيقة الرهيبة كانت قد الصقت فوق احدى الجدران اجزاء من جماجم البشر وقد وضعت مقلوبة كما توضع كثير من قدور الفخار ولكنها كانت بيضاء متألقة البياض . شعرت بالغثيان وغادرت الكوخ لافرج معدتى . هنا اخبرنى هرغر ان الوندول ياكلون ضحاياهم كما ياكل الكائن البشرى البيض او الجبن . هذه هى عادتهم ورغم شناعة هذا الامر عندما نتامله فانه مع ذلك حقيقة أكيدة .

فى هذه اللحظة نادانا محارب آخر لندخل كوخا آخر . وهنا رايت مايلى : كان الكوخ اجرد عاريا ما عدا كرسى كبير يشبه العرش محفور من قطعة هائلة الحجم من الخشب . وكان لهذا الكرسى ظهر عال يشبه المروحة ومحفور على شكل اقاعى وشياطين . وعند اسفل الكرسى كانت بقايا عظام الجماجم وعلى ذراعى الكرسى حيث يريح صاحب الكرسى يديه كان هناك دم وبقايا مادة جيئية بيضاء كانت عادة مخ بشرى . اما رائحة هذه الغرفة فكانت لا تطاق ابدا .

وحول هذا الكرسى وفى كل اتجاه كانت هناك نحوت حجرية صغيرة تمثل امرأة حبلى كالتى وصفتها آنفا . وكانت هذه النحوت تشكل محيط دائرة حول الكرسى

قال هرغر « هذا هو عرشها حيث تحكم » وكان صوته خفيفا مرتعبا .

ولم اكن قادرا على ادراك مغزى ما قال وكنت اشعر بالغثيان فى قلبى وفى معدتى . وسرعان ما وجدت نفسى افرغ معدتى على التراب . وحتى هرغر وبيولف والآخرين جميعا اصبوا بامتعاض شديد . ولكن لم يفرغ اى منهم معدته ، ولكن بدلا من ذلك تناولوا جمرات متأججة من النار واضرموا النار بالاكوخ التى راحت تحترق ببطء لانها كانت رطبة .

وهكذا صعدنا التلة . وامتطينا جيادنا تاركين ارض الوندول وغادرنا صحراء الرعب . كان الحزن والاسى يرسم الان على وجوه بيولف ومحاربيه جميعا لان الوندول قد تجاوزهم فى الدهاء

والذكاء بتركهم أو كارهم توقعنا لهذا الهجوم . أما حرق اكواخهم فان الوندول لن يعدوه خسارة كبيرة .

الفصل الخامس والعشرون

مؤتمر الاقزام

عدنا كما رأيتنا ، الا ان جياندا كانت تعدو بسرعة اكبر لانها الان كانت اكثر حماسا . واخيرا هبطنا من التلة وراينا السهل المنبسط يمتد امامنا وعن بعد وراءه راينا طرف المحيط والمستوطنة وقاعة روث غار الكبرى .

وفجأة استدار بيولف مبتعدا عن وجهتنا وقادنا باتجاه آخر نحو جرف صخري عال ، تتلاطمه رياح المحيط . عدوت بحصاني حتى وصلت الى هرغر وسألته عن سبب ذلك فأجاب بأن علينا ان نبحث عن اقزام تلك المنطقة .

اصبت بدهشة عظيمة لسماعى هذا الكلام لان اهل الشمال ليس بينهم او فى مجتمعهم اقزام على الاطلاق ، وهم لا يرون ابدا فى الشوارع وما رأيت احدا منهم يجلس عند اقدام الملوك ، ولن تجد ابا منهم يعد النقود او يدون الحسابات او يقوم باى من تلك الحسابات التى اعتدنا ان نرى الاقزام يفعلونها (١) . ولم يذكر امامى اى من اهل الشمال هؤلاء الاقزام قبلا وكنت افترض دائما ان شعبا من المردة كشعب الشمال لا يمكن ان ينتج اقزاما (٢) .

وصلنا الان الى منطقة ملاى بالكهوف تعصف فيها الرياح والاصداء . ترجل بيولف عن حصانه وفعل كل محاربة نفس الشيء وراحوا يتقدمون على الاقدام . سمعت صوت صغير ثم رأيت فقاعات

(١) فى منطقة البحر الابيض المتوسط ومنذ العصور الرعوية كان ينظر الى الاقزام على انهم خارقو الذكاء واهل للثقافة ، كما ان مهمات مسك دفاتر الحسابات والتعامل المال كانت توكل اليهم دائما .

(٢) من بين التسمين ميكل عظميا تقريبا الذى يمكن ان تنسب وبثقة الى فترة الفايكنج باسكتلندا فان الطول الوسطى للرجل مثاليه هو حوالى ١٧٠ سم .

من البخار تتصاعد من هذه الكهوف العديدة . دخلنا احد هذه الكهوف وهناك التقينا بالاقرام .

كان مظهرهم كالتالى : الواحد منهم فى حجم القزم العادى ولكنه يتميز برأس هائل الحجم ، وبملامح يبدو عليها الهرم المفرط . كان هناك اقزام ذكور واثاث وكانوا جميعا يبدو عليهم السن المتقدمة . كان الذكور منهم ملتحين وقورين ، والنساء ايضا كان لهن بعض الشعر على وجوههن ولذا كن يحملن مظهر الرجال وكان كل قزم يرتدى معطفا من الفراء او جلد السمور ، كما كان يرتدى حزاما رقيقا من الجلد مزينا بقطع من الذهب المطروق .

عند وصولنا حيانا الاقزام بأدب ودون أى خوف . قال لى هرغر بان هذه المخلوقات ذات قوة سحرية وهى لذلك لا تخاف أى انسان على سطح الارض . ولكنهم مع ذلك يخشون الخيول ، ولهذا السبب تركنا خيولنا خلفنا . واضاف هرغر أن قوى القزم الخارقة انما تكمن فى هذا الحزام الرقيق ، وأن القزم على استعداد لان يفعل أى شئ لاستعادة حزامه اذا ما فقده .

كما اضاف هرغر قائلا أن مظاهر السن المتقدم على وجوه الاقزام هى امر صحيح ، لان القزم كان يعيش عمرا أطول من عمر أى انسان عادى . وقال لى ايضا أن هؤلاء الاقزام بالفون جنسيا منذ أول سنوات شبابهم ، وأنهم يولدون وقد نبت لهم شعر العانة او ملتقى الفخذين كما أن الواحد منهم يملك عضوا ذكرا بحجم غير عادى . وفى الحقيقة فإن الوالدين انما يميزان لاول وهلة فيما اذا كان طفلها قزما بهذه الميزة كما يميزان بهذه الطريقة ان طفلها مخلوق سحرى يجب أن يحمل الى التلال ليعيش مع الآخرين من جنسه ، فاذا ما تم هذا يتقدم الابوان شكرهما الى الآلهة ويذبحان القرابين ، لان ولادة قزم تعتبر بنظرهم حظا عظيما عاليا للوالدين .

هذا هو ما يمتقده اهل الشمال كما حدثنى عنه هرغر ، ولكننى لست على علم بحقيقة الامر ، وانما اقص ما قيل لى .

قلت اذن اننى رايت أن الصغير والبخار كانا يتصاعدان من حلل عظيمة (قدور) هائلة الحجم كانت تغطس فيها شفرات من الفولاذ المصقول لتنقية معدنها ، فهؤلاء الاقزام يصنعون أسلحة عالية الجودة

ومفضلة هند اهل الشمال . ولقد رأيت محاربى بيولف يهبلون ابصارهم فى اركان الكهوف بشوق واهتمام كما لو كانوا نساء فى سوق تباع اقل أنواع الحرير .

سال بيولف هذه المخلوقات أسئلة كثيرة ، طلب اليه بعدها ان يتجه الى اعلى قمة الكهوف حيث كان يجلس قزم وحيد اكبر سنا من الآخرين له لحية وشعر شديدا البياض صافيا ، وله وجه مجعد مفضن . هذا القزم كان يدعى « تن غول » ، اى قاضى الخير والشر كما تعنى ايضا العراف .

لا بد انه قد كان هذا العراف تلك القوى السحرية التى قال الجميع انه يملكها ، لانه حيا بيولف باسمه قورا ، ورجاه ان يجلس معه . جلس بيولف بينما تجمعنا واقفين على مسافة غير بعيدة منهما .

لم يقدم بيولف الى الـ « تن غول » اية هدايا ، كما ان رجال الشمال لم يقدموا اى مظهر من مظاهر الاحترام والانحناء لهؤلاء البشر الصغار : فهم يعتقدون ان اعطيات الاقزام يجب ان تقدم مجانا ، ومن الخطأ ان تستحث عطاءات الاقزام بالهدايا . وهكذا جلس بيولف وراح « التن غول » ينظر اليه بامعان ثم اطبق عينيه وبدأ يتكلم وهو يهز جذعه الى الخلف والامام وهو جالس . كان التن غول يتحدث بصوت عال حاد النبرات كصوت طفل وقد نسر لى هرغر معانيه كما يلى :

« يا بيولف انت محارب عظيم ولكنك التقيت بمعركة حياتك وبندك فى وحوش الضباب ، اكلة الموتى . سيكون هذا صراعا حتى الموت ، وستكون بحاجة الى كل قوتك وحكمتك لتتغلب على هذا التحدى » . واستمر يتحدث بهذا الشكل لبعض الوقت وهو يهتز الى الامام والى الخلف . وكان فحوى حديثه ان بيولف كان يواجه قدرا صعبا كنت ادركه كما كان يدركه بيولف نفسه بما فيه الكفاية . ومع ذلك حافظ بيولف على صبره وهدوئه .

كما لاحظت ايضا ان بيولف لم يظهر اى انزعاج حين راح القزم يسخر منه ، وهى السخرية التى كررها القزم عدة مرات . قال القزم : « لقد اتيت الى لانك هاجمت الوحوش فى المستنقع الاسن

المالح ، دون أن يجديك ذلك شيئا . ولهذا جئت الى تطلب النصيحة والتحذير ، كما يطلب الطفل ذلك من والده تسألني ماذا على أن افعل لان كل خطي قد أوقعت بي وفشلت . ثم ضحك المراف طويلا لهذا الحديث . عاد وجهه بعدها الى الجد والوقار مرة أخرى .

« ابي بيولف » استأنف المراف حديثه قائلا : « اننى ارى المستقبل ولكننى لا استطيع ان اخبرك الا بما تعرفه تماما . فانت وكل محاربك الشجعان قد استنفرتكم كل مهارتكم وشجاعتكم لتشنوا هجومكم على الوحوش فى صحراء الرعب . بهذا خدمتم انفسكم لان هذا لم يكن ابدا بطل حقيقى .

سمعت هذه الكلمات بكثير من الدهشة لان ما جرى بدا لى بطوليا حقا وبما فيه الكفاية .

ثم اضاف « الثن غول » قائلا « كلا كلا يا بيولف النبيل ! فقد انطلقت لتنجز مهمة كاذبة ، وكنت تدرك فى اعماق قلبك البطل انها لم تكن اهلا لذلك . وكذلك ايضا كانت معركتك مع « تنين الكورغن » المضىء لا تستحق النزال ، تلك المعركة التى كلفتك حياة محاربين كثيرين شجعان . فما القصد وما الهدف من كل خطئك هذه ؟ » ولكن بيولف لم يحر جوابا ، بل جلس الى جانب القزم وانتظر .

استأنف القزم حديثه قائلا : « ان تحدى بطل عظيم انما هو فى القلب وليس فى الخصم . ماذا يهم اذا انتقضت على الوندول فى أوكارهم وقتلت العديد منهم وهم نائمون ؟ قد تستطيع قتل الكثيرين الا ان هذا لن ينهى الصراع اكثر مما يمكن لبر الاصابع أن يقتل انسانا . فلكي تقتل انسانا عليك أن تفرز سيفك أو رمحك فى الرأس أو فى القلب ، وكذلك الامر مع الوندول . أنت تعرف كل هذا جيدا ولست بحاجة لاستشارتى أو لنصيحتى لتدركه . وبهذه الطريقة راح القزم وهو يهتز الى الامام والى الخلف يطهر نفس بيولف . ولقد تقبل بيولف توبيخاته وملامته برحابة صدر ، لانه لم يجب ولكنه اطرق برأسه فقط .

ثم استأنف « الثن غول » خطابه قائلا « لقد قمت بعمل رجل ، مجرد رجل ، وليس عمل بطل حقيقى . فالبطل ينجز من الاعمال

ما لا يجرؤ رجل على القيام به . فلكي تقتل الوندول عليك ان تضرب في الرأس وفي القلب . عليك ان تقهر امهم في كهوف الرعد . لم افهم معنى هذه الكلمات أبدا ، في حين استمر القزم يقول « أنت تعرف هذا وتعرف ان هذا كان الصحيح دائما ، خلال كل عصور الانسان . هل سيموت محاربوك الشجمان واحدا تلو الاخر ؟ أم أنك ستضرب امهم في الكهوف ؟ أنا لا اقدم لك بهذا نبوءة إنما اقدم لك الخيار ما بين البطل والانسان » .

هنا تتم بيولف بإجابة ما ولكنه تحدث بصوت منخفض ضاعت كلماته على مع صفير الريح التي كانت تعصف بمدخل الكهف . الا انه مهما كان فحوى هذه الكلمات فقد استأنف القزم حديثه قائلا : « ذلك هو جواب البطل يا بيولف ولم أكن اتوقع أى جواب آخر منك ، ولهذا فسادع مسماك » . ثم دعا القزم بعض بنى جنسه ليقربوا منه خارجين من زوايا ظلمة الكهف الى النور . وعندما كشفهم الضوء كانوا يحملون بأيديهم أشياء كثيرة .

قال الثن غول « هاك هذه الحبال المصنوعة من جلود الفقرة التي اصطلدناها في أول ذوبان الجليد . ستساعدك هذه الحبال على أن تصل مدخل كهوف الرعد من ناحية البحر » . قال بيولف « أنا اشكرك على هذا » . بعدها اضاف « الثن غول » يقول « وهاك أيضا سبعة خناجر طرقت بالبخار والسحر اقدمها لك ولمحاربيك . السيوف العظيمة لن تكون ذات فائدة أو جدوى في كهوف الرعد . فاحملوا هذه الاسلحة بشجاعة . وستنجزون مهمتكم وأمنيتكم » . اخذ بيولف الخناجر وشكر القزم عليها ، ثم وقف وهو يقول : « ومتى تقوم بهذه المهمة ؟ » .

اجاب « الثن غول » قائلا « أمس افضل من اليوم ، وغدا افضل من اليوم الذي يليه . لذا اسرع ونفذ نياتك بقلب ثابت وساعد قوى » .

ويعود بيولف للسؤال قائلا : « وما الذي سيحدث ان نحن نجحنا ؟ » . ويجب القزم على الفور « عندها سيجرح الوندول جرحهم المميت ، وسيقلب الوندول وامهم الراى في أكثر من أمر وهى في نوع الموت الاخير وللمرة الاخير . وبعد هذا المصاب الاخير

سيحل السلام في هذه الأرض وسيهود نور الشمس خالدا فيها أبدا . أما اسمك فسيحل في أغاني المجد والخلود في تصور بلاد الشمال الى ابد الابدین » .

هنا يتمم بيولف قائلا « هكذا تغنى أغاني الرجال الاموات » .
ويحبب القزم وهو يضحك ثانية وبهتة تشبه ضحك الاطفال
أو البنات الصغار « ذلك صحيح . وتغنى كذلك أفعال الابطال الذين
يعيشون بهذا الشكل أيضا ، لكن أفعال الرجال العاديين لا تغنى
أبدا ولا تصير أناشيد أبدا . أنت تعرف ذلك جيدا » .
ويغادر بيولف الكهف بعد أن يقدم لكل منا خنجرا من خناجر
الاقزام . ونهبط خارجين من تلك الشقوق الصخرية التي تعصف
بها الريح ونمود الى المملكة والى قاعة روث غار الكبرى بينما الليل
يهبط بطيئا .

كل هذه الامور حدثت ورأيتها بأم عيني .

الفصل السادس والعشرون

احداث الليلة السابقة للهجوم

لم يات الضباب تلك الليلة فقد هبط من على التلال ولكنه توقف
بين الأشجار ولم يوحف باتجاه السهل . في قاعة روث غار الكبرى
أقيمت وليمة عظيمة شارك فيها بيولف ورجاله باحتفال عظيم . وقد
ذبح كبشان عظيما وألتهما بالكامل (١) . وقد شرب الجميع كميات
هائلة من شراب الميد ، وضاجع بيولف لوحده أكثر من نصف دزينة
من الفتيات الجوارى وربما أكثر من ذلك . ولكن رغم كل هذا المرح
لم يكن لا هو ولا رجاله مسرورين حقا . فمن وقت لآخر كنت أراهم
ينظرون الى حبال جلد الفقمة وخناجر الاقزام التي كانت قد كومت
في إحدى زوايا القاعة .

وانضممت أنا الى صخب المحتفلين ، فقد صرت أشعر اننى واحد
منهم ، أو هذا ما بدا لى على الأقل بعد أن قضيت كل هذا الوقت

(١) يقول دالمان (عام ١١٢٤) « انه في مناسبات الاحتفالات كان يؤكل لحم الكبش
لزيادة الحيوية الجنسية لان الحيوان الذكر ذا القرون كان يعتبر متفوقا على الانثى »
ولكن في الواقع فان كلا الكبش والتمجة كان لهما قرون هذه الفترة .

فى صحبتهم . والحقيقة اننى فى تلك الليلة شعرت اننى قد وُلدت شماليا .

اما هرغر وقد اخذت منه نشوة الخمر كل ماخذ فقله حدثنى بصراحة عن أم الوندول فقال : « أم الوندول هذه عجوز مفرقة فى الهرم وتعيش فى كهوف الرعد . وتقع كهوف الرعد هذه فى صخرة من صخور الجرف غير بعيدة من هنا . ولهذا الكهوف فتحتان واحدة عن طريق البر والثانية من البحر ، ولكن المدخل البرى عليه حراسة مشددة يقوم بها الوندول الذين يحمون أهمهم العجوز ، ولهذا فنحن لانستطيع أن نهاجمهم من ناحية البر لاننا بهذه الطريقة سنقتل جميعا . لهذا سنهاجم من البحر . »

سألته : « وما هى طبيعة أم الوندول هذه ؟ » فأجاب هرغر قائلا انه ما من شمالى يعرف ذلك معرفة صحيحة ، ولكن يحكى أنها عجوز هرمة ، أكبر سنا من الحيزبون الشمطاء التى يدعونها ملاك الموت ، وأنها أيضا كانت مخيفة المنظر ، وأنها كانت ترتدى الانامى فوق رأسها وكأنها أكائيل الفار ، وأنها أيضا قوية فوق كل تصور . وأضاف أخيرا أن الوندول كانوا يلجأون إليها لترشدهم فى كل مناحى حياتهم (١) . ثم أشاح هرغر بوجهه عنى وغاب فى سبات عميق .

(١) قال جوزيف كاترل ان « هناك نزع فى الاسطورة الجرمانية والنورسية للنظر الى النساء على أن لهن قوى خاصة ومزايا سحرية ولهذا تجب خشيتهن وعدم الثقة بهن . كل الالهة الرئيسية من الرجال ، ولكن الفالكارينز Valkyries والذى يعنى حرفيا « مختارى القتل » ، هن نساء يتقلن المحاربين الاموات الى الجنة . وكان يعتقد أن هناك ثلاثة أقدار تخلق مع ولادة كل انسان وتقرر مصير حياته . هذه الاقدار تدعى أوث أى الماضى ، فريتهاندى أى الحاضر وسكلد أى المستقبل . هذه الاقدار « تحيك قدر الانسان » ، والحياتكة هى عمل النساء . وفى التصويرات الشعبية كانت هذه الاقدار والآلهة تصور على أنها صبايا شابات . أما وورد wyrd وهو الاله الانجلى سكسونى الذى كان يتحكم بالقدر فقد كان أيضا الها ويفعوى أن الربط ما بين النساء وقدر الرجل كان استمرارية لمقامهم سابقة عن النساء باعتبارهم رموز الحب قائلات الحب كن يتحكمن بنمو وازهار المحاصيل وكل الاشياء الحية على الارض .

ويلاحظ كاترل أيضا ان « فى الواقع العمل ندرك أن العرافة والقاء التعاويذ وطقوسا عرافية أخرى إنما كانت توكل للنساء المسنات فى المجتمع النورسى أو الشمالى . وأضاف الى ذلك فان الافكار الشعبية أو العامة عن النساء كانت تنضج عنصرا قويا من الشك . فطبقا Havamal لا يجوز لاحد أن يثق بكلمات فتاة أو امرأة متزوجة ، لان قلوبهن قد صنعت على شكل دوائر دوارة . إضافة الى انهن غير ثابتات على أمر بطبيعتهن » .

يقول بنديكسن « كان يوجد بين أوائل الاسكندنافيين نوع من تقسيم القوة حسب الجنس : فالرجال كانوا يتحكمون بالقضايا الطبيعية والمادية فى حين أن النساء يتحكمن بالقضايا النفسية » .

والان حدثت هذه الحادثة ، في أعماق الهزيع الاخير من الليل ،
وبيئنا كانت الاحتفالات تقترب من نهايتها والمحاربون على وشك
النوم طلب بيولف الى ان اذهب اليه . جُلس بجانبى وراح يشرب
الميد من قرن تحول الى كأس . لم يكن مخمورا ، كما رأيت ، وكان
يتحدث ببطء بلغته الشمالية بحيث أفهم مقصده . قال لى اولا :
« هل أدركت معنى كلمات القزم الشبه غول ؟ » فأجبت بأننى فهمت
ماقال بمساعدة هرغر الذى كان يشخر الان قربنا . قال لى بيولف :
« اذن فأنت تعلم أننى ساموت . » قال هذا بعينين مضيئتين وب نظرة
ثابتة . لم ادر بم أجيب أو أى استجابة أبديها الا اننى فى آخر الامر
قلت له على الطريقة الشمالية « لا تصدقن أى نبوءة حتى تشر (١) » .
قال لى بيولف أيضا : « لقد رأيت وتعرفت على كثير من عاداتنا .
قل لى الحقيقة . هل ترسم الاصوات ؟ » فأجبت بأن نعم . « اذن
فكن حريصا على سلامتك ، ولا تبالغ فى جرائك وشجاعتك . انت
الان تلبس وتتحدث كشمالى وليس كجنى . فاعمل جهدك لان
تبقى حيا . »

وضعت يدى على كتفه كما رأيت رفاقه المحاربين يفعلون عندما
يحيون فابتسم عندها وقال « انى لا أخاف شيئا ولست بحاجة الى
الترويح عنى . انى اطلب اليك ان تعمل من اجل سلامتك ولمصلحتك
انت . اما الان فافضل شيء نفعله هو ان ننام » .

قال هذا وأشاح بوجهه عنى مكرسا كل انتباهه الى احدى
الجوارى التى راح يضاجعها على مسافة لاتزيد عن بضع خطوات
منى . فأدبرت وجهى بعيدا وأنا أسمع أنات وضحكات تلك المرأة ،
غير أننى سرعان مارحت فى سبات عميق .

(١) هذه صياغة معدلة شائعة بين الشماليين وهى بصيغتها الكاملة على الشكل التالى:
« لا تمتدحن النهار حتى ياتى المساء ، ولا المرأة حتى تحرق ، ولا السيف حتى يجرب
ولا الصبيبة العذراء حتى تتزوج . ولا الجليد حتى يتبدد ، ولا تمتدحن شرايا حتى
يشرب » . هذه النظرة العكسية الواقعية والساخرة الى حد ما الى الطبيعة البشرية والى
العالم انما هى أمر يشاطر العرب الاسكندنافيين الايمان به . فالاسكندنافيين تماما غالبا
ما يعبر العرب عن هذا بالفاظ ساذجة أو ساخرة . وهناك قصة مولية عن رجل سال
حكيمًا : « لفترض اننى كنت مسافرا فى الريف وكان على أن أتوضأ فى نهر . فالى
أى جهة على أن أول وجهى وأنا أتوضأ ؟ » ويجيب الحكيم قائلا « اتجه باتجاه ثيابك
حتى لا تسرق » .

الفصل السابع والعشرون

كهوف الرعد

قبل أن تضىء أولى خيوط الفجر السماء ، كان بيولف ورجاله وأنا بينهم ننطلق على ظهور الجياد تاركين مملكة روثغار شاقين طريقنا على حافة الجرف المطل على البحر . لم اكن اشعر بأنى على مايرام فى ذلك اليوم فقد كان رأسى يؤلمنى ، كما كانت معدتى تؤلمنى من آثار احتفالات الليلة السابقة . ومن المؤكد ان كل محاربى بيولف الاخرين كانوا فى حالة مشابهة ، ومع ذلك لم يبد أى من هؤلاء الرجال أى علامة من علامات الضيق . عدت خيولنا بقوة وهى تلتف على اطراف الجروف التى كانت على طول ذلك الساحل عالية مخيفة وسحيقة ، والتى كانت تتهاوى على شكل صفيحة من الحجر الاغبر باتجاه البحر المزيد الهائج تحتها . وفى بعض المناطق على هذا الشريط الساحلى كنت ترى بعض الشيطان الصخرية ، الا ان الارض الخضراء والبحر غالبا ماكانا يلتقيان مباشرة والامواج تتحطم كالرعد على الصخور . هكذا كان الوضع فى معظم اجزاء الساحل .

رأيت هرغر وهو يحمل فوق حصانه جبال جلد الفقمة التى اخذناها من الاقزام فأسرعت خطى جوادى لالحق به . سألته من هدفنا فى ذلك اليوم ، ولو انى فى الحقيقة لم اكن مهتما كثيرا بهذا الهدف فقد كان رأسى يؤلمنى ومعدتى تحترق احتراقا اليما .

قال هرغر « فى هذا الصباح سنهاجم ام الوندول فى كهوف الرعد . وسنقوم بهذا الهجوم من البحر كما قلت لك بالامس » .

وبينما كنت راكبا نظرت من فوق جوادى الى البحر فى الاسفل الذى كانت امواجه تتحطم فوق الجروف الصخرية ، وسالت « هل سنهاجم بواسطة السفن ؟ » اجاب هرغر وهو يضرب يده على جبال جلد الفقمة « كلا » . عندها أدركت قصده فى أننا سيكون علينا ان نتدلى من فوق الجروف بواسطة الجبال ثم بطريقة ما او بأخرى سندخل تلك الكهوف . كان خوفى لايوصف لمجرد هذا التصور فلم

أكن أحب أبدا أن أكون معرضا للسقوط من الأماكن العالية . حتى
البنائيات العالية في مدينة السلام كنت أتجاسرها . عندما عبرت عن
أحاسيس هذا لهرغر قال لي « اعترف بالجميل فانك محفوظ » .
سألت من مصدر حظي فأجاب هرغر قائلا « إن كنت تخاف الأماكن
العالية فانك اليوم ستتقلب على هذا الخوف وهكذا ستكون قد
تقلبت على تحد عظيم وستعد بين الإبطال » . فقلت له « أنا لا أريد
أن أكون بطلا » . وما أن سمع هذا حتى ضحك وقال انني انما اعبى
عن مثل هذه الآراء لانني عربي وحسب . ثم اضاف انني متحجر
الراس وهو تعبير كان الشماليون يعنون به حالة مابعد الشرب أو
السكر . وكان ذلك صحيحا كما سبق وبيئت .

وكان صحيحا ايضا انني كنت شديد الحزن والقلق لأجرد التفكير
بان على هبوط الجرف بتلك الطريقة ، وفي الحقيقة كان شيمورى
كما يلى : كنت على استعداد أن اضاجع امرأة في الحيف ، بل كنت
على استعداد أن اشرب من كأس ذهبية أو أكل روث خنزير ، وأن
أقتل عيني حتى وأن أموت أو أن أفعل كل هذه الأشياء مجتمعة
على انحدر من على ذلك الجرف الملعون . وازافة لذلك كنت اعانى
من مزاج متعكر . قلت لهرغر « قد تكون أنت وبيولف وكل جماعتكم
أبطالا كما قد يروق لزوجكم ولكن لا علاقة لى انا بكل هذا الامر ولا
أريد أن أكون واحدا منكم » . ضحك هرغر لكلماتي ثم نادى بيولف
وحده بسرعة . أجابه بيولف وهو ينظر من فوق كتفه وكانما
يقمز بى . وهنا قال لى هرغر : « بيولف يقول ان عليك أن تفعل كما
نفعل . » وفي الحقيقة أحسست الان باننى أغرق في حالة يأس فقلت
لهرغر ، « أنا لا أستطيع أن أفعل ذلك . وان أنتم أجبرتمونى على أن
أفعله فسأموت حتما . » سال هرغر « كيف ستتموت ؟ » أجبت
« اننى سأفعل قبضتى عن الحبال . » هذا الجواب جعل هرغر
يضحك من أعماقه مرة أخرى وراح يعيد كلماتي على مسمع من جميع
الشماليين فضحكوا جميعا لما قلت . بعد ذلك تحدث بيولف بكلمات
قليلة . قال لى هرغر « ان بيولف يقول انك ستحل قبضتك اذا
ارخيت الحبال من يديك ، ولن يفعل ذلك الا أحقق مجنون . وبيولف
يقول انك عربي ولكنك لست مجنونا . » وهاكم وصفا حقيقيا لطبيعة

الرجال : قال بيولف اننى كنت أستطيع الهبوط على الجبل ، وانه نتيجة كلامه صرت أعتقد به وأصدقته قدر ما يصدق هو وشعرت بالسعادة تدخل قلبى ولو بقدر قليل . وقد لاحظ هرغر ذلك فقال : « كل انسان يحمل فى طياته نوعا من الخوف خاصا به ومقصورا عليه . وهكذا تجد رجلا يخاف الاماكن المقلقة وآخر يخاف الفرق ، بينما كل منهما يضحك على الآخر ويدعوه غيبا . وهكذا فان الخوف ليس الا مجرد هواية مفضلة يجب أن تعتبر من نوع تفضيل امرأة على أخرى أو لحم الضأن على لحم الخنزير أو الملقوف على البصل وما الى ذلك . نحن نقول الخوف هو الخوف »

لم اكن فى مزاج يسمح لى بتأمل فلسفاته ، وقد أخبرته بذلك وفى الحقيقة صرت أحس باننى أكثر قربا الى الغضب منى الى الخوف . ومرة أخرى ضحك هرغر فى وجهى وقال هذه الكلمات : « الحمد لله الذى وضع الموت فى نهاية الحياة وليس فى بدايتها » .

قلت مجيبا باقتضاب اننى لم اكن أرى فائدة فى استعجال النهاية ، فأجاب هرغر قائلا « فى الواقع لأحد يرى ذلك » ، ثم اضاف « انظر الى بيولف . لاحظ كيف يجلس منتصبا وكيف يهزم حصانه متقدما مع انه يعرف بما لا يقبل الشك بأنه سيموت عما قريب . » أجبته « أنا لا أعلم انه سيموت . » ويجيب هرغر قائلا « نعم ولكن بيولف لن يعرف ذلك » ثم امتنع هرغر عن اضافة أى شىء آخر وانطلقنا على ظهر خيولنا لبعض الوقت حتى استقرت الشمس ساطعة مشرقة فى كبد السماء . وأخيرا أعطى بيولف اشارته آمرا بالتوقف فترجل كل الرجال وبدعوا بالاستعداد لدخول كهوف الرعد .

كنت أعلم حق العلم أن هؤلاء الشماليين كانوا شجعانا الى حد التهور ، ولكنى حينما نظرت الى انحدار الجرف تحتتنا شعرت بقلب يلتوى وينقلب رأسا على عقب داخل صدرى ، وظننت لوهلة اننى سأفرغ معدتى فى أية لحظة . وفى الحقيقة كان الجرف سحيقا بلا حدود ليس فيه أى مقبض ليد أو قدم ، وكان ينحدر لمسافة ربما تصل الى اربعمائة خطوة . وفى الحقيقة كانت الامواج المتلاطمة بعيدة سحيقة تحتنا الى درجة بدت معها وكأنها صور أمواج مصفرة ، دقيقة رقيقة كأنهم رسوم فنان . ومع ذلك كنت أدرك انها كبيرة

كبر كل الامواج على الارض وأن الانسان سيدرك ذلك حالما يهبط الى مستواها في الاسفل .

كان الانحدار على هذه الجروف بالنسبة لى جنونا مابعد جنون من كلب مزبد . ولكن الشماليين كانوا مازالوا يندفعون قدما بطريقة طبيعية تماما . وأمر بيولف بفرز عصي خشبية قوية فى الارض ، وحول هذه الاوتاد ربطت جبال جلد الفقمة بينما راحت النهايات الحرة تتطاير على جانب الجروف .

وفى الحقيقة لم تكن الجبال طويلة بما فيه الكفاية لمثل هذه المسافة ، فكان لابد من استعادتها ثانية ووصل جبلين الواحد بالآخر لصنع جبل واحد كاف للوصول الى الامواج عند السفح .

وفى الوقت المحدد كان لدينا جبلان طويلان كانا يتدليان على جانب الجرف . تحدث بيولف للجمع فقال : « سأهبط أنا أولا ، وحينما أصل الى القاع ستعلمون جميعا ان الجبال قوية وأن الرحلة يمكن انجازها . ساكون بانتظاركم عند نهاية الجبل وعلى الحافة الضيقة التى ترونها فى الاسفل » .

ونظرت بدورى الى الحافة الضيقة . أن تسميها ضيقة يعنى أن تسمى الجبل لطيفا . كانت فى الواقع اضيق شريط من الصخر المسطح تلطمها امواج البحر وتفسلها باستمرار . ثم استمر بيولف قائلا « عندما تكون جميعا قد وصلنا القاع سيكون بإمكاننا أن نهاجم أم الوندول فى كهوف الرعد . » قال هذا بصوت ذات نبرة طبيعية كذلك التى يأمر بها عبدا بأن يهبط له أى حذاء منزلى أو أى عمل عادى . ودونما اضافة راح يهبط جانب الجرف .

والان اليكم وصفا لطريقة الهبوط والتى وجدتها رائعة مثيرة للاعجاب رغم أن الشماليين لم يكونوا يجدون فيها أمرا عجبا . فقد قال لى هرغر بأنهم يستعملون هذا الأسلوب لجمع بيوض طيور البحر فى فترات معينة من السنة ، حين تبني طيور البحر أعشاشها على سطح الجرف . ويتم الامر بالطريقة التالية : توضع أنشودة حول وسط الرجل الهابط بينما يجتهد كل زملائه لانزاله من على الجرف فى هذه الاثناء يقوم هذا الرجل من أجل تدعيم وضعه بالتمسك بجبل ثان يتدلى على سطح الجرف . وبعد ذلك يحمل الرجل

الهابط عصا قوية من خشب البلوط مثبتة من احدى نهايتها بسير
جلدى حول وسطه ، يستعملها كمصا ليدفع نفسه هنا وهناك بينما
يهبط السطح الصخرى (١) .

الفصل الثامن العشرون

بينما كان بيولف يهبط ويتضاءل حجمه في عيني لاحظت انه كان
يتأور بالانشوطة والجبل وبالعصا بمهارة فائقة ، ولكنى لم اخدع
نفسى أبدا بالاعتقاد بأن هذه كانت قضية تافهة ، فلقد رايت وادركت
انها كانت عملية صعبة وتتطلب مرانا طويلا . وبعد طول عناء وصل
بيولف السفح سالما ووقف على الحافة الضيقة بينما الموج يتلاطم
ويتحطم فوقه . وفي الحقيقة كان قد بلغ من الضالة والصفرة بحيث
صار من الصعوبة بمكان بالنسبة البنا أن نراه يلوح بيده وهي
الاشارة التى كانت تعنى انه وصل بسلام . والان استعادت الانشوطة
ومعها العصا البلوطية . ثم التفت الى هرغر قائلا « الان جاء دورك »
قلت اننى أشعر بالوهن واننى اتمنى أن ارى شخصا آخر يهبط قبلى
لكى اجيد دراسة طريقة الهبوط . اجاب هرغر « ان الامر يصبح
اكثر صعوبة مع كل هبوط لان عدد الذين يبقون هنا فى الاعلى يصبح
اقل كلما هبط رجل الى الاسفل . والرجل الاخير عليه ان يهبط
بدون العقدة بالمره ، وسيكون ذلك الرجل اكثف لان ساعديه كالحديد
واننا نمبر عن محبتنا لك بالسماح لك بأن تكون الرجل الثانى فى
الهبوط . هيا واهبط الان » .

ولقد رايت فى عيني انه لم يكن هناك امل فى التأخير ، وهكذا
ادخل وسطى فى العقدة وقبضت على العصا القليظة بيدي اللتين
كانتا إزجتين بسبب العرق ، كما كان كل جسمى أيضا لزجا زلقا
بسبب العرق ، وكنت ارتجف فى مهب الريح حين انزلت على جانب
الجرف ورايت لآخر مرة الرجال الشماليين الخمسة وهم يجهدون
فى شد الجبل ثم غابوا عن ناظرى وبدات اهبط .

(١) فى جزر القارذ فى الدانمرك مازالوا يمارسون اسلوبا شبيها فى تسلق الجروف
لجميع يمرض الطيور ، هذه البيوض التى تشكل مصدر غذاء أساسى لاهمال تلك الجزر .

كنت قد قررت بينى وبين نفسى ان ابتهل الى الله بصلوات كثيرة وان اسجل ايضا فى عين فكرى وفى ذاكرة روحى ، تلك المغامرات والتجارب العديدة التى يمر بها الانسان وهو يتدلى من حبال فوق هذا الجرف الصخرى الذى تمزقه الرياح . ولكن ما ان غبت عن ناظر الاصدقاء الشماليين فوقى حتى نسيت كل نيائى وهمست « حمدا لله » وأعدتها مرات ومرات كشخص فقد عقله أو كمن توقف عقله من العمل أو كطفل أو مجنون .

وفى الحقيقة لم أعد اذكر الان الا القليل مما جرى . فلا زلت اذكر ان الريح تقذف بالانسان جيئة وذهابا عبر الصخرة بسرعة لا يستطيع معها العين ان تثبت النظر على السطح الذى كان رماديا مزيئا للنظر، واننى كثيرا ما كنت اصطدم بالصخر فاهشم عظامى وأجرح جلدى. وقد ارتطم راسى مرة فخيل الى اننى ارى بقعا بيضاء ناصعة كأنها النجوم أمام عيني ، وظننت لوهلة اننى سأفقد الوعى الا ان ذلك لم يحصل . وفى الوقت المحدد والذى بدا لى فى الواقع انه كان يبادل طيلة حياتى بل وأكثر وصلت السفح وامسك بيولف بى من كفى وقال انى هبطت هبوطا جيدا .

وعادت المقدمة فارتفعت ثانية بينما كانت الامواج تتحطم فوقى وفوق بيولف بجانبى . وكنت أحاول جاهدا ان احتفظ بتوازنى على هذه الحافة الزلقة ، وقد شغل هذا ذهنى وانتباهى الى حد لم اراقب فيه الاخرين وهم يهبطون الجرف . فقد كانت رغبتى الوحيدة هى فى ان امنع الامواج من ان تقذف بى فى البحر . وفى الحقيقة رأيت بعيني ان الامواج كانت أعلى من ثلاثة رجال يقف الواحد منهم فوق الاخر ، وحين كانت تلطم الموجة الصخر كنت احس للحظة بفقدان الوعى وكأنى فى دوامة من الماء البارد وقوته تقذف بى بحلقة دائرية . وكثيرا ما قدتنتى هذه الامواج وأخلت توازنى وكنت أنضج بالماء من كل جوانب جسدى وأرتجف الى حد كانت أسناني معه تصطك كما تفعل الخيول العادية . ولم أستطع ان أنطق بكلمة واحدة بسبب أسناني المصطكة .

هبط جميع محاربى بيولف بسلام ، وكان اكثفوا آخر من هبط بقوة عضلات مساعديه وحسب . وعندما لامست قدماه حافة الجرف

أخيرا كانت ساقاه ترتجفان دون أن يستطيع التحكم بهما كما
منتفض الإنسان الذى يصارع نزع الموت . وكان علينا أن ننتظر بعض
الوقت حتى تمالك نفسه ثانية .

بعد ذلك تحدث بيولف : « سننزل فى الماء ثم نسبح حتى الكهف .
وساكون اول السابحين . احملاوا خناجركم بين أسنانكم ، بحيث
تكون ذراعا كل منكم طليقة فى مصارعة التيارات والامواج » .

نزلت على كلمات الجنون الجديد هذه كالصاعقة فى وقت لم أعد
أستطيع فيه تحمل أى جهد آخر . فقد بدت خطة بيولف لعينى
حماقة مابعدا حماقة . ولقد رأيت الامواج تتحطم وتتفجر فوق
الصخور المتداخلة ، كما رأيت الامواج تنسحب بقوة مارد جبار
لكى تستعيد قوتها ثانية وتعود الى اللطم من جديد . وفى الحقيقة
اعتقدت وأنا أراقب كل هذه انه ما من انسان يستطيع أن يسبح
فى تلك المياه وأنه لابد وأن يتناثر الى شظايا عظام فى رمشة عين .

ولكنى لم أحتج ولم أغضب فقد تجاوزت حدود كل خوف .
أعتقد اننى كنت قريبا بما فيه الكفاية من الموت الى حد لم يعد يهمنى
معه ان انا اقتربت أكثر فأكثر . وهكذا أخذت خنجرى الذى وضعته
فى جزامى لان أسنانى كانت ماتزال تصطك ببعضها عاجزة عن أن
تمسك بالخنجر فى فمى . أما عن الشماليين الاخرين فلم تبد عليهم
أية آثار للبرد أو للتعب ، بل كانوا يحيون كل موجة وكأنها منشأة
جديد . وكما كانوا يتسمون بسعادة انتظار المعركة القادمة ، وق
كرهتهم لهذا الشعور الأخير .

كان بيولف يراقب حركة الامواج ليختار الفرصة المناسبة ، ثم
قذف بنفسه فى الموج المتلاطم . ابطأت ثم دفعنى احدهم الذى كنت
دائما أعتقد انه هرغر . فسقطت فى البحر الهائج الدوار ذى البر
المخدر . وفى الحقيقة شعرت برأسى يدور وينقلب رأسا على عقب
واموج الى هذا الجانب أو ذاك ، ولم أكن أستطيع رؤية أى شىء سور
المياه الخضراء . ثم رأيت بيولف وهو يرفس الامواج فى أعماق
البحر فتبعته بينما راح يسبح فيما يشبه المر بين الصخور . و
بصرفت فى كل شىء كما كان يفعل وذلك على النحو التالى :

فى لحظة ما كان تلاطم الامواج يندفع خلفه يحاول أن يقتله ويد

به الى المحيط الهائل وكذلك الامر معى . وفى تلك اللحظات كان نمرلف يتمسك بالصخور بيديه ليقاوم التيار ، وكذلك فعلت . تمسكت بالصخور بقوة بينما رثنائى تكادان تتفجران . وبلحظة أخرى كانت الامواج المتلاطمة تقفز بالاتجاه الاخر فادفع بسرعة هائلة نحو الامام ، واقفز فوق الصخور والعقبات . ومرة أخرى كانت الامواج تغير اتجاهها وتنحسر الى الخلف كما فعلت فى السابق فاضطر لان اأحدو حذو بيولف واتعلق بالصخور . وفى الحقيقة كانت رثنائى تحترقان كما لو ان نارا مشتعلة كانت تلتهب فيهما ، وكنت أعرف فى أعماق أعماقئى اننى لم أكن أستطيع الاستمرار فترة أطول فى هذا البحر الجليدى . ثم عادت الامواج الهادرة تندفع الى الامام فكدفتنى فى ذلك الاتجاه وأنا الطم هنا وأضرب هناك . وفجأة وجدت نفسى واقفا اتنفس الهواء . وفى الحقيقة حدث هذا كله بسرعة شعرت معها بدھشة لم أفكر معها بالشعور بالارتياح والذي كان هو الشعور المتعلق فى تلك اللحظة ، كما لم يخطر على بالى ان أحمد الله لحظى الجيد فى البقاء حيا . رحت استنشق الهواء بلهفة بينما رفع كل محاربى بيولف حولى رعوسهم فوق سطح الماء وراحوا يستنشقون الهواء مثلى .

والآن اليكم ما رأيت : كنا فيما يشبه البركة او البحيرة داخل كهف له قبة صخرية ناعمة ومدخل من ناحية البحر كنا قد اخترقناه لتونا . وأمامنا مباشرة كان هناك فراغ صخرى مسطح . وقد رأيت ثلاثة او اربعة أشكال سمراء تجلس القرفصاء حول نار مشتعلة ، وكانت هذه المخلوقات ترتل بأصوات عالية . وفهمت الان سبب تسمية هذا الكهف بكهف الرعد لانه مع كل تحطم للامواج المتلاطمة كان الصوت يتجاوب داخل الكهف بقوة كانت تؤلم الأذان ، حتى ان الهواء نفسه بدأ وكأنه يهتز ويضغط بقوة :

فى هذا الكهف ، قام بيولف ومحاربوه بهجومهم وقد انضممت أنا اليهم . وبخناجرنا القصيرة قتلنا اربعة شياطين فى الكهف . وقد تمكنت من رؤيتهم بوضوح ولأول مرة على ضوء النار المتاججة التى كانت السنة ليهبها تتراقص وتقفز بجنون مع كل لطمة من لطمات الامواج المرعدة . اما منظر هذه الشياطين فكان كالتالى : كانوا يبدون كالبشر فى كل مجال ولكن فى نفس الوقت لم يكونوا كاي انسان على

سطح الأرض . كانوا مخلوقات قصيرة ، عراض الاكتاف يجلسون القرقصاء ، وكان الشعر كثيفا على كل جزء من أجزاء جسداهم باستثناء راحة اليد وكعب القدم والوجه . كانت وجوههم كبيرة جدا لها فم وكان كبيران بارزان وكانت ملامحهم قبيحة . كما أن رعوسهم كانت أكبر من رعوس البشر العاديين ، أما عيونهم فكانت غائرة بعمق في رعوسهم ، وحواجبهم كثة ضخمة ليس بسبب الحواجب المليئة بالشعر ولكن بسبب العظام البارزة . وكانت أسنانهم أيضا كبيرة حادة مع أنه صحيح أيضا أن أسنان الكثيرين منهم كان مبرية مهترئة ومنبسطة .

الفصل التاسع والعشرون

وفي مجالات أخرى من معالم أجسامهم ، وفيما يتعلق بالأعضاء التناسلية والفتحات العديدة فإن الوندول يشبهون البشر أيضا في هذا المجال . كان أحد هذه المخلوقات يموت ببطء وكان يحاول أن يرسم بعض الأصوات بلسانه بدت لازني وكأنها نوع من أنواع الكلام ، ولكنني لم أستطع أن أتأكد من هذا وأنا أعيد قص الحادثة دون التزام بهذا الموضوع .

القي بيولف نظرة فاحصة على هذه المخلوقات الأربع الميتة ، بفرائهم السميك ، ثم سمعنا ترتيلا رهيبا تتردد أصداؤه وكان صوت يرتفع ثم ينخفض على ترانيم رعد تلاطم الأمواج ، وكان الصوت ينبعث من أعماق الكهف الحالكة . عندما قادنا بيولف إلى تلك الأعماق .

وهناك وقفنا على ثلاثة مخلوقات أخرى كانوا منبطحين على الأرض ووجوههم متجهة إلى الأرض وأيديهم مرفوعة تضرعا باتجاه مخلوق عجوز مختبئ في الظلال . هذه التضمرات كانت تشبه التراتيل وكان المتضرعون غارقين بتراتيلهم إلى حد لم يلاحظوا معه وصولنا . لكن المخلوق العجوز رأنا وصرخ صرخة مرعبة حين اقتربنا منه . وقد أخذت ذلك المخلوق على أنه أم الوندول ولكنها ان كانت أنثى لم أرى اثرا لذلك لأنها كانت على درجة من الهرم أصبحت معها لا جنس لها . انقض بيولف وحيدا على المتضرعين وقتلهم جميعا بينما المخلوقة الأم راحت تتراجع في الظلام وتصرخ صراخا مرعبا . لم أستطع

رؤيتها بوضوح ولكن ما سارويه الان حقيقى رأيت به معنى : كانت محاطة بالافاعى التى التفت حول قدميها على يديها وحول غنقها . وكانت هذه الافاعى تفتح وتلتق بالسنتها . ولان هذه الافاعى كانت فى كل مكان حولها وعلى جسدها وعلى الارض ايضا فلم يجرؤ اى محاربى بيولف على الاقتراب منها .

ثم هاجمها بيولف فاطلقت صرخة خوف وهيبة عندما غرز خنجره عميقا فى صدرها دون ان يعير الافاعى اى انتباه . طعن ام الوندول عدة طعنات بخنجره ولكنها لم تنهار ولم تسقط بل بقيت واقفة رغم الدم الذى كان ينسكب منها كما لو كان يتدفق من ينبوع ، ومن الجراح العديدة التى اوقعها بها بيولف . وبقيت طيلة تلك الفترة تصرخ بصوت يثير اشد الرعب .

واخيرا تنهات وسقطت ميتة فاستدار بيولف ليواجه محاربيه . عندها رأينا ان هذه المرأة ، ام اكلة الموتى ، قد جرحته . كان دبوس فضى شبيه بدبابيس الشعر قد دفن فى أمعائه . وكان هذا الدبوس يهتز عند كل نبضة قلب . انتزعته بيولف من مكانه انتزاعا فانسكبت وراءه دفقة من الدم ، لكنه لم يركع على ركبتيه رغم جرحه القاتل ، بل بدلا من ذلك وقف واعطى أوامره بمفادرة الكهف .

نفذنا الامر منطلقين من الباب الثانى المنفتح على اليابسة . هذا المدخل كان محروسا لكن كل الحرس الوندول كانوا قد فروا عند سماعهم صرخات امهم المحتضرة . غادرنا المكان دون اى انزعاج حيث قادنا بيولف خارج الكهف ومن هناك عدنا الى خيولنا . وعند ذلك فقط انهار بيولف وسقط على الارض .

امر اكشفو بوجه حزين غير مالوف ابدا بين الشماليين يطفى عليه امر بصناعة مايشبه النقالة حملنا بيولف عليها عبر الحقول الى مملكة روث غار . وطيلة ذلك الوقت كان بيولف مرحا جورا ومنطلقا . لم افهم الكثير مما قال ، ولكن سمعته مرة يقول : « لن يكون روث غار سعيد لرؤيتنا ، اذ عليه ان يقيم وليمة اخرى وقد أصبح الان مضيقا مستنزفا الى ابعد الحدود » . ضحك المقاتلون لهذا كما ضحكوا لكلمات اخرى اطلقها بيولف ، وقد لاحظت ان ضحكهم كان امينا مخلصا .

وصلنا الى مملكة روث غار حيث استقبلنا بالهتافات والسعادة الفامرة ولم يكن هناك اى اثر للحزن ، رغم أن بيولف كان جريحا يعانى الموت وقد تحول لحمه الى اللون الرمادى وراح جسده يهتز بينما كان يضىء عينيه شعاع من روح مريضة مرتعشة بالحمى . هذه علامات كنت أعرفها جيدا ، وكان يعرفها أيضا أهل الشمال .

أحضر لبيولف وعاء من حساء البصل ، ولكنه رفضه قائلا ، « أنا مصاب بمرض الحساء ، فلا ترجعوا انفسكم من أجلى » . ثم طلب إقامة احتفال وأصر على أن يترأسه هو شخصيا ، جلس خلاله منتصبا على مقعد حجرى الى جانب الملك روث غار وشرب شراب الميد وفرح ومرح كثيرا . كنت بجسائه حين قال للملك روث غار فى وسط الاحتفالات ، « ليس لى عبيد » . اجاب روث غار « كل عبيدى هم عبيدك » . فقال بيولف « ليس عندى خيول » . ويجيب روث غار ثانية « كل خيولى هى خيولك . لا تشغل بالك بهذه الامور » . وكان بيولف وقد ضمدت جراحه سعيدا وراح يتسم وقد عاد اللون الى خديه ذلك المساء ، وكان يبدو وكأنه يزداد قوة مع مرور كل لحظة من ذلك المساء . ومع انى لم اكن لاصدق بأن هذا ممكن ، فقد راح يضاجع فتاة جارية ، قال لى بعدها مازحا « الرجل الميت ليس ذا فائدة لاي انسان » .

ثم غاب بيولف فى سبات عميق ، بينما ازداد لونه شحوبا وتنفسه بطئا . وكنت أخشى الا يستيقظ من نومه هذا . ربما فكر هو أيضا بنفس الطريقة ، لانه حين نام أمسك بسيفه وقبض عليه بشدة بيده .

الفصل الثلاثون

الوندول ونزع العون الاخير

رحت أنا أيضا فى سبات عميق . لكن هرغر ايقظنى بهذه الكلمات : « عليك أن تأتى بسرعة » . وبعدها سمعت صوت رعد بعيد . نظرت

الى النافذة الجلدية(١) فأدركت أن الفجر لم يبرغ بعد ، لكنى استلقت
سيفى رغم انى فى الواقع كنت قد غفوت وأنا مرتد درعى دون أن
اهتم بخلمه . ثم أسرعت الخطى خارجا ، حيث كانت الساعة قبيل
الفجر والهواء ضيبيبا ثقيلًا يملؤه هدير حوافر بعيدة .

قال هرغر « انهم الوندول باتون الينا . انهم على علم بجراح بيولف
القائلة ، وهم يطلبون الثار الاخير لمقتل أمهم » .

اتخذ كل من محاربى بيولف ، وأنا بينهم ، مكانا على امتداد
التحصينات التى كنا قد اقمناها لمقاومة الوندول . وقد كانت دفاعات
ضعيفة جدا ، ولكن لم يكن هناك بديل عنها . رحنا نحدق فى الضباب
محاولين استشفاف رؤية الخيالة العادين على خيولهم باتجاهنا .
ولقد كنت أتوقع خوفا عظيما وهلما ، الا انى لم اشعر بشيء من هذا ،
اذ كنت قد رايت ملامح الوندول ، وكنت أعرف انهم مخلوقات ككل
المخلوقات ، وان لم يكونوا بشرا كما القردة أيضا تشبه البشر . ولكنى
كنت أعرف انهم قانون وانهم يموتون .

ولهذا لم يكن لدى أى خوف ما عدا توقع هذه المعركة الاخيرة .
وكنيت فى هذه الحال وحيدا ، لانى وجدت أن محاربى بيولف بدأ
يعتريهم ويظهر عليهم الخوف الشديد رغم محاولاتهم الجاهدة لاختفاء
هذا الخوف . وفى الحقيقة بما أننا كنا قد قتلنا أم الوندول التى
كانت قائدهم أيضا فانا فقدنا بيولف أيضا الذى كان قائدا ، ولم
يكن هناك أى مظهر من مظاهر الفرح بينما كنا ننتظر ونصفى الى تقدم
الاعد واقترابه منا .

ثم سمعت حركة ورالى وحين التفت رايت ما يلى : كان بيولف
وقد شحب لونه حتى أصبح كلون الضباب نفسه وقد تلعغ بالبياض
حول جراحه ، كان واقفا منتصبا على أرض مملكة روث غار وعلى
كتفيه كان يجلس غرابان أسودان واحد على كل كتف . ما أن رأى

(١) التعبير العربى هو نالدة العنزير ، فقد كان الشماليون يستعملون الجلود
المبطومة بدلا من الزجاج ليطفوا بوافنهم الضيقة . هذه الاغشية أو الجلود كانت
شفافة لكن لم يكن بإمكان المرء أن يرى الكثير من خلالها ، الا ان الضياء كان
يخترقها الى داخل البيوت .

الشماليون هذا المنظر حتى صرخوا ذعرا من قدومه ثم رفعوا أسلحتهم في الهواء وصاحوا صيحة الحرب (١) .

لم ينطق بيولف بكلمة واحدة كما لم يلتفت الى اية جهة ابدا ولم تصدر عنه اية اشارة توحى بأنه كان يميز أيا منا ، ولكنه صار بخطوات متزنة الى الامام مجتازا خط التحصينات ، وهناك راح ينتظر هجوم الوندول . وفجأة طار الفرابان فقبض على سيفه وندفع واستعد لمواجهة الهجوم .

ما من كلمات تستطيع ان تصف الهجوم النهائي للوندول في ذلك الفجر الضبابي . وما من كلمات ستكون قادرة على وصف حجم الدماء التي أهرقت ولا الصيحات التي ملأت الجو الثقيل ولا الخيول ولا الفرسان الذين ماتوا في هذه الملحمة المخيفة . وبأم عيني رأيت اكثفوا بدراعيه الفولاذيتين : رأيت والده وقد قطع رأسه دفعة واحدة سيف من سيوف الوندول فسقط الرأس على الارض وراح ينط ويقفز كدمية طفل بينما اللسان كان لا يزال يتحرك في فمه . ولقد رأيت ويث أيضا يتلقى رمحا في صدره الصقة بالارض وسمره هناك حيث راح يتلوى كسمكة أخرجت لتوها من البحر . ورأيت فتاة طفلة داستها حوافر الخيول فتحطم جسدها وسوى بالارض بينما كان الدم يتصبب من أذنها . ولقد رأيت امرأة كانت أحدى جواري الملك روث غار : كان جسدها قد شطر شطرين بينما كانت تركض هاربة من أحد الخيالة : كما رأيت أطفالا آخرين كثيرين قتلوا بنفس

(١) هذا القطع من المخطوطة تم تجسيمه من مخطوطة الرازي الذي كان اهتمامه الاول ينصب على التقنية العسكرية . وسواء عرف ابن فضلان أم لم يعرف أو سجل أم لم يسجل فإن مغزى ظهور بيولف ثانية غير معروف ومن المؤكد أن الرازي لم يفضلها من عنده رغم أن المغزى واضح بما فيه الكفاية . ففي الاساطير الشمالية يظهر أودن عادة وهو يحمل غرابا على كل كتف من كتفيه . هذان الطيران يأتيانه بكل أخبار العالم . وأودن هذا كان الاله الرئيسى في هيكل الالهة الشمالية وكان يعتبر الاب الكسوف . وكان يحكم خاصة في أمور الحرب ، كما كان يعتقد أنه من وقت لآخر يظهر بين الناس ولكن نادرا : يشكله الالهى لانه كان يفضل أن يتخذ مظهر المسافر العادى البسيط . ولقد قيل أن العدو كان يفزع ويفر من مجرد حضوره .

ومن المفيد أن نعرف أن هناك قصة تروى عن أودن انه يقتل ثم يبعث بعد تسعة أيام . ويعتقد معظم المطلعين أن هذه الفكرة سابقة لاي تأثير مسيحي . وعلى كل حال فان أودن المبعوث حيا يبقى فانيا وكان يعتقد أنه لا يهد وأن يموت أخيرا في يوم .

الايام .

الطريقة . ولقد رأيت تخيولا تتراجع ثم تهوى ليهوى عنها قربانها
فتهوى عليهم بدورهم الرجال والنساء ويلبسونهم ذبح النعاج وهم
ما زالوا مستلقين على ظهورهم مذهولين . ورأيت وغلف ، ابن روث
غار يهرب من وسط المعركة ويختبئ طالبا امان الجبان . اما المنادي
فلم أره ذلك اليوم .

ولقد قتلت آنا بنفسها ثلاثة من الوندول ، كما أصبت برمح فى
كتفى الذى كان اله يشبه الم الوقوع فى النار . فقد كان دمي يطفى
على طول ذراعى وحتى داخل صدرى . وكنت اظن اننى سأنهار ولكننى
استمررت فى القتال .

بدأت الان الشمس تترامى شيئا فشيئا من خلال الضباب وسرعان
ما بسط الفجر نوره علينا وبدا الضباب بالانسحاب كما اختفى
الخيالة ايضا . وفى ضوء النهار الساطع رأيت الجثث منتشرة فى كل
مكان بما فيها الكثير الكثير من جثث الوندول لانهم لم يجمعوا
موتاهم هذه المرة . وكانت هذه شارة نهايتهم الابدية ، فقد أصبحوا
فى فوضى واضطراب عظيمين ولن يستطيعوا أن يهاجموا روث غار
ثانية وادرك كل سكان المملكة مغزى ذلك وفرحوا لذلك فرحا
عظيما .

ففسل هرغر لى جراحى وكان مرحا مسرورا حتى ادخل جسد
بيولف الى قاعة روث غار الكبرى . كان بيولف قد مات فوق موته
الاول ميتات كثيرة : فقد كانت جثته محفورة بسيف عشرة خصوم
على الاقل ، وكان وجهه وجسده غارقين فى دمه الذى كان ما زال
دافئا . ما أن رأى هرغر هذا المنظر حتى تفجرت الدموع فى عينيه
وراح يحاول اخفاء وجهه عنى ولكنه لم يكن بحاجة الى ذلك فقد
أجست بدموعى أنا الاخر تنشر الضباب فى عيني .

مدد جسد بيولف امام الملك روث غار الذى كان من واجبه الان
أن يلقى خطابا . لكن الملك المجوز لم يكن قادرا أن يفعل شيئا كهذا
ولكنه ردد هذه الكلمات فحسب : « هذا محارب وبطل أهل لان يكون
الها . ادفنوه كما يدفن عظماء الملوك » . ثم غادر القاعة . واعتقد أن
كان يشمر بالخجل والعار لانه لم يشترك شخصا بالمعركة ، كما أن
ابنه وغلف هرب كجبان رعديد وقد رآه الكثيرون يفعل ذلك
بسموه تصم . وقد يكون هذا مما زاد عار الاب وخجله ،

أو قد يكون هناك سبب آخر لم أدركه . وفى الحقيقة كان رجلا فى غاية الهرم .

وحدث الآن أن همس وغلف بصوت خفيض قائلا للمنادى : « لقد قدم لنا بيولف هذا خدمة عظيمة ، وما يزيد عظمة هو موته فى نهاية هذه الخدمة . قال هذا بعد أن غادر أبوه الملك القاعة » .

سمع هرغر هذه الكلمات كما سمعتها أنا أيضا ، وكنت أول من استل سيفه . فخاطبني هرغر قائلا « لا تنازل هذا الرجل فهو ثعلب مكار ، وأنت مجروح » . قلت له « ومن يهتم بالجراح ؟ » واندفعت متحديا وغلف الابن فى القساعة نفسها . استل وغلف سيفه فى اللحظة التى لطمنى بها هرغر لكمة قوية من الخلف جاءتني على غفلة فسقطت وأنا الف وأدور ثم التجم هرغر فى معركة رهيبة مع وغلف . واستل المنادى سيفه أيضا وتحرك خلسة بهدف الوقوف خلف هرغر وطمعه فى الخلف . هذا المنادى قتلته بنفسى بقرز سيفى عميقا فى بطنه ، فصرخ المنادى صرخة خرجت معها روحه . سمع وغلف صيحته ، ورغم أنه كان يقاتل بشراسة من قبل فإنه أبدى الآن الكثير من الخوف فى صراعه مع هرغر .

وحدث الآن أن الملك روث غار سمع قعقة السيوف فماد ثانيا الى القاعة الكبرى ورجا إيقاف القتال ولكن عشا ، فقد كان هرغر مصرا عنيدا فى مطلبه . ولقد رأيت يقف منتصبا بجانب جسد بيولف ثم يطلق سيفه صوب وغلف فيطمعه ويسقط وغلف على طاولة روث غار ثم يتناول كأس الملك ويسحبها صوب شفثيه . لكن الحقيقة هى أنه مات دون أن يشرب . وهكذا انتهت القضية .

أما رفاق بيولف والذين كان عددهم ثلاثة عشر ، فلم يبق منهم الا اربعة وأنا منهم . وضعنا جثة بيولف تحت سقف خشبى وتركنا جسده مع كأس من شراب الميذ فى يديه ثم خاطب هرغر الناس التجمعين قائلا : « من سيموت مع هذا الرجل العظيم ؟ » عندها تقدمت امرأة كانت جارية من جوارى الملك روث غار وقالت انها ستوت مع بيولف ، فبدأت إقامة الاستعدادات المتعاقبة عند أهل الشمال لعملية الدفن (هنا رغم أن ابن فضلان لا يحدد مرور فترة

زمنية معينة فلا بد أن تكون قد مضت بضعة أيام قبل حفل الدفن الرسمي .

جهزت سفينة على الشاطئ تحت قاعة روث غار وأقيمت فيها كنوز الذهب والفضة كما أقيمت فيها جثتا حصانين أيضا . وبنيت فيها خيمة وضع فيها بيولف الذى كان الموت قد حجب جسده الآن . كان جسده قد اتخذ لون الموت الأسود فى ذلك المناخ البارد . ثم أخذت الجارية الى كل من مقاتلى بيولف ثم جىء بها الى مضاجعتها . وهى تقول لى « أن سيدى يشكرك » وكانت تعابير وجهها وتصرفاتها فى أروع حالات المرح والسرور وبحال أكثر تعبيراً من حالات السرور المعتادة والتي يديها الشماليون فى مثل هذه الظروف . وبينما كانت ترتدى ثيابها ثانية ، تلك الثياب التي كانت تحتوى العديد من قطع الذهب والفضة قلت لها بأنها كانت ممتعة غاية الامتاع مسرورة غاية السرور .

وقد كان رأيى بها أنها كانت صبية جميلة فاتنة فتية غضة ومع ذلك كانت ستموت بعد قليل ، وهو ما كانت تعرفه كما اعرفه أنا . قالت لى : « اننى مسرورة فرحة لاننى سألتقى بسيدى عما قريب » . ولكنها لم تكن قد شربت شيئاً من شراب الميد أبداً ، وكانت تحكى عواطفها بصديق . كانت ملامح وجهها تشع مشرقة كملامح طفل سعيد أو كملامح بعض النساء حين يحضن طفلاً . هكذا كانت طبيعة الأشياء .

قلت لها : « أخبرى سيدك عندما تلتقين به بأننى عشت وسأعيش لاكتب » . لا أدري أن كانت قد فهمت هذه الكلمات . قلت لها مضيقاً « لقد كانت تلك رغبة سيدك » .

« اذن سأخبره بهذا » . وبهذه الجملة تركتنى بفيض من السرور وانتقلت الى محارب آخر من محاربى بيولف . لا أدري ان كانت قد فهمت مغزى وقصدى لان الشكل الوحيد من الكتابة الذى يعرفه هؤلاء الشماليون هو الحفر على الخشب أو على الحجر ، والذي لا يفعلونه الا نادراً . ثم ان حديثى بلسان أهل الشمال لم يكن واضحاً . لكنها رغم ذلك كانت مريحة سعيدة واستمرت كذلك .

فى المساء وبينما كانت الشمس تفرق نفسها فى مياه البحر ، كانت

سفينة بيولف قد أصبحت جاهزة على الشاطئ فأخذت الصبية الغضة الى داخل السفينة . وهناك قامت الحيزبون المعجوز السماء بملاك الموت بوضع الخنجر بين اضلاعها بينما قمت انا وهرغر بشد الحبل الذي خنقها واطفأ أنفاسها ، ثم اجلسناها بجانب بيولف وغادرنا السفينة .

لم اتناول طعاما أو شرابا طيلة اليوم ، لأننى كنت اعلم اننى سأشارك فى هذه الامور ، ولم اكن ارجب فى معاناة حرج افراغ معدتى فى هذه الظروف . ولكن الغريب اننى لم اشعر بأى مقت أو غضاضة فى أى من افعال ذلك اليوم ، كما لم يغم على ولم اشعر بدوار فى راسى وأحسست بالفخر بينى وبين نفسى . والحقيقة ان تلك الصبية العذبة ابتسمت لحظة موتها وبقيت تلك الابتسامة متحجرة على وجهها بعد خنقها بحيث جلست بجانب سيدها والبسمة عالقة على وجهها الشاحب أما وجه بيولف فكان أسود وعيناه مغمضتين لكن تعابيره كانت هادئة وديمة . هكذا كانت آخر رؤية لى لهذين الشماليين .

واضربت النار فى سفينة بيولف ثم دفعت الى عرض البحر ، بينما وقف الشماليون على الشاطئ الصخري ورنعوا ابتهالات كثيرة الى آلهتهم . وبأم عيني رأيت السفينة تحملها التيارات كطوافة تحترق ثم غابت عن أبصارنا وهبط ظلام الليل مرة أخرى على أرض الشمال .

الفصل الحادى والثلاثون

العودة من بلاد الشمال

قضيت بضعة أسابيع أخرى برفقة محاربى ونبلاء روث غار . كان ذلك وقتا ممتعا ، لان الجميع كانوا ودودين كرماء ، وقد اعتنوا عناية عظيمة بجراحى التى شفيت تماما والحمد لله . ولكننى اسبغت اشعر بالرغبة فى العودة الى بلادى . ولقد اعلمت الملك روث غار باننى

كنت مندوب خليفة بغداد وأنه يجب على أن أتم مهمتي التي أرسلني لانجزها والا استحققت غضبه .

لكن هذا لم يكن ليثير اهتمام روث غار الذي قال انني محارب نبيل وأنه كان يرغب في أن أبقى في مملكته لاجبا حياة محارب مكرم . وقال انني كنت صديقه الابدى وانني استطيع ان احصل على اى شيء ارغبه ويستطيع هو ان يقدمه لى . الا انه كان مترددا في السماح لى بمغادرة مملكته واخترع كل انواع الاعذار واسباب التأخير التي قد تخطر على بال . في البدء قال روث غار انه على ان اعتنى بجراحى مع انه كان واضحا ان هذه الجراح قد شفيت تماما . ثم عاد وقال انه يجب على ان استعيد قوتى مع انه كان واضحا ان قوتى قد عادت الى . واهيرا قال انه يجب على ان انتظر اعداد سفينة ، وهو امر لم يكن سهلا . وحين سألت عن الوقت الذي يستغرقه اعداد سفينة كهذه اعطاني الملك جوابا غامضا ، كما لو ان هذا الامر لم يكن يهمه كثيرا . وفي اللحظات التي كنت فيها الح بالمطالبة في الرحيل كان يفضب ويتساءل عما اذا كنت غير مكثف او راض عن كرمه . وجوابا على ذلك كنت مضطرا ان امتدح سماحته وكرمه واردد كل تعابير الرضى والقناعة . وسرعان ما ادركت بان الملك العجوز كان اقل حماقة مما كنت اظن من قبل .

عدت الى هرغر لاحدثه عن مأساتى ، وقلت له : « ان هذا الملك ليس بالاحق الذي كنت اظن » . قال هرغر مجيبا « انت مخطيء لانه في الواقع احمق مجنون ولا يتصرف تصرف العاقلين » ثم اضاف بأنه سيرتب امر رحلى مع الملك .

وكان الاسلوب الذي اتبعه كالتالى . طلب هرغر مقابلة الملك في خلوة ثم قال له انه ملك عظيم حكيم كان شعبه يحبه ويحترمه وما ذلك الا للطريقة التي كان يعتنى بها بقضايا مملكته وشعبه . ويبدو ان هذه اللحظة بالذات قال له هرغر انه من بين ابناء الملك الخمسة لم يبق الا واحد منهم ، وكان ذلك وولف غار الذي كان قد ذهب ليقوم بدور الرسول عند بيولف ، وبقي بعيدا . ثم اضاف هرغر بأنه لابد من استدعاء وولف غار للمودة الى الوطن وأنه يجب اعداد جماعة

تقوم بهذه المهمة ، لانه لم يعد هناك من وريث آخر للمملكة سوى وولف غار .

حدث الملك بكل هذه الامور ، واعتقد بأنه قال شيئا كهذا وعلى انفراد للملكة وليو التي كان لها تأثير كبير على زوجها الملك .

ثم حدث فى احدى الولايم المسائية أن دعا الملك روث غار الى تجهيز سفينة وبحارتها لتذهب فى رحلة لاعادة وولف غار الى المملكة . طلبت أن انضم الى طاقم البحارة ، وهو ما لم يستطع الملك العجوز أن يرفضه . وقد استغرق اعداد السفينة بضعة ايام ، قضيت معظمها برفقة هرغر الذى اختار الان أن يبقى فى المملكة .

فى أحد تلك الايام وقفنا معا على الجرف ننظر من عل الى السفينة الراسية على الشاطئ وقد تم اعدادها للرحلة وزودت بكل المؤن الضرورية . قال لى هرغر : « انت على وشك الانطلاق فى رحلة طويلة . وسنصلى جميعا من أجل وصولك بالسلامة » .

وعندما سألته لمن سيصلى من أجلى اجاب قائلا « سنصلى للاله اودن وفريه وثور وورد والعديد من آلهتنا الاخرين الذين قد يكون لهم أثر فى سلامة رحلتك » . كانت هذه طبعاً أسماء آلهة الشماليين .

اجبت قائلا : « انى أو من باله واحد هو الله الرحمن الرحيم » . قال هرغر « انى أعلم هذا ربما كان اله واحد فى بلادكم كافيا ، ولكن ليس هنا . فهنا . آلهة كثيرة وكل له أهميته ، وسنصلى لهم جميعا من أجلك ومن أجل سلامتك » . عندها شكرته لان صلاة الكافرين جيدة قدر ما هى مخلصة صادقة ، وما شككت لحظة فى اخلاص هرغر .

كان هرغر يعلم منذ وقت طويل اننى كنت على عقيدة مختلفة من عقيدته ولكن ما أن اقترب وقت رحيلى حتى راح يسأل مرارا وتكرارا عن معتقداتى ثم ، وفى لحظات مفاجئة يحاول أن يضبطنى متلبسا ليتعلم الحقيقة . وكنت أنظر الى أسئلته العديدة على أنها شكل من أشكال الامتحان كما امتحن بيولف مرة معرفتى بالكتابة . ولكنى كنت دائما أجيبه بنفس الطريقة مما كان يزيد فى حيرته .

وفي أحد الايام قال لى غير محاول الادعاء بأنه لم يسألنى سابقا :
« وما هى طبيعة الهك الله ؟ » .

قلت له « الله هو الواحد الاحد الذي يحكم كل الاشياء ويرى كل
الاشياء ويعلم كل الاشياء ويتصرف بكل الاشياء » . كانت هذه كلمات
اعدتها على مسامعه مرات ومرات فى الماضى .

وبعد وقت قصير سألنى هرغر « الا تنضب الهك الله هذا أبدا ؟ »
قلت « طبعا انى افضبه ولكنه غفور رحيم » وسأل هرغر « أهو
غفور رحيم عندما يرى ذلك ؟ » أجبت بان هذا الواقع فراح هرغر
يتأمل أجابى بامعان . واخيرا قال لى وهو يهز راسه ياسا : « ان
المخاطرة كبيرة جدا .. فالانسان لا يستطيع ان يحل كل ثقتة وإيمانه
فى شىء واحد ، سواء اكان ذلك الشىء امرأة او حصانا او سلاحا او
اى شىء مفرد . » قلت له « ومع ذلك فانا أضع كل ثقتى فى هذا
الواحد الاحد » . أجاب هرغر قائلا « ماتراه هو الافضل ، ولكن هناك
الكثير الكثير مما لا يدركه الانسان . وان ما لابعلمه الانسان هو عالم
الالهة . »

من هذا ادركت انه لايمكن اقتناعه باعتناق معتقداتى ولا انا باعتناق
معتقداته ، وهكذا افترقنا . وفى الحقيقة كانت ساعة فراق حزين
جدا وكان قلبى يتفطر الما لاننى كنت ابتعد عن هرغر وعن بقيسة
المحاربين . وقد شعر هرغر بنفس الشىء . أمسكت به من كتفيه
وامسك هو من كتفى ثم انطلقت الى السفينة السوداء التى حملتنى
الى بلاد الوانز . وبينما كانت هذه السفينة بطاقتها القوى تنساب
مبتعدة عن شواطئ فندان وقع بصرى على أعلى السطوح المتوهجة
المتألقة لقاعة هاروت الكبرى وعندما التفت الى الجانب الاخر وقع
بصرى على المحيط المديد امامنا . والان حدث ان .

(وهنا تنتهى المخطوطة فجأة عند هذه النقطة ، والتى هى نهاية
صفحة مخطوطية باليد تنهيا الكلمات الموجزة التالية Munc Fit
ومع انه واضح ان للمخطوطة تنمة فانه لم تكتشف اى مقاطع اخرى .
هذه بالطبع هى الحادثة التاريخية بكل صفاتها الا ان كل مترجم قد

علق على هذه المنطقية الشاذة لهذه النهاية المفاجئة ، والتي تثير احتمال
بداية مغامرة جديدة ، أو منظر جديد غريب قد نهرم علينا معرفته
لاكثر الاسباب مرضية عرفتها السنوات الالف الماضية .

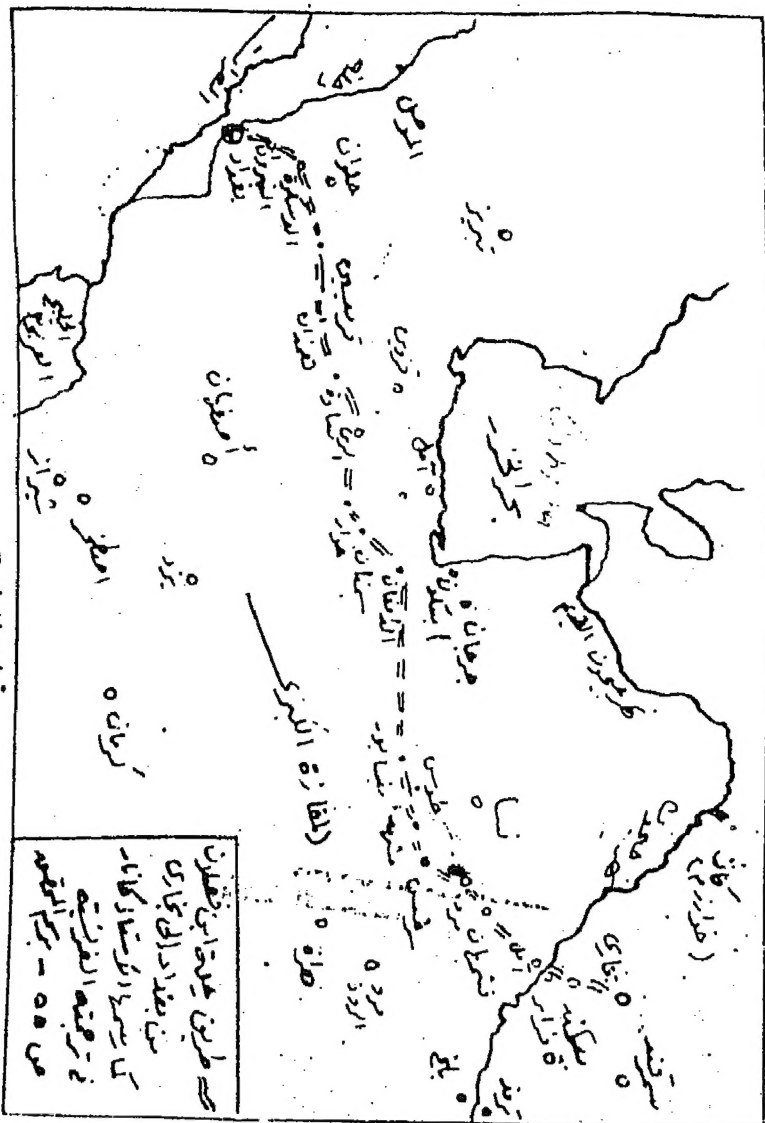
تمت

رقم الايداع : ١٧٣٧٨ / ١٩٩٩

I. S. B. N

4 - (07-0691-977


BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية



مجلة

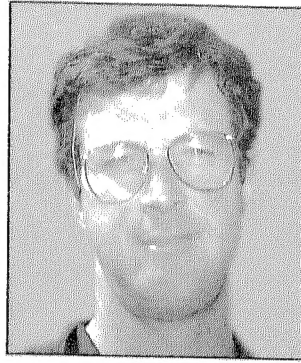
الهلال

مهدي الأبداع الثقافي
واشعاع الفكر المعاصر

الهلال

تصدر أول كل شهر

رئيس التحرير: مصطفى نبيل



هذه الرواية نشرناها عام ١٩٨٥ ونفدت في أسابيع قليلة واليوم في نهاية عام ١٩٩٩، هي حديث الناس في كل أنحاء العالم، بعد أن، تحولت إلي فيلم عالمي باسم «المحارب رقم ١٣»، إخراج جون ماكترنينيات، وبطولة انطونيو بانديراس وعمر الشريف، وأجمعت كل الاقلام أن الغرب بدأ يغير من صورته عن العربي، فهو هنا رحالة مغامر عاشق للعلم، والمعرفة، مؤمن بالله، ولماح وشديد الذكاء.

مؤلف هذه الرواية هو مايكل كرايتون واحد من أغلى الأدباء المعاصرين، وهو الذي قام بانتاج الفيلم بنفسه، وهو صاحب مشهورة منها «حديقة الديناصورات»، و «عالم الغرب» كما أنا من أكثر خبراء الكمبيوتر مهارة.

إنها رواية عن العرب القدامى، برؤية معاصرة، تناسب اية

٢٠٠٠.

التمن

Bibliotheca Alexandrina



0334350